التاريخ الإسلامي

في تفسير جديد

تأليف

الدكتور محمد عبد الحي شعبان

الكتاب الأول

٦٠٠ - ٧٥٠ م. (- ١٣٢ هـ)

ترجمة

عبد المجيد حسيب القيسي

دار الدراسات الخليجية

التاريخ الإسلامي

في تفسير جديد

الكتاب الأول



التاريخ الإسلامي

في تفسير جديد

تأليف

الدكتور محمد عبد الحي شعبان

الكتاب الأول

٦٠٠-٧٥٠ م. (-١٣٢ هـ)

ترجمة

عبد المجيد حسيب القيسي

دار الدراسات الخليجية



إهداء

إلى حضرة صاحب السمو
الشيخ سرور بن محمد آل نهيان
أهدي هذا الكتاب
تحية احترام وولاء
ورمز ود ووفاء
وعرفاناً بالجزيل من جميله ونبله وسجاياه
وذكرى
ليالي وأيام قضيناها
نتذاكر أخبار الماضي وأحداثه
ونتدارس أحوال الحاضر ومشاكله
ونستشرف آفاق المستقبل وآماله
يحفزنا ويحدونا
أمل في غدٍ مشرق دائم إن شاء الله
أدام الله بالعز الوافر والنعمة السابغة أيامكم
وحقق لكم، في يومكم والغد، وبعونه تعالى
ونصره آمالكم، وأن ينصركم الله فلا غالب لكم

عبد المجيد القيسي

فهرست الكتاب

الخرائط :

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المترجم

منذ بضع سنوات خلت قدّمنا للقرّاء الكرام ترجمة لكتاب «الثورة العباسية» الذي وضعه في الانكليزية، أستاذنا الدكتور محمد عبد الحي شعبان، وقد وعدنا القرّاء وقت ذاك بأن نتبع ترجمة ذلك الكتاب بترجمة لكتابَيه الآخرين عن تاريخ العرب والاسلام، وها نحن الآن، وبعد غياب طويل، لم يكن في أيدينا إلى تجنّبه من سبيل، نقدّم ترجمة هذين الكتابين وفاء بالوعد الذي قطعناه وخدمة للقراء العرب وللتاريخ العربي.

* * *

ولسنا هنا في حاجة الى تكرار التعريف بمؤلفنا الدكتور شعبان، فقد عرضنا في مقدمتنا لترجمة كتابه عن «الثورة العباسية» لكل ما يعني القرّاء عرفانه عن تاريخ حياته وعن مسيرة جهاده الشاق في سبيل العلم والعرفان والذي انتهى به بعد البذل والمعاناة الى مكانه السامي المرموق بين القلة المختارة من المؤرخين الاسلاميين عرباً كانوا أم غير عرب، وفي مشرق الأرض أو مغربها على حد سواء، حيث وهب كل نفسه وفكره لخدمة هذا التاريخ بكل الصدق والوفاء في كل ما يدرس أو يدرّس أو يكتب أو يبحث أو يحقق أو ينشر أو يحاضر.

وحسبنا اليوم أن نتعرَّف على هذين الكتابين وموضوعها وعن مكانها بين الدراسات الاسلامية المتنامي، هذه الأيام، عددها وعن نهج المؤلف الدكتور شعبان في دراسة التاريخ وكتابته.

ومناهج الكتابة التاريخية أنماط شتى ولفهم التاريخ وتفسيره مدارس متعددات مختلفات بدأت منذ بدأ الانسان تدوين تاريخه وتطورت بتطوره، ولسنا هنا في مجال

الخوض في غمار هذه المناهج والمدارس شرحاً وتفسيراً وإنما يكفينا من كل ذلك أن ندل على نهج مؤلفنا من بينها.

وقد آثر مؤلفنا الدكتور شعبان النهج التحليلي في فهم التاريخ وتفسيره في كل بحوثه ودراساته، وهذا النهج وإن يكن أصعب المناهج مأخذاً وأشدّها جهداً إلا أنه اكثرها نفعاً في فهم حقائق الأحداث وأقربها الى واقع الحياة والى روح العصر.

وخلاصة القول في هذا النهج انه يتجاوز التوسع في سرد الأحداث والتواريخ وذكر أخبار الملوك وحروبهم ومؤامراتهم الى النظر الى المسيرة التاريخية للأمة كلاً شاملاً متكاملاً دائب الحركة وثيق الترابط، ترتبط فيه أسباب الأحداث بنتائجها إذ تتفاعل العوامل السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية كلها فتعمل على صنع الأحداث ودفعها بالمسار الذي جرت فيه.

وقد عرف مؤلفنا الدكتور شعبان بالبروز في اصطناع هذا النهج وفي الوصول به الى قمة النضج والعطاء وقد رأينا مصداق ذلك في بحثه الواسع الممتع عن الثورة العباسية وأسبابها وسيرى القارئ مصداقه ثانية في ثنايا هذين الكتابين الذين نقدمها اليوم للقرّاء.

* * *

وموضوع هذين الكتابين هو تاريخ العرب والاسلام للفترة منذ قُبيل ظهور الدعوة الاسلامية في رحاب مكة في القرن السابع للميلادية وحتى ظهور السلاجقة الترك في بغداد عام ٤٤٨ هـ. أو ١٠٥٥ م.

وفترة القرون الخمسة هذه هي أهم فترات التاريخ السياسي للعرب والاسلام إذ كانت أزخرها بالثورات والمؤامرات والحروب وبالتكالب على الحكم والسلطان، وباختلاط الصالح العام بالصالح الخاص وبالاطماع الفردية، وأحفلها بصراع الأفكار والآراء وتطاحن المذاهب والأديان ونزاع التيارات الوطنية والشعارات القومية مع صدام الولاءات والعصبيات الشعوبية لمختلف شعوب الامبراطورية الاسلامية وأجناسها كالعرب والترك والفرس والروم وعلى امتداد رقعة واسعة تبدأ من حدود الصين شرقاً وتنتهي غرباً بسواحل المحيط الاطلسي في افريقيا وأوروبا، وتنزل جنوباً حتى مشارف

المحيط الهندي وتصعد شمالاً الى البلاد الروسية وعلى مدى زمن طويل يقارب الخمسماية عام .

فلا غرو اذا ما كانت هذه الفترة هي القاعدة والركيزة التي قام عليها بناء التاريخ الاسلامي ، والاساس في تكوين بنية المجتمعات الاسلامية وتحديد طبائعها وسماتها ، ومن ثم في رسم معالم مستقبلها وتقرير مسيرتها التاريخية وما توالى عليها من أحداث وويلات .

* * *

وقد درس المؤلف تاريخ هذه الفترة في كتابين يتناول أولها تاريخ الفترة الممتدة منذ أوائل القرن السابع للميلاد حتى سقوط حكم بني أُمية في الشام في منتصف القرن الثامن للميلاد أو في الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة وعلى وجه التحديد عام ٧٥٠م أو ١٣٢ هـ .

وقد كان ظهور الاسلام في أول هذه الفترة نقطة التحول الكبرى في تاريخ العرب وفي طرق تفكيرهم وأنماط معاشهم . واذا تركنا جانب العقيدة والايمان وهما لبّ الاسلام وجوهر دعوته الى الجوانب الاجتماعية والسياسية التي هي موضوع حديثنا في هذا المكان ، نجد ان الاسلام قد أبدل العرب بحياة البداوة والتشرذم نظام حكم مستقر ابتدأ أول الأمر في المدينة ثم انتشر منها بالتدرج الى اكثر أرجاء شبه جزيرة العرب ، ولكنه سرعان ما اتسع وامتد فجأة الى امبراطورية واسعة الرقعة شاسعة الاطراف ضمت بلدان العالم المعروف وقتذاك شعوباً وحضارات . وقد حملت هذه الفتوحات العرب على ترك باديتهم القاحلة وشظف العيش فيها ليستقرّوا حكاماً فاتحين في بلاد جديدة لم يعرفوا أهلها ولم يألفوا طبيعتها وانماط العيش وطرق الحكومة فيها ، لذلك كان من الطبيعي أن تذهلهم هذه النقلة المفاجئة بسرعتها الفائقة ومداها الشاسع ومشاكلها الشائكة وان تربكهم بعض الوقت ولكنهم استطاعوا وفي فترة وجيزة أن يكيّفوا أنفسهم للأوضاع والأجواء الجديدة وأن يقيموا لأنفسهم ولامبراطوريتهم الواسعة نظام حكم جديد هو موضوع الدراسة في الكتاب الأول .

وما تاريخ هذه الفترة التي يبحثها الكتاب الأول ، – في رأي المؤلف – إلا تاريخ

المشاكل الناجمة عن هذا التكيّف، الذي وإن لم يكن بالأمر الهين أو البسيط على العرب، الذين اعتادوا بساطة العيش وقسوته وشظفه في شبه جزيرتهم العربية إلا أنهم استطاعوا أن يكيّفوا أنفسهم لرغد العيش وترف الحضارة في البلاد التي فتحوها. لذلك فقد عنى المؤلف بتتبّع طرق سكن القبائل العربية في البلاد التي فتحوها ودراسة طبيعة علاقتهم مع سكان تلك البلدان وعلائقهم مع الحكومة المركزية مع الاهتمام الخاص بمصالح تلك القبائل ونشاطها وخصوماتها وكذلك طبيعة علائق تلك القبائل مع الحكومة المركزية مع دراسة محاولاتها لفرض سيطرتها على تلك القبائل وعلى الرقعة الكبيرة التي وصلت اليها امبراطوريتهم.

وظاهر مما تقدم أن نظام الحكم في هذه الفترة كان عربياً في روحه وجوهره، في حين كانت الامبراطورية الاسلامية تغطي زهاء نصف العالم المعروف وقتذاك وتضم بين حدودها شعوباً وأجناساً شتى يبلغ تعداد الشعب الواحد منها أضعاف أضعاف عدد العرب الفاتحين، الذين استقرّ بعضهم في تلك البلاد واتخذوها وطناً لهم. وكان لا بدّ أن يتبع استقرار العرب فيها اندماجهم مع أهلها، كما كان من الطبيعي أن يؤدي كل هذا الى انتشار الاسلام بين أبناء البلاد المفتوحة فدخله القليل منهم أول الأمر ثم تكاثر عددهم أفواجاً وأفواجاً، وما ان دخل هؤلاء الاسلام حتى بدأوا الدعوة لخلق مجتمع اسلامي صحيح موحّد يتساوى أفراده، عرباً أم غير عرب، بالحقوق والواجبات، وهذه الدعوة وإن تكن من صميم الدعوة الاسلامية ولكنها تمسّ في الصميم شعور الشعب العربي الفاتح وامتيازاته.

وقد كان لتفاعل هذه الظروف وتطور الاحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وتشابك العصبيات والمصالح والولاءات واضطراب سياسة بني أمية واختلافها أثره في خلق أفكار جديدة عند الجماعة المسلمة وجدت لها وفي خراسان بالذات أرضاً خصبة للنمو والازدهار آتت ثمارها في الأخير ثورة اسلامية أطاحت بحكم بني أمية وجاءت بحكم بني العباس.

وتجدر المبادرة الى القول ان ظهور الثورة في خراسان وصدورها عنها لا يعني انها كانت ثورة فارسية كما ذهب الى ذلك بعض المستشرقين وتابعهم على رأيهم بعض المؤرخين العرب دون ما تحقيق، فالواقع أن الثورة كانت عربية الوجه واللسان، فقد كان

زعماؤها عرباً هاشميين ، من أبناء أبي طالب أو أبناء العباس ، وكان مركز الدعوة في بلد عربي هو أرض الشام وكان دعاتها ، أو أكثرهم ، عرباً انتقلوا من بلاد العرب الى أرض خراسان والى بلدة مرو بالذات . وكذلك كان جيشها في غالب قواده وأفراده .

وإنما اختيرت خراسان مكاناً لنشر الدعوة فيها لأن العرب المستقرّين هناك كانوا اكثر تقبلاً لها وترحيباً بها من غيرهم من العرب المستقرين في البلاد المفتوحة الاخرى ، اذ كانت لديهم ، أي لدى عرب خراسان ، أوضاعهم ومشاكلهم الخاصة بهم والناجمة عن فقدانهم امتيازاتهم التي كسبوها بحق الفتح ، وعن استمرار الحكام الفرس في ادارة البلاد ومن أمور غيرها تدفع بهم الى السخط والتذمر والى محاولة تغيير الأوضاع بعد أن يئسوا من إصلاحها .

ولسنا نريد الاسهاب في الكلام عن هذه الثورة وأحوالها ، اذ أوفاها مؤلفنا الدكتور شعبان حقّها من البحث والـدرس وفصل القول في أمرها وأحاط بجوانبها المختلفة وأسبابها البعيدة والقريبة ، وموقف العرب والفرس منها منذ أول ظهورها بذرة صغيرة حتى هبّت أعصاراً اكتسح حكم بني أمية وذلك في كتابه الثورة العباسية الذي ستتكرر الاشارة اليه والذي قدمنا ، كما سبق ان قلنا ترجمته للقرّاء قبل بضع سنوات والذي يعتبر وكتابانا هذان عملاً متكاملاً واحداً لا يمكن الفصل بينهم .

* * *

وقد جاء الكتاب الثالث في سلسلة كتب المؤلف والثاني في مجموعتنا هذه تكملة للكتاب الأول وامتداداً له ، وهو يتناول فترة القرون الثلاثة الأولى الممتدة منذ قيام الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ — ٧٥٠م حتى بداية العهد السلجوقي في بغداد عام ٤٤٨ هـ — ١٠٥٥ م .

وقد شهدت هذه الفترة نجاح الثورة وقيام حكم بني العباس ، وظهور نظام حكم اسلامي جديـد يتساوى في ظله العرب وغيرهم من مسلمي الشعوب والبلدان المفتوحة بالحقوق والواجبات مما مهّد السبيل لغير العرب هؤلاء للوصول الى مراكز الحكم والسلطان في هذا النظام فإلى غلبة العنصر الأجنبي وانحسار الوجه العربي وبالتدريج عنها .

وعدا عن هذا التطور السياسي ، فقد شهدت الامبراطورية الاسلامية الواسعة تطورات كثيرة في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والفكرية منها والاقتصادية والعسكرية ، وكان لا بدّ لبني العباس ونظام حكمهم الاسلامي الجديد من نظام سياسي دستوري تسنده مؤسسات دستورية واقتصادية جيدة متنامية تستطيع أن تزاحم وتواكب التطورات الجديدة في المجتمع الاسلامي ويستطيع به بنو العباس حكم امبراطوريتهم الواسعة الرقعة المتعددة الشعوب والأجناس ويحققوا لها الوحدة والتماسك والنظام.

لكن العباسيين فشلوا في إقامة هذه المؤسسات فأدى بهم انعدام وجودها الى استعانتهم بالجيش والقوى العسكرية في الشؤون الداخلية لتقيم لهم نظامهم وتقوّم لهم ما اختل من شؤونه ، فخرج الجيش بهذا من واجبه الأصلي وهو الدفاع ضد الاعداء الخارجيين الى أداة لضبط الأمن والقضاء على الثورات وأعمال الشغب المتكاثرة دوماً في كل انحاء الامبراطورية ، الأمر الذي هيأ للقواد العسكريين مجال التدخل في شؤون الحكم والادارة والى وصولهم الى مكان الصدارة والأُمرة في الحياة السياسية في الأقاليم مما أتاح لبعض هؤلاء القادة العسكريين إقامة نظم حكم ذاتية بهم في بعض الاقاليم بعيدة بل والى حدّ كبير، مستقلة عن فوضى الحكم العباسي المركزي.

والخلاصة ان هذه الفترة قد شهدت – كما يقول المؤلف – نشوء نظام جديد كما شهدت بعد ذلك عجز هذا النظام عن مواكبة وتحقيق المثل العليا التي دعا اليها وجاء من أجلها ، وشهدت من ثم وبالتدريج تفتت الامبراطورية الاسلامية الواسعة الى كيانات سياسية أصغر حجماً وأقلّ شأناً.

وكما كان نظام الحكم العربي للامبراطورية الاسلامية موضوع الكتاب الأول فما موضوع الكتاب الثاني إلا قصة الحكم الاسلامي للامبراطورية الاسلامية في نجاحه وفشله ولفترة ثلاثة قرون وعلى امتداد الامبراطورية الاسلامية.

* * *

وعلى الرغم من كثرة ما كتب المحدثون عن تاريخ هذه الفترة فان كتابينا هذين يقفان قمة متميزة الى جانب القلة القليلة من قمم البحث الأصيل لاعلام المؤرخين الاسلاميين في هذا العصر.

وكما كان الأمر مع كتاب المؤلف عن الثورة العباسية فان تفرّد هذين الكتابين بالامتياز والبروز لا يعود الى جدّتهما وأصالتهما ، وهما صفتان بارزتان فيهما فحسب ، بل والى أسباب أخرى منها توفيق المؤلف في عرض الأحداث والوقائع وتحليلها وردّ نتائجها الى أسبابها ومنها أيضاً قدرة المؤلف على الربط بينها – وكما هو شأنها في واقع الحياة – برباط محكم من المنطق والتتابع والتكامل يشمل كل مظاهر الحياة وفي كل مستوياتها وعلى واسع نطاقها ، يعينه على ذلك فكر محقق جوّال واحساس تاريخي مرهف ومعين لا ينضب من العلم بالتاريخ وفقهه ، كما تعينه على ذلك قدرة بارعة في حسن استخدام النصوص واستنطاقها ما يريد ، مع طاقة وافرة من الصبر على البحث وجمع الأخبار من مظانها المتفرقة ثم غربلتها للنفوذ من بعد ذلك الى الخبر الصحيح والرواية الموثوقة ووضعها في موضعها المناسب بين بقية الاخبار لينتهي من كل ذلك الى رؤية جديدة في تفسير التاريخ العربي يخرج بها عن نهج غيره من الباحثين الذين دأبوا على تفسير التاريخ العربي على أسس متخيلة من الخصومات القبلية والمنافسات الشخصية . وهو – كما يرى مؤلفنا بحق – تفسير يقتصر على ظواهر الأخبار ولا يتعداها الى جوهرها وأعماقها وفيه تقليل معيب لقدرة العرب على مواجهة الظروف السياسية المستجدة دوماً في امبراطوريتهم الواسعة وتحمل مسؤوليات الحكم والادارة فيها كما وان فيه اغفالاً واضحاً لحقائق التاريخ التي زخرت بها مصادره الأصيلة والتي لو أحسن استخدامها وتفسيرها لأثبتت أن القادة والساسة العرب ، شأنهم في هذا شأن غيرهم من قادة الشعوب في كل زمان ومكان ، كانت لهم عيوبهم وأخطاؤهم المتأتية من طبيعتهم أو تربيتهم أو ضغط الظروف عليهم ، ولكنهم ورغم ذلك كانوا رجال حكم وسياسة يحسون بتبعاتهم تجاه رعيتهم ويعملون جهدهم لإنجاح خططهم الرامية الى رفاهية رعيتهم وخيرها .

وعلى هذا الأساس ومن هذا المنطلق دأب مؤلفنا على تفسير تصرفاتهم الشخصية وسلوكهم السياسي لا على انها – كما يذهب الباحثون الآخرون – محض نزوات آنية وأهواء شخصية مصدرها الاطماع والأحقاد وهدفها المكاسب الشخصية والأمجاد . واذ يقدّم المؤلف لقارئه كل هذا الزاد الفكري التاريخي فانه ، وهذه ميزة أخرى للكتاب يدفع بقارئه الى التفكير تفكيراً عميقاً فيما يعرض له من وقائع وأحداث وما ينتهي اليه تحليل المؤلف لها من نتائج وأحكام ، وليس من الضروري بل وليس من المرغوب فيه ، أن

ينتهي هذا التفكير بالقارئ الى موافقة المؤلف دوماً في آرائه وأحكامه بل ربما كان الأفضل والأجدى أن يخالفه الحكم ويناقشه الرأي ويقارعه الحجة بالحجة فينتهي الأمر الى مزيد من الدرس والبحث فإلى احياء الفكر التاريخي بالجديد من الآراء واغنائه بالمزيد من البحوث، وهذا ما قصده المؤلف حين قال في آخر مقدمته للكتاب الأول «وأملي أن يكون بحثي هذا تحدياً للطلاب والدارسين على حد سواء وحافزاً لهم الى مزيد من الدرس والانتاج».

وبعد، فان من دواعي الزهو لنا أن ننقل لقرّاء العربية هذا الزاد الثمين من الفكر التاريخي والذي اختص به مؤلفه أصلاً قرّاء الانكليزية فقط، وترجم بعدها للغة الاسبانية.

ونرجو أن نكون قد وفقنا في هذه الترجمة الى نيل رضى القرّاء الكرام والى إضافة بحث جديد أصيل الى مكتبة التاريخ العربي.

وختاماً نشكر للأخ الصديق الدكتور شعبان سماحه لنا بترجمة هذين الكتابين ونشرهما كما ونشكره جمّ الشكر على تفضله بمراجعة النص العربي وإعمال قلمه فيه تصحيحاً وتنقيحاً وبخاصة في الفصول الأولى من الكتاب الأول.

كما نشكر كل من أسهم أو ساعد في هذه الترجمة وفي طباعتها ونشرها ونشكر وبخاصة المطبعة البولسية التي عوّدنا القائمون على أمرها على حسن الأدب ورقّة المعاملة واتقان الطبع.

وفّق الله الجميع وجزى كل ذي عمل على حسن صنيعه والله من وراء القصد وهو نِعم المولى ونِعم النصير.

عبدالمجيد حسيب القيسي

أبو ظبي، في ١٥/٣/١٩٨٢م.

تمهيد

يقدّم هذا الكتاب تفسيراً جديداً لتاريخ فجر الاسلام مبنياً على تقييم مفصّل واسع وجديد لمصادر البحث المتيسّرة ؛ وبطبيعة الحال فان هذا لا يعني اقتصارنا في هذا التقييم على ما صدر حديثاً من مصادر البحث فحسب ، ولكنه أيضاً وربما الى حد بعيد ، يعيد فحص وتفسير المصادر التاريخية المتداولة بيننا منذ أجيال.

ولأن هذه المصادر قد أثبتت جدواها في دراستنا لتاريخ الثورة العباسية فقد عمدنا أساساً في هذا الكتاب الى اتباع نفس النهج وتطبيقه على تاريخ العرب في بلدانهم كافة بدل اقتصاره على مقاطعة خراسان وحدها.

وزيادة على ذلك فقد أخضعنا هذه الدراسة الى نسق من البحث المنهجي المنتظم حاولنا خلاله أن نتتبع ، من أقرب حدّ ممكن ، نشوء نظام الحكم الاسلامي في شبه جزيرة العرب أولاً ثم توسعه المفاجئ الى امبراطورية واسعة الرقعة شاسعة الأطراف.

وعلى هذا الأساس عنينا بشكل خاص بتتبّع ودراسة طرق سكنى القبائل العربية في البلدان المختلفة التي فتحها العرب ، وطبيعة علائقهم مع سكان تلك البلدان مع الاهتمام الخاص بدراسة المصالح المختلفة لتلك القبائل ونشاطها وخصوماتها ، ثم علائقها مع الحكومة المركزية ومحاولات تلك الحكومة نشر نفوذها وتوطيد سيطرتها على تلك الرقعة الكبيرة من البلدان المفتوحة. ولقد حاولنا في هذا كله أن نجنّب القارئ — جهد الامكان — التفاصيل الدقيقة ، والكثيرة جداً لكل حالة على حدة والاكتفاء بدل ذلك بتقديم تحليل مركّز عن تطوّر الاحوال الدائم في انحاء الامبراطورية كافة.

وقد دأب دارسو أحداث هذه الفترة على تفسيرها على أُسس متخيلة من التنافس القبلي والخصومات الشخصية تتنافى مع المنطق والعقل ولا وجود لها في واقع الحال. والعيب في مثل هذه التفسيرات إغفالها كل الإغفال المصالح المنطقية للعرب والتقليل بشكل بارز من قدراتهم البشرية للتكيّف للظروف الجديدة.

ومع اعترافنا بصعوبة هذا التكيّف وانه لم يكن بالنسبة للعرب بالأمر الهيّن والسريع ، وانما كان تطوراً بطيئاً صعباً ، إلا أنه يجب الاقرار أيضاً بأن العرب الذين اعتادوا غضاضة البداوة وشظف العيش وخشونته في صحراء شبه جزيرتهم العربية قد استطاعوا أن يكيّفوا أنفسهم ليألفوا رغد العيش وترف الحضارة في البلاد المفتوحة الجديدة.

وما تاريخ هذه الفترة المدروسة في هذا الكتاب في الحقيقة إلا دراسة لتاريخ المشاكل الناجمة عن هذا التكيّف بكل ما يعنيه من ابعاد.

ورغم ماكان للقادة والساسة العرب من عيوب وهنات ، فقدكانوا الى جانب ذلك رجال حكم وسياسة يحسّون بتبعاتهم تجاه رعيتهم ويعملون من أجلها ويهمهم أولاً وقبل كل شيء نجاح خططهم الرامية لرفاه رعيتهم وخيرها . وعلى هذا الأساس يجب أن نفهم تصرفاتهم الفردية وسلوكهم السياسي لا على انها محض نزوات شخصية آنية مصدرها الأوهام والأحقاد وهدفها المكاسب الشخصية والأمجاد.

ولا شك ان المصادر العربية الاصيلة تتضمن قدراًكبيراً من مواد البحث الأولية التي تصلح – لو أحسن استخدامها – لاكثر من مجرد عرض تاريخي لأحداث تلك الفترة. ولهذا فقد كانت مهمتنا أن نجد ونحلّل ونفهم هذه النصوص على ضوء الطبيعة العامة لكل مصدر ، وعلاقة ذلك النص بما أوردته المصادر الأخرى من نصوص مشابهة.

وفي مثل هذا الأمر يجب الاعتناء التام بفهم المعنى المقصود بالضبط وتحديد الاستعمال الخاص لكل اصطلاح هام استعمله مؤلفو تلك المصادر أو الرواة الذين نقل المؤلفون عنهم.

ومثل هذا التحديد يساعد في حالات كثيرة على توضيح وفهم مصالح بعض الاشخاص أو الجماعات ونشاطهم . وهذا الفهم هو الاساس المهم للاستعمال الصحيح لمصادر البحث وبدونه قد يُساق الباحث الى متاهات في البحث وضلال في الاستنتاج.

وقد تعمّدنا الإقلال قدر الإمكان من الهوامش والاكتفاء بذكر المصادر الرئيسة فقط في تأييد بعض نقاط البحث ولم نحاول أن نناقش آراء غيرنا من الباحثين الذين أرخوا لنفس هذه الفترة لأن مثل هذه المناقشات لن تؤدي إلا الى إرباك البحث والى الخطأ في النتائج.

وأملي أن يكون بحثي هذا تحدياً للطلاب والدارسين على حد سواء يحفزهم الى مزيد من الدرس والانتاج. كما أرجو ألا يمضِ وقت طويل قبل ظهور كتابي التالي الذي يتناول تاريخ العصر العباسي حتى ظهور السلاجقة الأتراك في بغداد.

محمد عبد الحي شعبان

كامبردج ١٩٧١



الفصل الأول

ظهور الدعوة الإسلاميّة وانتشارها

الكتابة الموضوعية المجرّدة عن ظهور الاسلام أمر صعب وكذلك في واقع الحال أمر الكتابة عن أي من الأديان الأخرى ، فاذا تركنا المشاعر والمعتقدات الشخصية جانباً ، فإن المؤرخ يصطدم عادة بقدر كبير من الغموض عن أصل الديانة المعنية وتاريخها الأول ، فاذا تيسّرت له بعض المعلومات عن تاريخ تلك الديانة في أيامها الأولى وعن تطورها بعد ذلك ، فان هذه المعلومات تصطبغ في اكثر الاحيان بالمبالغات والخيال بحيث يصعب معها تمييز الحقائق عن الأساطير.

ولكن الدين الاسلامي أسعد حظاً من المسيحية من حيث توفر المعلومات الوافرة والدقيقة عن حياة مؤسس ذلك الدين ورسوله النبي محمد ﷺ ومع هذا فان معلوماتنا عن الأحوال السائدة في بلاد العرب قبل الاسلام من الندرة والتشتت بحيث لا تتيح لنا أن نستوعب بشكل جامع شامل تاريخ تلك الفترة.

وقد كُتب الكثير عن سيرة النبي محمد ﷺ وعن رسالته ودرست تفاصيل حياته وحللت أخبارها بكثير من الدقة والتفصيل بحيث أصبحنا الآن على ثقة تامة من الأحداث الأساسية في حياته عليه الصلاة والسلام. لكن العلم بهذه الأحداث وحده لا يفسّر طبيعتها ولا يساعدنا على فهم بواعثها. ومن الطبيعي بعد ذلك أن يختلف المؤرخون في تفسير هذه الاحداث وبواعثها تبعاً لفهم المؤرخ لها وحسب ميوله وقناعاته.

وبسبب قلّة المعلومات المتيسّرة عن أحوال بقية بلاد العرب ، فقد مالت هذه التفسيرات في غالب الأحيان الى الحدس والتخمين بدل أن تكون تحليلات قاطعة مبنيّة على وثائق معتمدة ، ومن هذا القبيل ما أورده المستر ئي . اي . بيلييف الذي اعتمد على تفسير فردريك انكلز وليس على مصادرنا حين قال : «وهكذا فقد ظهر الاسلام في بلاد

العرب عقيدة جديدة تعكس تغييرات كبيرة في المجتمع العربي هي بالذات عدم التساوي في الملكية ثم الرق وتطور المبادلات التجارية. وكان السبب في انتشار هذه العقيدة الجديدة هو وجود نظام يعيش على الرق ضمن مجتمع بدائي متفسخ»[١].

ولا شك ان الاسلام كان عقيدة جديدة في بلاد العرب وانه – ودون شك أيضاً – أدى الى تغيير كبير في ملامح المجتمع العربي والى هذا الحد وكلام الكاتب الروسي صحيح، أما بقية الكلام الذي أورده فمجرد لغو لا أساس ولا سند له في مصادرنا الاصيلة.

وفي مقابل هذا، ذهب المستر دبليو مونتغوري واط الى أن «الوضع الاساسي الذي انبثق منه الاسلام هو التناقض والصراع بين الأوضاع المكية البدوية وبين الظروف المادية (والاقتصادية) التي وجد العرب أنفسهم فيها» ثم يمضي المستر واط الى القول بأن انهيار القيم القديمة وفشل الجماعة بالاتيان بقيم جديدة بديلة أديا الى انهيار الحياة الدينية لدى أهل مكة الذين لم تعد قيم الصحراء التقليدية بذات موضوع لديهم»..[٢].

وفي هذا الكلام الكثير من الصحة والصواب، لولا أن المستر واط قد قصّر – مع الأسف – بحثه أساساً على دراسة الأحوال الاجتماعية في مكة والمدينة وتحليلها، ولم يبحث بما فيه الكفاية في أحوال بقية البلدان والمدن في شبه الجزيرة العربية رغم ضرورة مثل هذا البحث اذا ما أريد لنا أن نفهم الظروف السائدة في مكة عند ظهور النبي محمد ونشاطه ﷺ فيها أولاً وفي المدينة من بعدها.

ويقتضينا الحق أن نعترف بالصعوبة البالغة لمثل هذه المهمة بسبب ندرة الابحاث في هذا الميدان، الأمر الذي تقع جريرته على عاتق الباحثين القدامى الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقّة الالتفات الى مثل هذه الدراسات. ولحسن الحظ فان الباحثين المعاصرين قد تصدّوا الى أمثال هذه الدراسات فأمدّونا بما كنا بأمسّ الحاجة اليه من بحوث، وكان على رأسها دراسات المستر إيم. جي. كيستر[٣] التي كشفت لنا عن صورة واضحة

---

(١) ئي. أي بيليف: العرب والاسلام والخلافة العربية، لندن ١٩٦٩، ص ١١٥.

(٢) دبليو مونتغومري واط: محمد النبي والسياسي، لندن ١٩٦١، ص ٤٨–٥١.

(٣) الاشارة هنا وفيما بعد الى مقالة كيستر المؤيدة بالوثائق، ومع بعض التعديل البسيط فإن أساس تفسيرنا هذا يعتمد على تفسيره للأحداث التي لم تفسّر من قبل وعلى قائمة مصادره الواسعة.

لعلاقات تجارية معقّدة واسعة ومتنامية كانت تربط سكان مكة ببقية سكان شبه الجزيرة العربية بدواً وحضراً على حد سواء. وقد كان محور هذه العلائق تجارة عالمية على نطاق واسع كان للامبراطوريتين الكبريين آنذاك، الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الساسانية، اكبر الدور فيها ولم يكن هذا الدور بالأمر المستغرب طالما كان لمصالح هاتين الدولتين أبعد الأثر في تكييف الحياة السياسية في شبه جزيرة العرب.

وقد كان الساسانيون اكثر من البيزنطيين ميلاً الى التدخل واستعمال القوة للحفاظ على مصالحهم ومراكز نفوذهم. ولكنهم لم يوفقوا في خطتهم هذه، فمع انهم احتلوا اليمن في المدة بين عامَي ٥٧٠ — ٥٧٥م وسيطروا على ساحل الخليج العربي، فان العرب الآخرين رفضوا سيطرتهم ولم يقبلوا بالتبعية لهم. وقد حاول الساسانيون استغلال تابعيهم من ملوك الحيرة في الجنوب العربي من امبراطوريتهم لإخضاع القبائل العربية في بلاد نجد، قلب الجزيرة العربية، بالقوة، الا أن سياستهم هذه لم تنجح إلا في إظهار مدى وهن حكومة الحيرة وضعفها ومن ثم في التعجيل بسقوطها. ولم يكن من المصادفة المحضة أن يتوافق سقوط الحيرة مع بروز مكة الى مقام الصدارة والقوة والسلطان.

ولربما كان البيزنطيون اكثر واقعية من الساسانيين ومن ثم اكثر نجاحاً في سياستهم مع العرب، ففي حين امتنعوا عن زج أنفسهم في أية مغامرة عسكرية في بلاد العرب فانهم لم يتأخروا أبداً عن تشجيع بني دينهم الأحباش على فتح اليمن واحتلالها عام ٥٢٥م، ومن ثم على محاولة الزحف منها نحو مكة نفسها بغية السيطرة على طريق التجارة بين سوريا واليمن.

فلما فشلت هذه الحملة اكتفى البيزنطيون بالمناورات السياسية التي كانوا يهدفون من ورائها الى مد دائرة نفوذهم نحو الجنوب، ان لم يكن الى إقامة حكومة عربية في مكة تابعة لهم على غرار حكومة الغساسنة في جنوب سوريا. فلما لم يُكتب لهذه الخطة النجاح صار قصارى همهّم أن يحتفظوا بعلائق طيبة مع أهل مكة تضمن لهم تدفّق التجارة وانتقالها بين الطرفين.

ومن الصعب إغفال النظر الى مكة بالمنظار التجاري فالتجارة عصب حياتها وسبب وجودها إذ لم تكن مكة في أول أمرها إلا سوقاً تجارياً محلياً يحيط بحرم ديني مقدس. وقد انتقلت حرمة هذا المعبد الى ما يجاوره ويحيط به من القبائل فأصبح لهذا المركز التجاري

– أي مكة – حرمة وذمار تضمن لزائريها الحرية والسلامة في السفر والإقامة على أن ينبذوا خصوماتهم وخلافهم ما أقاموا فيها.

واذا كان جوار الحرم المقدس ضمان الحماية والسلامة للمقيمين في جوار مكة ، فان الحرص على ضمان سلامة طرق المواصلات من مكة واليها قد أدى بأهل مكة ، بالاتفاق مع القبائل العربية الأخرى ، الى ابتداع نظام الأشهر الحرم والى إرساء مراسم الزيارات الدينية وتنظيم الاسواق. وقد أدى نجاح هذه الترتيبات الى جعل مكة بلداً آمناً والطريق اليها سالماً مأموناً مما أدى الى ازدهار تجارتها وتوسّعها ومن ثم الى تطلعها الى أسواق جديدة أخرى.

وقد اتسعت فكرة الحرم لتشمل الأسواق التي كانت تُعقد خلال الأشهر الحرام وفي مواسم الحج[٤] . وهكذا نرى ان التجارة والديانة كانتا في أيام ما قبل الاسلام أمرين متصلين وان نجاح إحداهما كان يؤدي الى نجاح الأخرى وانتشارها.

وقدكان لكل قبيلة معبودها الخاص بها إلا أن اجتماع تلك القبائل في جوار الحرم المكي جعل للحرم بالضرورة مقاماً محترماً ممتازاً بين أبناء القبائل المستفيدة من نظام التجارة المكي. وإظهاراً منها لهذا التقدير والاكبار أو طلباً للشهرة والجاه فقد دأبت القبائل المؤيدة لهذا النظام على وضع آلهتها في الكعبة أي معبد الحرم المكي الذي تضع فيه قريش آلهتها. وفي مثل هذا الحال فمن المحتم أن يكون لآلهة مكة وأربابها مكان الصدارة في بيت الآلهة هذا والمقام الأرفع بين أرباب القبائل الأخرى.

وفي النصف الأول من القرن السادس الميلادي كانت أحوال مكة في أوج النجاح والازدهار ، وكانت تجارتها المحلية تعتمد على مركزها الديني الذي كان بدوره معتمداً على نظامها التجاري.

وكان التحوّل الحقيقي في حياة مكة هو في تحول تجارتها من تجارة محلية الى تجارة دولية ، وكان الفضل في هذا الانجاز ، كما هو ثابت لدينا الآن ، الى هاشم كبير مكة وشيخ قريش والجَدّ الأعلى للنبي محمد ﷺ والذي عاش في حوالى منتصف القرن السادس

---

(٤) وهذه الفكرة أكّدها آر. بي. سيرجينت في مقاله «الحرم والحوطة في المعابد المقدسة في بلاد العرب» في كتاب «ذكرى طه حسين» القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤١–٥٨.

الميلادي . ومع هذا فيجدر بنا أيضاً أن نسجل للتجار المكيين كفاءتهم ومهارتهم في سرعة اكتشافهم الفراغ التجاري في زمانهم ناهيك بسرعة ولوجهم اليه واستغلاله لصالحهم .

وكان الصراع الطويل بين الامبراطوريتين الكبيرتين حول السيطرة على طريق التجارة وعلى أواسط بلاد العرب قد توقف وكان من حظ مكة ، المركز التجاري المتنامي والواقع على مفترق الطرق التجارية ، أن تحلّ محلها وأن تتولى أمر هذه التجارة فتحسن ادارتها وتزيد نماءها .

فقد كانت قريش تملك الخبرة والصلات ، كما كانت — على ما يبدو — تملك فائضاً من التجارة المحلية الذي تستطيع أن تدفع به الى الأسواق الخارجية وأن يكون عند الحاجة رأس المال اللازم لها . وفوق كل هذا فقد كان لدى قريش الجهاز التجاري الجاهز الذي تستطيع ، بكل سهولة ، أن توسعه ليفي بمتطلبات التجارة الدولية .

وقد عمل هاشم على خلق الظروف المواتية لهذا التوسع فقد حصل من الامبراطور البيزنطي على عهد بحرية وسلامة المرور للتجار المكيين وبضائعهم في الأراضي السورية . ولربما سرّ الامبراطور أن يمنح العهد الذي لم يكلفه في واقع الأمر شيئاً ولكنه سيعمل ولا شك على مدّ نفوذه الى بلاد العرب أو على الأقل على توثيق صِلاته بالشخصيات النافذة فيها . وحصل هاشم كذلك على عهود مماثلة من ملوك الفرس وملوك الحبشة [٥] .

وبعد أن أنهى هاشم الجانب الخارجي من مهمته التفت الى جانبها الأصعب وهو الجانب العربي . فقد كانت سلامة قوافل تجارة قريش تعتمد على مواقف القبائل العربية المختلفة الساكنة على طريق تلك القوافل والتي لم يشترك بعضها في النظام التجاري المكي . وقد اتفق هاشم مع هؤلاء على أن يضمن لهم سوقاً لمنتوجاتهم وأرباحاً لتجارتهم دون أن يتكلّفوا هم أنفسهم شيئاً ، بل تقوم قريش بنقل بضائعهم معها وضمن قوافلها وهي صاعدة الى بلاد الشام ، وتعود في إيابها وتعيد اليهم ما حققته أموالهم من أرباح ، وفي مقابل هذا تتعهّد هذه القبائل بضمان سلامة القوافل المكية أثناء مرورها في أراضيها .

ولعلّ أمثال هذه الاتفاقيات كانت هي الشكل الأول من أشكال «الإيلاف أو الآلاف» وهي عهود الأمان والتي اتسع انتشارها وقت ذاك ، وكان الشكل الثاني من

---

(٥) إيم . جي . كيستر «مكة وتميم» (مجلة التاريخ الاقتصادي السياسي للشرق) ، ١٩٦٥ ، ص ٤١—٥٨ .

أشكال الإيـلاف على هيئة رسوم نقدية تدفعها القبائل الراغبة في الإسهام في التجارة المكية ولكنها غير قادرة على ضمان سلامة مرور القوافل في أراضيها ، وكان هاشم يجمع هذه الرسوم لتعينه على تنظيم الحماية للقوافل أو الدفاع عنها(٦).

أما القبائل التي سبق لها الاشتراك في نظام التجارة المكية والمستفيدة منه ، وبالتالي المعترفة بمقام الحرم المكي وحرمة الأشهر الحرام والملتزمة تبعاً لذلك بالدفاع عنهما ، فأمرها هيّن بسيط إذ دفعها اتساع نطاق تجارتها وازدياد أرباحها الى زيادة التمسّك بأحلافها القائمة مع قريش والى العمل على تقويتها.

وقد عُرفت هذه القبائل باسم «الحمس» وهي لفظة تعني الى جانب الحماس والشجاعة الشدة في الدين والانقطاع الى خدمة الحرم(٧) ولهذا فقد أعلنت مكة نفسها «داراً للحمس» وسُمّيت الكعبة «الحمساء» وكان حلف الحمس هذا يضم الى جانب قريش ، وهم سكان مكة ، قبائل أخرى متفرقة في أماكن شتى قد لا يجمع بينها نسب أو دم ، وإنما يجمعها – ولهذا دلالته الخاصة – كونها جميعاً تسكن على طرق التجارة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية وتسيطر عليها(٨).

وكان هؤلاء يطلقون على أنفسهم أيضاً «أهل الله»(٩) مما يدل على أن الانضمام الى الحمس كان يعني الاعتراف بهذا الرب الواحد والذي كان على أكثر احتمال رب هاشم وذريته من بعده(١٠).

ولزيادة التحام هذا الحلف وتقويته فقد تنازلت قريش لبعض من القبائل المشتركة فيه عن بعض «أعمال السيادة» في مكة وكان مقدار تنازلها هذا يختلف تبعاً لقوة القبيلة ومقدار ما تؤديه من خدمات «للخير المكي العام».

وقد أثبت كيستر بما لا يقبل الشك قوة العلائق القائمة بين قريش وتميم حتى ذهب الى أن الأولى سمحت لتميم بالإسهام في ادارة الشؤون السياسية في مكة(١١) ومنحت بعض

(٦) المصدر السابق ص (١ – ٢٠).
(٧) كيستر: المصدر السابق ، ص ١١٧ – ٢٠ أنظر لسان العرب ، مادة حمس.
(٨) كيستر: المصدر السابق ، ص ١٣٩.
(٩) مما له دلالة أن اسم عبدالله تكرر بين فروع هاشم وأحفاده ولم يرد في أسماء آبائه وأجداده.
(١٠) لتفاصيل أكثر أنظر كيستر ، مكة وتميم ، ص ١٣١.
(١١) نفس المصدر ص ١٣٤.

رؤساء بني تميم حق حفظ الأمن في أسواقها بل وسمحت لهم أيضاً بأن يتولوا رئاسة الناس في إدارة بعض شعائر الحج.

وكان الرأي الآخر المقبول الذي جاء به كيستر هو أن بعضاً من تميم قد أسهم في تكوين حرس قبلي خاص لحماية مكة وأسواقها (١٢).

ومن الطبيعي لمثل هذه المشاركة في السلطة والمسؤولية ان يتبعها مشاركة في الأرباح والعائدات الناجمة عن هذا النظام.

ومن المنطقي أن نفترض أن قريشاً كانت تطالب القبائل المشاركة معها في تجارتها بدفع نصيبها من النفقات المقتضاة لصيانة هذا النظام وضمان استمراره، وهذه المشاركة المتبادلة كانت الأساس في ازدهار تجارة مكة وزيادة ثرائها واتساع نفوذها الذي شاركت حلفاءها به.

وفي مكة نفسها أقدمَ هاشم نفسه على عمل ثوري جديد هو إشراكه الفقراء من أهل مكة في أرباح التجارة مقابل ما يؤدونه لها من خدمات أو ربما مقابل مبالغ صغيرة من المال تستثمر لصالح الأقارب الفقراء (١٢) وبهذا أصبحت التجارة شراكة عامة وتعاوناً جماعياً.

وقد نجح هذا النظام التعاوني الذي كانت تسنده شبكة محكمة الاتقان من الاتفاقات والمحالفات في زيادة الثراء وتعميم الرفاه. وكان نجاحه ساحقاً الى درجة أطمع فيه القائمين عليه، فلم يستطع أن يصمد طويلاً أمام ضغط هؤلاء الطامعين في نصيب اكبر من هذه التجارة المتنامية فلما ظهر محمد ﷺ على مسرح الأحداث كان الاتجاه في مكة يميل الى تركيز الثروة بيد أفراد قلائل وحرمان الفقراء منها. وما كان اقتراح تشكيل حلف صغير يقتصر على قريش وحدها إلا محاولة منها لاحتكار التجارة في أيديها فقط (١٣).

وفي خارج مكة كانت القبائل المشاركة في التجارة المكية تتكالب من أجل زيادة مغانمها أو الاقلال من واجباتها نحو قريش. ويمكن إرجاع أسباب الكثير من الحروب القبلية كحرب الفجّار مثلاً الى محاولة بعض القبائل الساكنة على طريق التجارة زيادة

---

(١٢) نفس المصدر ص ١٢٣.

(١٣) مونتغمري واط: محمد في مكة. اكسفورد ١٩٥٣، ص ١٥.

سيطرتها وبالتالي مغانمها، على أراضي تعود الى قبائل أخرى[14].

وزيادة على هذا فان اتساع التجارة ونجاحها أدّيا الى ظهور «مدن أسواق» جديدة ازداد ثراء سكانها ونفوذهم على حساب نفوذ القبائل الرحّالة المجاورة لها، وأدّى هذا بالتالي الى خلق حال من التوتر الشديد بين القبائل الرحّالة والقبائل المستقرة حتى وإن كانا من أصل قبلي واحد[٥] الأمر الذي كان يهدد ولا شك شبكة التجارة بخطر اكيد.

ولهذا فلا بدّ أن قريشاً بحصافتها وبعد نظرها قد أدركت الأخطار الكامنة في مثل هذا الوضع المتفجر وحاولت أن تتجنّبها، ولكن ما مِن أحد تقدّم بحل أو اقتراح لإعادة التوازن والقوة الى الحلف أو للتحذير من مغبّة الكوارث المرتقبة والمحتمة التي ستلحق مكة وتجارتها. وما مِن أحد حاول ذلك أو استطاعه إلا محمد نفسه عليه الصلاة والسلام.

وكان محمد ﷺ مشاركاً نشطاً في هذه التجارة ولم يكن ليغيب عن ذكائه بأن ازدهار هذه التجارة ليست مصدر الحياة لقريش فحسب، بل ولعدد كبير من القبائل الأخرى المشاركة فيها أيضاً. ولهذا لم يكن في مقدوره أن يدعو قريشاً الى نبذ تجارتها وتخريبها، بل كان عليه أن يجد الوسائل الفعّالة للمحافظة عليها وتشجيعها ولا بدّ انه، وهو عضو في حلف الحمس، قد أدرك ضعفه البارز وانهياره المرتقب فاقترح أُسساً عادلة للمحافظة عليه وانعاشه[16].

فقد كان لمكة حرمها الديني الخاص بها وكان له امتيازه ومقامه وكان حرمها هذا وثيق الصلة بنشاطها التجاري ولذا فإن أية محاولة لإصلاح هذا النظام القائم أو الثورة عليه تعتبر موجّهة الى كل من الدين والتجارة في آن واحد.

وكان لا بدّ لمحمد، وهو الرسول المصلح من أن يضطلع بهاتين المهمتين معاً، وهذا ما كان فعلاً، فقد بشّر برسالة السماء ودعا رهطه وبني قومه الى عبادة الله، وكان صدق محمد في رسالته وإيمانه التام بها من الوضوح واليقين بحيث لا تحتاجان الى مزيد من البحث والكلام.

---

(١٤) نفس المصدر. وكذلك كيستر «الحيرة» مجلة أرابيكا» المجلد ١٥ /١٩٦٨، ص ١٥٤.

(١٥) اتجاه القبائل المستقرة للسيطرة على من جاورها من القبائل الرحل لم يظهر بوضوح في مكة والمدينة والطائف فقط بل وأيضاً في دومه الجندل والهجر وكانت هدفاً أساسياً لمسيلمه في بني حنيفه.

(١٦) كيستر: مكة وتميم، ص ١٣٩ والهوامش ٩ و ١٠.

وعلى كل حال ، فليس هذا مكان الكلام عن الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ فقد أسهبَ في ذلك الكاتبون واطنبوا وكشفوا عما فيه من إلهام وإعجاز ومن صلاح للناس في أمور دينهم ودنياهم ، وإنما الذي يهمنا ذكره في هذا المكان ، ومن الناحية التاريخية الصرفة ، توضيح ثورته ، صلى الله عليه وسلم ، وسياسته وفهمها على ضوء البيئة التي وجدت فيها ، وهذه البيئة ، تعني هنا ، وفي مكة بالذات ، التجارة .

وعلى هذا فان دراسة الجانب التجاري من نشاط محمد ﷺ في مكة وفي كل بلاد العرب ، أمرٌ على جانب كبير من الأهمية والخطر وإغفاله أو تجاهله يفقد الصورة العامة للثورة المحمدية وحدتها وتكاملها .

ولم يصدر عن محمد ﷺ في كل تعاليمه الدينية ما يشجع تابعيه وصحابته على ترك أمورهم الدنيوية . وانما كان يدعو دوماً الى الاعتدال مذكراً لهم بأن يعملوا في هذه الدنيا ما يساعدهم على النجاء في الآخرة . ولسنا في حاجة للبرهنة على أن الاسلام قد شجع التجارة ودعى اليها ونظر اليها على أنها مهنة راقية فهذه أمور من الوضوح بحيث لا تحتاج الى مزيد من البيان ، ولكن ما يهمنا بيانه في هذا المكان هو خطط محمد لاستمرار التجارة وازدهارها في عهده صلى الله عليه وسلم .

وقد قرر محمد أول الأمر أن يقوم بالثورة على النظام من داخل النظام نفسه ، فألحَّ يدعو قريشاً عشيرته الأقربين الى إصلاح حالها ونبذ التكالب على المال وغمط حقوق الفقراء والمستضعفين فكل هذه شرور لا يمكن النجاة منها إلا بالعطف على المعوزين واليتامى ومساعدتهم . وقد كانت الدعوة الى التعاون بين الفقراء والأغنياء من الأسس الهامة في دعوة محمد ، وكان ﷺ يرى أنه اذا استطاع أن يخلق وأن يقيم هذا التعاون بين القريشيين من أهل مكة أنفسهم ابتداء ، أمكنه بعد ذلك أن يبسطه على القبائل الأخرى المتحالفة مع قريش .

لكن أغنياء قريش لم يتقبّلوا دعوته بالتنازل عن بعض ما يملكون قبولاً حسناً ، وبالرغم من وجود بعض الأغنياء مثل عثمان بن عفان بين أصحاب محمد الأوائل فان الغالبية من قريش رفضت أن تلقي اليه بسمعها ، ولهذا فيبدو وكأنّ الفشل قد كُتب لمحاولة الثورة من الداخل . ولكن محمداً ﷺ على الرغم من هذا ورغم ما لاقاه من قومه من عنت وأذى فقد ظل ثلاثة عشر عاماً يلح على نشر دعوته بين قومه .

وقد طرح الموضوع الاقتصادي نفسه بين أنصار محمد ﷺ وبقية قريش مما دفع بخصومه الأغنياء الى فرض حصار اقتصادي حوله وحول أصحابه ، وقد حاول محمد كسر هذا الطوق فبعث ببعض أتباعه الى الحبشة في محاولة لإقامة علاقات تجارية مستقلة معها إلا أن قريشاً أسرعت خلفهم وأحبطت محاولتهم.

وعلى هذا اضطر محمد الى النظر الى عون من خارج مكة يشدّ به أزره ويتحدّى به أهل مكة وقد بدأ محاولاته بثقيف في الطائف ، وكانوا شركاء في التجارة المكية ولعله أدرك أن تعاليمه تجد قبولاً اكثر في المجتمعات المستقرة ، ذلك لأنه لا يستطيع أن يتصور أن الثقفيين على استعداد صادق للوقوف أمام قريش من أجله.

ومهما يكن من أمر ، فقد انتهت رحلته الى ثقيف نهاية يائسة اذ طارده بعض سفهائها وحصبوه بالحجارة فعاد الى مكة دون نتيجة.

وقد حاول أن يجد النصرة عند القبائل التي تؤم مكة للتجارة أيام الحج ، ولكنه لم يجد عندها بغيته ، فما من أحد منها كان يظن في نفسه القدرة على أن يتحدى قوة قريش وحلفائها.

وكان مرّ الأيام يزيد مقام محمد في مكة (١٧) سوءً وحرجاً ويعرّض أصحابه للمزيد من الاضطهاد والأذى ويهدّد سلامته بل وحياته بخطر أكيد. ولم يعد لديه بعد هذا من خيار غير الهجرة من مكة إلى مكان أكثر أمناً وسلاماً. وقد جاءته النصرة وعلى غير توقّع ، من أهل المدينة.

ومما يجب أن يلاحظ أن أهل المدينة لم يكونوا شركاء نشطين في تجارة مكة وحلفائها. وأكثر من هذا فقد كان للمدينة مشاكلها الخاصة بها ، فلم يكن سكانها من أصل واحد ولهذا فلم يعرفوا الإلفة والوئام فيما بينهم وكان التوتر قائماً دوماً بين سكانها وخاصة بين اليهود وغير اليهود منهم في حين كان غير اليهود ، وأكثرهم من الأوس والخزرج في تنافس دائم من أجل السيطرة على المدينة ومواردها التي كان أغلبها بيد اليهود.

ونظراً للصلات الوثيقة بين يهود أهل المدينة وغيرهم من الجاليات اليهودية المنتشرة

(١٧) مونتغمري واط : محمد في مكة ، ص ١١٤–١١٥.

في أنحاء بلاد العرب ، فليس من المستبعد تصور قيام شبكة تجارة يهودية بينهم آنذاك [١٨] . وهذا ما يفسّر عدم وجود عمليات تجارية واسعة النطاق بين مكة والمدينة.

وبطبيعة الحال فقد كان أهل المدينة على علم بالأحوال السائدة في مكة وظهور محمد فيها وما تعنيه وتهدف له دعوته من هدم النظام المكي ، وما يلقاه وصحبه – بسبب ذلك – من أهلها من المعارضة والأذى. ومع هذا فلم يتردد أهل المدينة عن اتخاذ أشد المواقف عداء لمكة وهو حماية هذا القرشي الثائر على بني قومه من بطش قريش به لا بدعوته الى بلدهم المدينة وايوائه فيها فحسب ، بل ، وهذا مما زاد في تعقيد الأمور ، إنزاله ، في اكرم منزل وأرفع مكان ومنحه سلطة الحكومة والفصل بينهم.

ولم يكن الذين أسلموا من أهل المدينة حتى ذلك الوقت إلا نفر محدود العدد ولكن هذا النفر القليل استطاع إقناع بقية بني قومهم بالإقدام على قبول محمد بين ظهرانيهم رغم ما يثيره عليهم هذا العمل من غضب قريش وعدائها. ولم يكن هذا بالأمر الهين أو الذي تخفى مخاطره وأبعاده على أهل المدينة ، كما يجب علينا أن نتذكر هنا أن فئة من أهل المدينة – وهم اليهود – لم تتحمّس لهذه الفكرة ولم تقبل بها ، كما عورضت هذه الفكرة جهاراً من فئات أخرى من أهل المدينة أيضاً. وإزاء هذه الحال فاننا مضطرون الى التنقيب عما هو أبعد من الأسباب الظاهرة لنستطيع أن نفهم حقيقة البواعث التي دفعت بأهل يثرب الى سلوك هذا المسلك غير المتوقع.

كانت التجارة المكية هي العامل المؤثر في السياسة العربية في ذلك الوقت لذلك فليس ما يدعونا الى الافتراض بأن أهل المدينة لم يحسبوا هذا العامل عند اتخاذهم قرار دعوة محمد الى بلدهم وخاصة وان هذا القرار يتعلق بمكة نفسها. ومما له دلالة خاصة في هذا الصدد أن أهل المدينة لم يقبلوا محمداً وحده في مدينتهم وإنما قبلوا معه سبعين رجلاً من صحابته كلهم من أهل مكة ، وتعهدوا بنصرتهم ورعايتهم وبهذا استطاعوا أن يكسبوا عن طريقهم بعضاً من الخبرة المكية ، مقابل ما يقدّمونه لهم من حماية وإيواء.

وكان محمد نفسه عنصراً فعّالاً في التجارة المكية. وكان يعمل في تجارة أغنياء مكة ، وقد نجح في عمله كل النجاح وقامت شهرته فيها على الأمانة والوفاء حتى لُقب بالأمين ،

---

(١٨) هذه الروابط تمتد شمالاً الى مشارف اذرعات في سوريا والى نجران في الجنوب.

وقد عوّضته شهرته بالنجاح والاستقامة عما كان يعوزه في مستهل حياته من مال [١٩].

والى جانب شهرته بالأمانة والاستقامة والى ما ظهر من كفاءته في الادارة وقدرته على التنظيم فقد كان محمد ﷺ لهذه الأسباب كلها وبوصفه قريشياً في الذؤابة من بني هاشم، فقد كان ضالعاً في الاحلاف المكية عاملاً في شبكتها الواسعة عالماً بأنظمتها وطرق عملها. وكانت خبراته هذه صلى الله عليه وسلّم ثروات لا تعوّض في مكة [٢٠].

ومن الطبيعي أن يكون أهل المدينة قد عرفوا بمزاياه هذه وقدّروها حق قدرها ولا بدّ أنهم اتفقوا مع محمد على أن يمنحوه كل ما يطلب من السلطة ليقيم لهم في المدينة تجمعاً تعاونياً جماعياً شبيهاً بالنظام المكي. وقد انتهى التفاوض الصعب بينه وبينهم قبل سفره من مكة الى «اتفاق المدينة» الذي وضع الأساس للتجمع المدني والذي عرف باسم «الأمة».

وكانت الأمة تضم كل فئة ترضى بأسس التعاون في النظام، وعلى هذا الأساس فقد وقع العهد مع جميع فئات أهل المدينة ومع القريشيين المهاجرين اليها مع الرسول أيضاً.

ومن المهم أن نلاحظ أن اعتناق الاسلام لم يكن شرطاً أساسياً لعضوية هذا الحلف وإنما كان الشرط الأساسي هو القبول المسبق بسلطة محمد وحكومته فقط. وقد كان المفروض أول الأمر أن تقتصر سلطة محمد على القضاء فقط بين أهل المدينة حسب التقاليد العربية السائدة ولكنه ﷺ استطاع أن يوسع سلطاته وأن يضطلع بمسؤوليات اكبر من مجرد القضاء بين المتخاصمين وأن يطلب تبعاً لذلك مزيداً من السلطات والتي كانت تمنح له عن طيب خاطر كما استطاع في نفس الوقت أن يقنع اليهود، وكانوا أغنى أهل المدينة وأكثرهم ثراء، بالانضمام الى الأمة فانضموا اليها وانما على مهل وبالتدريج.

وهكذا استطاعت هذه «الأمة» أن تقف على قدميها حلفاً جديداً له كل مقومات النماء والحياة، إذ انها كانت تسمح بانضمام أية مجموعة جديدة اليها اذا ما قبلت أُسس التعاون التي تقوم عليها واذا ما قبلت بسلطة محمد. ومع ان الدستور لم يشر الى أي اتفاق

(١٩) كانت خديجة، زوجته الأولى، قبل بنائه بها من أشهر شركائه في التجارة.

(٢٠) حكمه في رفع الحجر الأسود وإعادة بنائه مثال باهر على هذا وهو أشهر من أن يُذكر هنا.

تجاري فلأن ذلك كان من المسلم به بداهة بين المتعاقدين. وما إعلان محمد للمدينة حرماً آمناً إلا دلالة قوية على قيام مركز تجاري جديد[21].

ومن الطبيعي أن قريشاً كانت ترقب باهتمام تطور الأحداث في القرب منها، وكان بامكانها أن تغضّ البصر عنها لو اقتصرت المنافسة الجديدة على الممارسة التجارية العادية فحسب، ولكنها تعدّت ذلك الى غزو القوافل وتهديد طرق المواصلات التجارية، وكان غزو القوافل أمراً مألوفاً في بلاد العرب ولم تنجح في منعه كل وسائل الحيطة والدفاع التي اعتادت قريش أن تحيط بها قوافلها، ولم يكن من سبيل الى منعه إلا في عقد الاتفاقيات مع الأقوام المقيمين على خطوط المواصلات التجارية.

لم يكن بين مكة والمدينة مثل هذه الاتفاقيات قبل هجرة محمد ﷺ من الأولى الى الثانية وكان تحرّش محمد بالهجوم على القوافل المكية بمثابة إعلان عن رغبته في الوصول الى مثل هذا الاتفاق، كما كان انذاراً لأهل مكة بخطر جدي جديد يهدد تجارتهم ومن ثم كيانهم كله، فقد أدركوا سريعاً أن شروط محمد لمثل هذا الاتفاق أصعب وأكثر من أن يقبلوا بها، وأن هذا الصراع الاقتصادي المحدود سيتحول في القريب العاجل الى حرب فعلية محتمة، ولكنهم مع هذا كله كانوا عازمين كل العزم على إزالة أي خطر يتهدد سيطرتهم التجارية التي تأثرت كثيراً من هجمات أهل المدينة على خطوط مواصلاتهم مع أسواقهم المهمة في الشمال.

وقد خلق هذا الوضع توتراً شديداً داخل المدينة وخارجها وهذا أمر لا يستغرب حدوثه في تجمع «الأمة» الجديد، فهناك أولاً أولئك الذين لم يوافقوا أصلاً على الخطة والذين زادهم صلابة في الرأي اعلان الحرب على مكة والذي كان عاملاً فعالاً في منع تدفّق التجارة التي كانوا يهدفون الى الحصول عليها وزيادتها.

وهناك ثانياً غالبية سكان أهل المدينة الذين كانوا يظنون بأنفسهم العجز عن الصمود أمام أهل مكة، عدا عما تجرّه الحرب من متاعب اكيدة وأخطار مجهولة ما كان أغناهم عنها. وثالثاً كان في المدينة اليهود الذين رأوا أن تدهور العلاقات مع أهل مكة سيؤثر حتماً على تجارتهم المزدهرة مع حلفاء مكة مثل أهل الطائف[22] حيث كانت هناك مراكز

---

(٢١) مونتغمري: محمد في مكة، ص ٢٢١–٢٢٥.

(٢٢) البلاذري: أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، طبعة ليدن، ١٨٦٦، ص ٥٦.

تجارية يهودية ، كما أدرك محمد ﷺ أن القضاء على تجارة مكة سيؤدي عن غير قصد الى إنعاش التجارة اليهودية ولهذا فقد أدرك أن إدخال اليهود ضمن جماعة الأمة لم يكن عملاً موفقاً ولا صائباً فقرر أن يعمل على إبعادهم منها في الحال . وقد بدأ ببني القنيقاع الذين كانوا اكثر الناس انغماساً بالتجارة في المدينة فأبعدهم منها وقد لحق هؤلاء بإخوان لهم من اليهود في شمال الحجاز ولكن إبعادهم لم يؤثر على سير التجارة اليهودية بل جعل هؤلاء اليهود يحالفون أعداءه عليه .

ولهذا لم يكن أمام محمد إلا أن يقدم على أشد أعماله السياسية خطراً وهي الوقوف في وجه يهود أهل المدينة والقضاء على مراكزهم فيها . ولهذا فقد وضع السيف في رقاب من تبقّى منهم بالمدينة وجاء عليهم عن آخرهم . وكان هذا درساً في قوة محمد بالغ العظة واضح العبرة لأعدائه داخل المدينة وخارجها [٢٣] .

وقد انتهت الآن تجارة مكة الى الركود التام ، وقد ركزت قريش كل جهودها للعمل من أجل الانتصار على محمد وقومه في المدينة لُيتاح لهم من ثم إعادة فتح طرق تجارتهم . ولهذا فقد استنفرت قريش كل حلفائها فحشدوا كل قواهم وساروا نحو المدينة في أعظم حملة لهم على محمد وأتباعه .

لكن فشل قريش في غزوة الخندق هذه عن تحقيق أي هدف من أهداف حملتها كان بحدّ ذاته نصراً رائعاً لمحمد وصحبه وانهياراً كبيراً لسمعة قريش ومكانتها بين العرب فأصبح من ثم أمر استسلامها لمحمد وقبولها بشروطه أمراً مسلماً به يلوح في الأفق القريب .

وكان محمد ﷺ يدرك كل الادراك ما لقريش من خبرة كبيرة في شؤون التجارة وما لها من صلات تجارية واسعة ويقدّرها حق قدرها ، ولكي يحسن الانتفاع من هذه الخبرة لاستعادة التجارة العربية المنهارة الى سابق كيانها ، فقد كان من المهم لمحمد أن تسقط مكة بيديه ، وهي وأهلها سالمو الكيان محترمو الجانب .

وقد نجحت خطة محمد هذه فانتصر على خصومه المنهارين وأدخلهم دين الاسلام معززين مكرّمين وصاروا أعضاء فعالين محترمين في جماعة الأمة .

وكان فتح مكة واستسلام قريش نصراً كبيراً لمحمد ﷺ ولكنه لم يضع النهاية

---

(٢٣) في هذا الصراع أنظر كيستر : أسواق النبي ، مجلة التاريخ السياسي والاقتصادي للشرق ، ص ٢٧٢ - ٦ .

لمشاكله، فسرعان ما وجد عليه السلام نفسه في موقف حرج إذ كان عليه أن ينصر قريشاً، على من كانوا حتى الأمس القريب حلفاءها المخلصين، أولئك الذين أفزعهم سقوط مكة فقرروا أن يبذلوا جهدهم الأخير لإنقاذ أنفسهم، لكن النصر النهائي الأخير كان لمحمد وحلفائه الجدد قريش (٢٤).

وما ان انتشرت أنباء هذا الانتصار حتى بدأت تتوافد على محمد في المدينة وفود القبائل القوية تبغي الاتفاق معه، فلا عجب بعد هذا أن يشتد معها في شروطه في هذه الفترة بالذات. ولم يكن الدخول في الاسلام في البداية شرطاً ضرورياً للانضمام الى جماعة الأمة، أما الآن فلم يصبح هذا شرطاً ضرورياً فحسب بل وأصبح دفع الزكاة الى محمد شرطاً ضرورياً آخر أيضاً.

ولم تكن الزكاة في الحقيقة إلا تجديداً للضرائب التي اعتادت القبائل دفعها ليتسنى لها المساهمة في التجارة المكية (٢٥). وكانت حنيفة، القبيلة المهمة الوحيدة التي رفضت كلا الشرطين. ومن الغرابة بمكان أن محمداً لم يتخذ ضدها أي إجراء رغم رفضها هذا ورغم وجود بعض مدّعي النبوّة بين ظهرانيها (٢٦).

ولأن الحروب في بلاد العرب أوقفت التجارة الدولية توقفاً تاماً فقد كان على محمد الآن أن يعمل على إعادتها الى سالف عهدها. ولهذا فقد كان عليه أن يقنع القوى الأجنبية بأنه سيّد الموقف وأنه قادر على حماية طرق التجارة. ولهذا فقد أرسل حملات عسكرية على طريق الشمال ليعرض قوته على السلطات البيزنطية وعلى القبائل العربية الساكنة قرب الحدود السورية. على أن شيئاً ذا بال لم ينجم عن عرض القوى هذا في حياة محمد نفسه.

وفي الواقع ان ظهور متنبئين جدد منافسين في أواسط جزيرة العرب وفي اليمن كان دلالة على انتفاء الاستقرار في المنطقة وكان نذيراً بمتاعب كثيرة يحملها المستقبل القريب. ومع أن محمداً قد استطاع في أقل من عشر سنين أن ينجح في تأسيس الأجهزة اللازمة

---

(٢٤) مونتغمري واط: محمد في المدينة، ص ٧٠-٧٧.

(٢٥) أنظر ما تقدّم، ص. ١٧.

(٢٦) وقد استمرت هذه القبيلة الكبيرة في عنادها على مقاومة قريش ومعارضتها لا أثناء حروب الرده فحسب، بل وحتى في زمن متأخر أثناء ثورة ابن الزبير، أنظر ص ٤١ و ١٤٥ من هذا الكتاب.

لإنشاء مراكز تجارية كبيرة جديدة تفوق المراكز القديمة إلا أنه لم يقدر له الانتفاع بها اثناء حياته ، ولكن لا شك أن النجاح الكبير الذي حققه والطاقات العظيمة التي أطلقها في بلاد العرب قد قدّر لها أن تمضي الى أبعد بكثير مما قدّر لها ، ولكن الركود الاقتصادي الحتمي في بلاد العرب والذي كان نتيجة لنشاط محمد وحروبه قد دفع العرب آخراً للانتفاع بالطاقات التي بعثها فيهم محمد بغزو البلاد المجاورة وبالتالي– وبعد وفاة محمد بفترة غير طويلة وعن غير قصد أو تصميم – الى امتلاك امبراطورية شاسعة الأطراف.

ولم يلغ محمد كل ماكان معروفاً من نظم وعادات ، بل أبقى على الكثير من الجيّد مما كانت تعرفه الجماعة العربية وتزاوله ، ونقّح في بعضه الآخر ثم أقرّه وطالما كرر هو نفسه هذه النقطة وأكدها ولطالما كرر أن تعاليمه الدينية لا تختلف عما جاء به الأنبياء قبله منذ عهد ابراهيم الخليل عليه السلام. وكان كل ما يدعو اليه هو وجوب التطبيق الصحيح لمبادئ الحقيقة الخالدة.

وهذا التطبيق الصحيح يعني العدالة والخلاص لكل فرد من أتباعه ، والتعاون بينهم ، والتعاون هو أحسن ضمان للسلام والازدهار ، وليس هذا بالشيء المبتكر في القيم الانسانية بل الواقع أن هاشم أرسى أُسس الازدهار المكي على أُسس تعاونية مماثلة وان كان على مستويات مختلفة بين الجماعات المشار اليها.

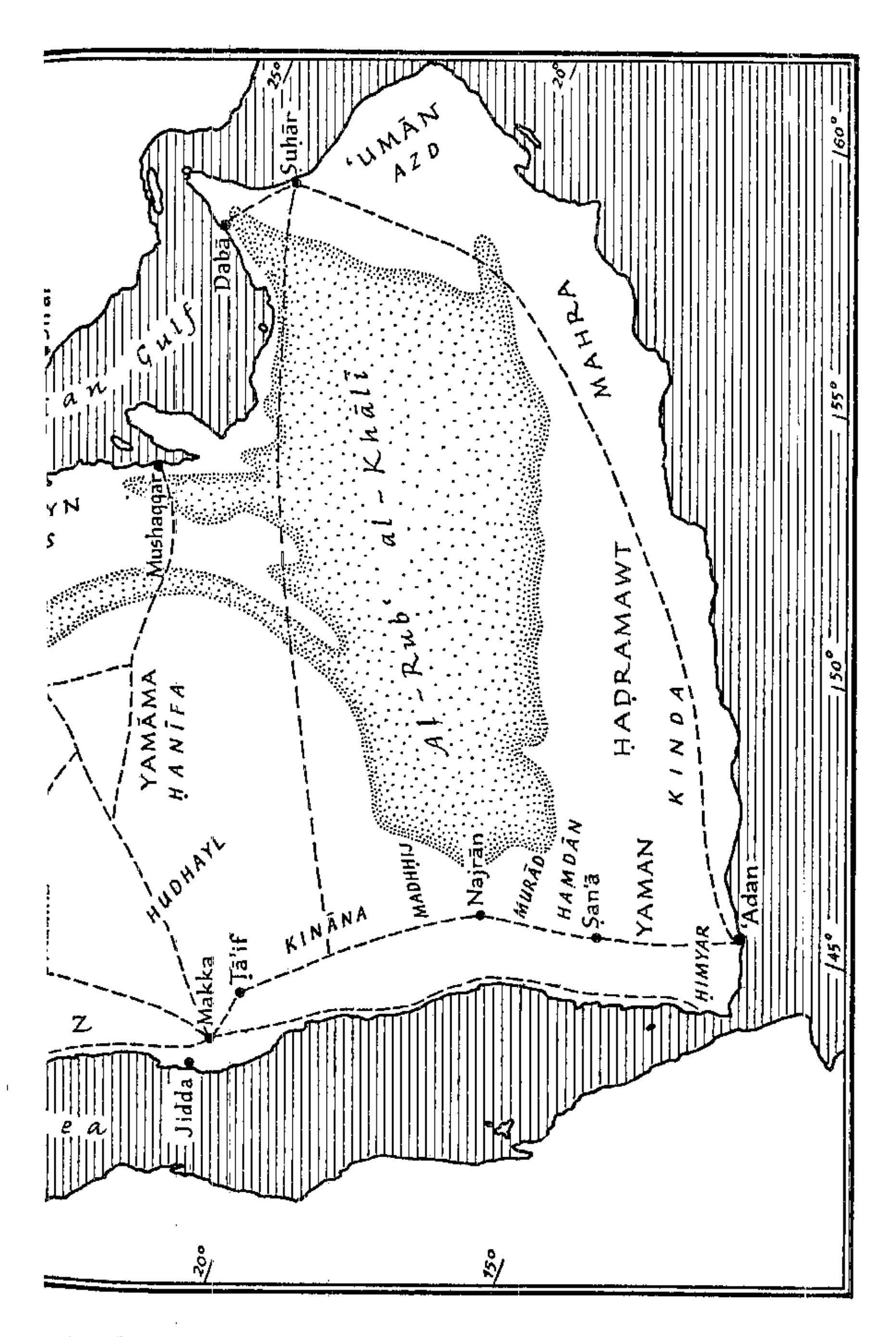
وقد كان التعاون في المعاملة نقطة الضعف الاساسية في الكيان الاقتصادي المكي ، وقد فتح الباب أمام التعسّف والظلم اللذين هددا مؤخراً الكيان أجمع بالفناء والانهيار. وكان الذي جاء به محمد هو التطبيق الصارم لمبادئ التعاون بين جميع أفراد الأمة وفي كل أنشطتهم.

وقد أسس محمد النبي ديانة تضمنت التعاون في كل مبادئه ، وأسس محمد القائد مجتمعاً مبنياً على التعاون في جميع العلائق الانسانية وكان ولا شك نظاماً عربياً مبنياً على التقاليد العربية وفي قوالب عربية صرفة. وكل ما فيه يشهد على عبقرية محمد التنظيمية فقد استطاع باستعمال الاشكال العربية وبالتمسك بالتقاليد المقبولة أن يغير في الصورة بما يسمح لمبادئه في التعاون أن تعمل عملها على أحسن وجه.

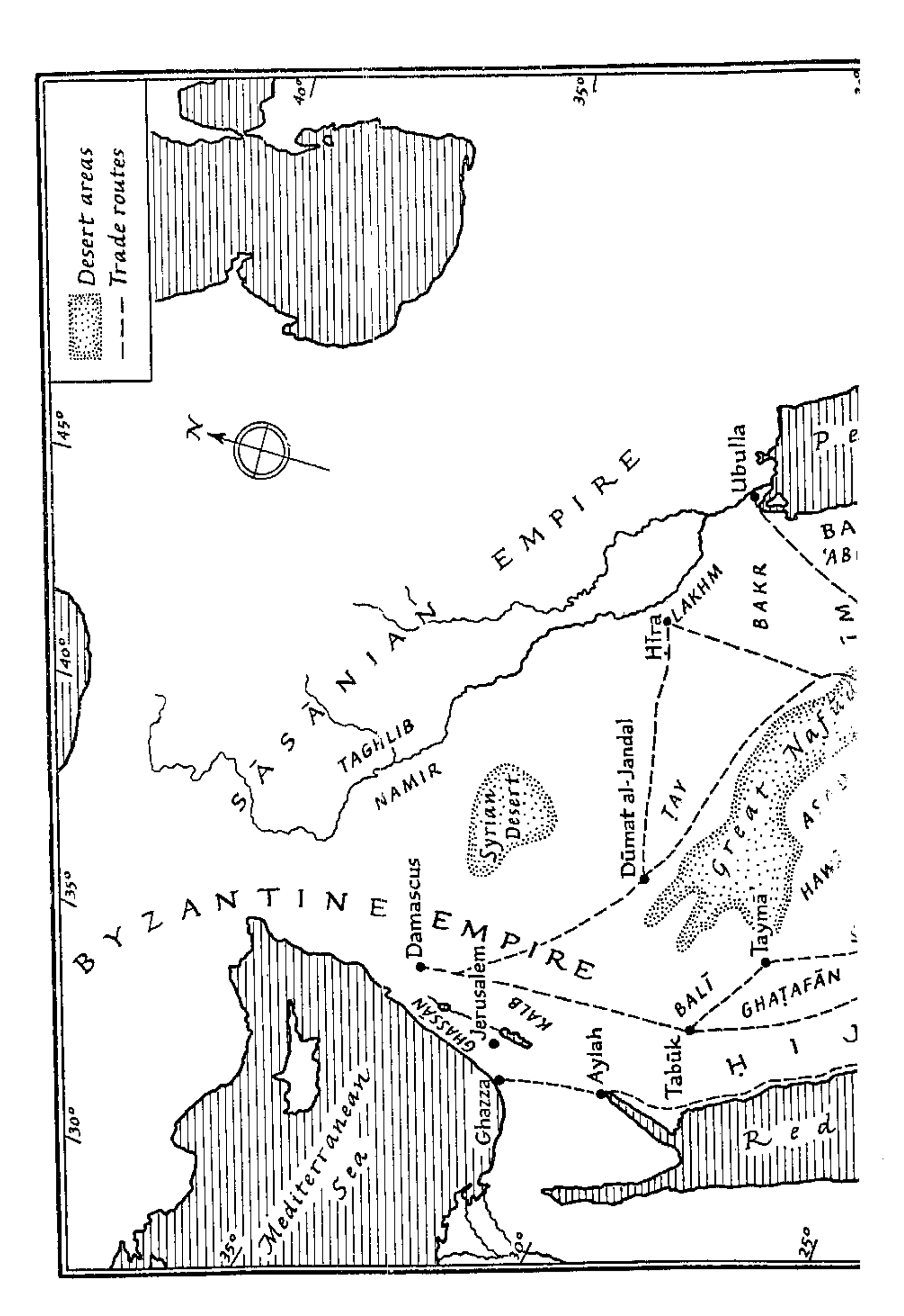
وعلى هذا استمرت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية ولكنها أصبحت جزء من وحدة كبرى هي الأمة وقد نحيت جانباً كل اتفاقات الحمس وعهود الايلاف مع كل

تطبيقاتها التجارية والدينية ليحلّ محلها دين الاسلام حيث الناس سواسية لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

وعلى هذا فان محمداً لم يوحّد العرب ولم ينشئ دولة وحسب ، ولكنه استطاع أيضاً أن يصلح نظاماً قائماً ويصححه بالتغيير والتحوير وادخال الجديد فيه. وأهم من هذا وذاك انه استطاع بعبقريته الفذّة في التنظيم أن يضبط الهدف النهائي وأن يحافظ على الرؤية الصحيحة ، وكان للتغيير الأساسي آثار بعيدة الأمد لم تنتهِ به الى انتصار دعوته فحسب بل والى نجاحها أيضاً في تأسيس ديانة عالمية جديدة.



(١) خارطة لشبه الجزيرة العربية وقت ظهو



الاسلام توضح طرق المواصلات واماكن سكن القبائل.



الفصل الثاني

أبو بكر وحروب الردة

على الرغم من أن محمداً – عليه الصلاة والسلام – قد توفي على حين فجأة وأثر مرض طارئ لم يمهله إلا أياماً معدودات ، فان اعتلال صحته المتزايد باستمرار خلال الأشهر الثلاثة السابقة على وفاته ، والذي جعله وهو في الثالثة والستين من عمره ، يبدو شيخاً طاعناً في السن منهوك القوى . كان النذير الأكيد بقرب النهاية الفاجعة ، ولعله ، صلى الله عليه وسلم ، وبسبب اعتلال صحته ووهن بنيته كان يستشف قرب نهايته ويتوقعها ومع هذا فانه لم يشأ أن يذكر للأمة شيئاً عمن يخلفه على أمرها من بعده .

أما ما تذكره المصادر الشيعية عن إعلانه في غدير خم تعيين ابن عمه وصهره «علي بن أبي طالب» خلفاً له فأمر لا يقوم على أساس متين من السند الصحيح ، ويبدو بعيد الاحتمال اذاً ما أخذنا بنظر الاعتبار التقاليد العربية السائدة التي لم تكن لتبيح العهد برئاسة القوم ومقاليد الأمور وتبعاتها الكبار الى مَن تعوزهم الخبرة والممارسة من شباب الجماعة .

وعدا عن هذا فليس في مصادرنا من أخبار أهل المدينة وتصرفاتهم ما يوحي أو يفيد بسماعهم بمثل هذه الوصية أو علمهم بها ، وما كان باستطاعتهم إخفاء هذا الأمر أو تجاهله لو أن النبي ﷺ قد أوصى به فعلاً .

ومن جهة أخرى فان تكليف الرسول ﷺ أبا بكر بالصلاة في الناس في مرض موته لم يكن بدوره ذا دلالة قاطعة . فلطالما عهد الرسول أثناء غيابه عن المدينة في مناسبات عديدة بالصلاة بل وبأعمال الادارة كافة في المدينة ، الى أناس غير مشهورين من صحابته ودون أن يترتب على ذلك أثر ما .

ولهذا فان الاستنتاج الوحيد الذي يمكن الركون اليه هو أن محمداً ﷺ قد تعمّد أن يدع قومه وشأنهم ليتفقوا فيمَا بينهم على اختيار من يخلفه فيهم إن كان هناك ثمة خليفة ما.

ويتفق هذا الاستنتاج وما عُرف عنه عليه الصلاة والسلام من فهم عميق لروح عصره وتقاليد قومه عدا أنه الخيار العملي الوحيد المتيسر بين يديه.

فقد انتقل صلوات الله عليه الى جوار ربه وهو في أوج زعامته الدينية والسياسية ولم تأته هذه الزعامة عفواً واعتباطاً كما لم يأخذها غصباً وقسرا، وإنما جاءته على مرّ الزمن وبالتدريب ونتيجة العمل الدائب والجهد المضني، وكانت هجرته الى المدينة ونجاحه في نشر دعوته وتأسيس حكومته فيها خطوته الثابتة والأكيدة الى مراتب السيادة الكاملة الشاملة. فمن المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن حين جاء المدينة أول مرة إلا زعيم أتباعه المؤمنين به والمهاجرين معه أو بعده اليها من مكة، وكانوا فئة قليلة العدد بالقياس الى أهل المدينة ذوي العدد العديد، ولم تكن دعوته الدينية قد وجدت أول الأمر قبولاً إلا بين عدد قليل فقط من أهل المدينة. ومع هذا فان الكثرة الغالبة من أهل المدينة هؤلاء وإن لم يعترفوا به نبياً إلا بعد حين فانهم اعترفوا به من أول الأمر، حَكَماً وحاكماً، ومنحوه لهذه الأغراض فقط سلطات محدودة جداً.

وانه لمن شواهد عبقرية محمد القيادية انه استطاع أن ينتفع من هذه السلطات المحدودة أعظم انتفاع وأن يطورها وبالتدريج الى أوسع ما تتسع له من حدود ومدى. فلم يمضِ غير وقت قصير حتى اعترفت به الأمة كلها زعيماً وقائداً لها كما اعترفت به نبياً مرسلاً بالهدى ودين الحق، وبذلك اكتملت له الزعامة عامة شاملة لا ينازعه فيها منافس أو معارض ولم يسبقه الى مثلها أحد من قبل.

وقد كانت زعامة محمد شأنها شأن كل جوانب رسالته عربية في طبيعتها وسماتها تستمد مقوماتها من أعرق التقاليد العربية.

وكانت هذه التقاليد لا تعترف بالزعامة والسيادة لأحد ما لم تبايعه عليها جماعته وهي لا تبايعه ما لم يثبت لها بالتجربة والعمل قدرته عليها وجدارته لها. ولذلك فمن الخطأ أن ننسب للزعماء العرب سلطات واسعة على أتباعهم غير ما يمنحهم إياها أولئك الأتباع أنفسهم. فلم يكن المجتمع العربي مجتمع تسلّط وإجبار قط، بل كان دوماً بطبيعته

وتكوينه مجتمعاً مفتوحاً تقوم قوة الزعيم فيه على الشورى والاقناع ولا تقوم على التسلط والإرغام.

وكان لزعامة محمد جانبها الديني أيضاً. وهو جانب بالغ الأثر كثير الخطر، ولكن هذه الزعامة كانت عملاً من أعمال السماء وأساسها النبوة والرسالة ووسيلتها الوحي والإلهام. وقد أوضح الوحي بما لا يقبل الشك والخلاف بأن محمداً خاتم النبيين والرسل وأن لا نبي بعده، ولهذا فمن هذه الناحية فليس ثمة من يخلف محمداً في تلقّي رسالات السماء.

ولأن التقاليد العربية العريقة تقضي بأن تخلق الزعامات نفسها بنفسها لا أن يفرضها الغير على المجتمع فرضاً، فلهذا وذاك من الأسباب ترك محمد ﷺ الباب من بعده مفتوحاً لظهور زعامة عربية جديدة تخلفه. وفي هذا البرهان كل البرهان على بُعد نظره كما وان فيه البرهان أيضاً على أن جماعته قد نجحت في تطبيق التقاليد العربية على ظروفها الجديدة.

ولا ندري إن كان زعماء المسلمين قد بحثوا فيما بينهم ما يجب عليهم عمله بعد وفاة محمد أم لم يبحثوا ذلك. ولكنهم إن كانوا قد فعلوا ذلك، وهو الأرجح، فلا بدّ انهم انتهوا في مناقشاتهم هذه الى التأكيد على وجوب الأخذ بالتقاليد العربية السائدة والى أن المشكلة ستحلّ نفسها بنفسها عند حلول اللحظة الفاجعة.

ومن الجهة الثانية يجب أن نذكر أن الاسلام كان ما يزال حديث العهد لم تتركّز أُسسه بعد، وما زال رجالات الاسلام يتذكرون أيام الجاهلية وعلى ذلك فما زالت العودة الى الأحوال القديمة أمراً ممكناً في كل حين ولم يكن نظام الحكم والادارة لفترةٍ ما قبل الاسلام في المدينة وغيرها قد زال نهائياً وإنما استُعيض عنه بنظام غير قبلي حديث النشأة.

وقد بدأت بالفعل بعض القبائل ذات العلاقة بالمدينة تبدي بعض علائم السخط وعلائم الرغبة في استعادة حريتها بالعمل، ولم يكن هناك ما يمنع مكة نفسها من أن تعيد سلطة «الملأ» أي مجلس رؤساء القبائل. وفوق هذا وذاك فقد كانت المدينة نفسها معرّضة إلى حال من الحرب الأهلية كان محمد قد نجح، وبالكاد، في تفاديها.

ومن الواضح أن الخزرج من أهل المدينة كانوا منتبهين لهذه الأحوال مستعدّين لها ، ذلك لأنهم في مساء نفس اليوم الذي توفي فيه محمد ﷺ اجتمعوا لوحدهم ليبحثوا موضوع الزعامة. ولربما كانوا يهدفون الى إناطة زعامة النظام المدني الى رئيسهم سعد بن عبادة [1] .

وكان هذا الاجتماع تهديداً خطيراً لوحدة الأمة التي ما تزال هشّة طريّة ، لذا فإن أمراً مثل هذا سرعان ما سيعيد فتح أبواب الفتنة والشقاق بين الأوس والخزرج ، واكثر من هذا فانه يشير الى عدم ثقة أهل المدينة بالقريشيين المهاجرين اليها وهذا خطر آخر على تماسك الأمة ووحدتها.

وقد أثار هذا الحال هلع الجماعة الاسلامية كلها بحيث دفعها الى حسم موضوع الخلافة في نفس اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ وأُعطيت لهذا الأمر الأسبقية على تجهيزه ودفنه عليه السلام.

وكان إسراع الخزرج الى هذا الاجتماع نذيراً واضحاً بما سيكون عليه مصير الأمة اذا ما انفرط هذا النظام غير القبلي الذي أقامه محمد. وهذا بدوره حسم في الحال طبيعة الاستخلاف ولم يبقَ الا اختيار الشخص المطلوب. ثم ضاق الأمر الى اكثر من ذلك حتى اقتصر على إيجاد المرشح الاكثر قبولاً من كل الجماعات.

من الواضح أن القائد الجديد للأمة لا يمكن أن يكون من رجال القبائل المتآلفة كما لا يمكن أن يكون من أهل المدينة لوجود التنافس والعداء بين الأوس والخزرج. ولم يكن بالإمكان الرجوع الى تطبيق القاعدة العربية باختيار الزعيم من أشهر البارزين في البيوتات القبلية الشهيرة ، طالما كان الأخذ بهذا الأمر يناقض فكرة الزعامة غير القبلية التي جاء بها محمد ﷺ والى جانب هذا فمَن الذي يستطيع أن يعيّن البيوتات القبلية البارزة؟.

وعلاوة على ما تقدّم فلم يكن في بيت آل الرسول إلا مرشّحان اثنان فقط أولهما علي بن أبي طالب ولكنه كان أصغر سناً من أن تُعهد اليه مسؤولية الأمة ، وكان المرشح الآخر الوحيد في هذه العائلة هو العباس ابن عبد المطلب عم النبي ﷺ ولكنه كان حديث

(١) ظل الزعيم الوحيد الذي أصرَّ على رفض مبايعة أبي بكر وعمر ، وقد اغتنم أول فرصة سانحة فترك المدينة واستقرّ في بلاد الشام حيث مات هناك. ومما له دلالة في هذا الصدد أن ابنه قيس ظل بعد ذلك بربع قرن يناضل ، وحتى الأخير ، لنصرة علي بن أبي طالب.

عهد بالاسلام ، ومع هذا فلو أُريد تطبيق مبدأ أشهر البارزين في بيوتات قريش لأنتهى الأمر الى اختيار أبي سفيان ، وهو أمر غير مقبول ، لما كان منه خلال سنين طويلة من عداء مستحكم للرسول ﷺ وللاسلام.

وبعد هذه الغربلة ، برز اخيراً اسم أبي بكر كمرشّح مقبول من الجميع. وكان اختياراً موفقاً لأسباب عدّة منها انه كان من قريش ولكنه ليس من الذؤابة فيها. وكان صديق النبي الحميم ورفيقه وأقرب أصحابه اليه منذ بدء دعوته عليه الصلاة والسلام. ولهذا كان أعرف الناس بآراء الرسول وأفكاره وكان الى جانب ذلك نسابة ذا شهرة واسعة في هذا الميدان. وكان العلم بالانساب صفة تعلي من شأن صاحبها وترفع مقامه بين العرب وقد تجلّت مهارة أبي بكر السياسية في حسن انتفاعه من طول باعه في معرفة الأنساب أثناء حروب الردّة حيث كان التمييز الصحيح بين الأنساب المتشابكة المعقّدة للقبائل الثائرة أمراً ذا عناء كبير. وكان أبو بكر على استقامته وحزمه رجلاً رقيقاً لطيف المعشر كما يوحي بذلك غلبة كنيته «الصديق» على اسمه.

وكان اختياره لقيادة الأمة يدل بما لا يقبل الشك على صدق الحس السياسي لدى الجماعة ، كما كانت السرعة التي تمّ فيها الاختيار فالبيعة دليلاً على تصميم الجماعة على التماسك والوحدة للمضي في تحقيق الرسالة التي تركها الرسول ﷺ أمانة بين أيديهم.

على أنه يجب الحذر من المبالغة في سلطات أبي بكر بوصفه «خليفة رسول الله» فقد كان هذا اللقب من الغموض بحيث حار في تفسيره علماء اللغة ولعل هذا الغموض في المعنى هو سبب اختياره [٢] فما من أحد يستطيع أن يعدد أو يحدد بالضبط مدى السلطة التي يستطيع الشاغل لهذا المنصب الجديد أن يزاولها أو التمتع بها لأداء واجباته والنهوض بمسؤولياته. وربما رأوا أن التجربة والممارسة هما اللتان تقرران مدى ذلك وطبيعته ، ومع كل هذا فقد كان من المتفق عليه ضمناً والمعروف علناً ان ما من أحد في الجماعة يستطيع أو يسمح له بتبنّي سلطات الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام.

ذلك أن الحقيقة وواقع الحال أن لا خليفة لمحمد قط ، بالمعنى الدقيق لكلمة الخلافة ، طالما ان ما من أحد بعده يستطيع أن يتلقى وحي السماء الذي كان مصدر

---

(٢) أنظر و.م. واط : الفكر الاسلامي السياسي ، أدنبره ١٩٦٨ ، ص ٣٢.

رسالته عليه الصلاة والسلام والذي كان يستلهم منه أقواله وأفعاله ولهذا لم تكن لأبي بكر سلطة دينية قط ، أما سلطاته كزعيم وقائد للجماعة فقد اقتصرت ، طبقاً للتقاليد العربية على أضيق الحدود أي على ما يمكنه من الحفاظ على الجماعة فقط ، وكانت أعماله تستمد مشروعيتها من مدى موافقتها للكتاب والسنّة. وقد كان وصوله الى السلطة قراراً خاصاً أقدمت عليه الجماعة في لحظة من لحظات الأزمة الآخذة بخناقها وطبقاً لتقاليدها العربية المُعترف بها ، ولا يمكن اعتبار هذا القرار قراراً بإنشاء الخلافة كنظام دائم لأن الواقع أن أبا بكر نفسه ظل خلال الستة الأشهر الأولى من فترة حكمه يزاول عمله الرسمي لساعات محدودات فقط من النهار أما بقية يومه فقد استمر يعمل تاجراً يغدو كل يوم الى السوق فيبيع ويبتاع. وكان علاوة على ذلك يحلب لجيرانه أغنامهم ليوفّر له دخلاً إضافياً ، ولكن ما ان ادركت الجماعة وجوب تفرّغه لأعمال الحكومة حتى منحته من بيت المال راتباً اضافياً يكفيه وأهل بيته. وبهذا تفرّغ لأعمال السلطة وترك التجارة «واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم»[3].

وما من دليل مثل هذا أدلّ على ضيق سلطات أبي بكر الزمنية.

وقد احتاجت الجماعة الى كل الطاقات التي تستطيع أن تحشدها عدا عن طاقات زعيمها نفسه لمواجهة خطر داهم بدأ يتهددها ويهدد كيانها ونظامها ، فلم تكن بلاد العرب بعد وفاة النبي ﷺ قد اندمجت تماماً بالأمة ، ولم يكن سراً ظهور بعض الادعياء بالنبوة ، في جنوب الجزيرة العربية ووسطها خلال السنوات الأخيرة من حياة الرسول ﷺ يحاولون النيل منه والكيد له ولكن نجمهم أفل وخبا ذكرهم بسبب وجود محمد ونجاحه. ولذلك فقد ظنوا أن وفاته تعني انتهاء دينه وانهيار نظامه ، ولذلك فقد حان الوقت في نظرهم للوقوف ضد سلطة المدينة وسيطرتها أو تهديدها ، لا فرق لديهم إن كانت قبائلهم على وفاق واتحاد مع أهل المدينة أم لم تكن.

ذلك لأن الأثر المباشر لظهور محمد كان اضطراب تجارتهم وحرمانهم من نصيب كبير من الايراد ، وبالنسبة للعشائر المتحالفة مع المدينة فقد كان العبء أثقل وأكبر ، إذ كان عليهم بالاضافة الى ما تقدّم أن يدفعوا الزكاة أو الصدَقة والتي لا يعود لهم منها نفع البتة.

---

(٣) الطبري : محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، لايدن ١٨٧٩-١٩٠١ ، ج ١ ، ص ٢١٤٢-٣ ، وابن الأثير ، عز الدين. الكامل في التاريخ ، لايدن ١٨٦٦ ، ج ٢ ، ص ٣٢٥.

ولهذا فقد انضمت غالبية القبائل في شبه الجزيرة العربية الى المتنبئين الجدد ضد الاسلام وخرجوا عن حلفهم مع المدينة ، وكانت حنيفة وهي تجمُّع قبلي كبير في أواسط بلاد العرب لم تدخل مع المدينة في حلف أبداً تقود القبائل المجاورة لها في حركة الردة هذه. وقد كان لحنيفة متنبئها المعروف مسيلمة الكذاب والذي كان هدفه إقامة نظام حكم تحالفي في اليمامة عاصمة حنيفة (٤) ، وكانت حنيفة قد مُنيت بخسائر مالية وتجارية فادحة بسبب ظهور محمد واضطراب حبل التجارة العربية ، ذلك لأن الناتج الزراعي لبلاد حنيفة كان وافراً وكانت مكة سوقه الرئيسية حتى فتحها المسلمون.

وعلاوة على ذلك فقد كانت اليمامة نفسها في موقع وسط بين الشرق والغرب وقد أفقدها توقف التجارة مركزها هذا وكانت ثورة مسيلمة الرئيسية – ولربما نقطة ضعفه الرئيسية أيضاً – هو محاولته أن يقود الجماعات المقيمة في أواسط جزيرة العرب في محاولة للسيطرة على الرحّل من حواليهم وذلك من أجل أن يقيم نظامه التحالفي (٥) .

ولكن هذا البحر الخضم من القبائل الرحل كان أوسع حجماً وأكثر ارتباطاً بالسياسات القبلية المحلية المتشابكة في الشرق والغرب من أن يستطيع مسيلمة قياده ، وكان الكثير منهم مترددين أو لا يرون نفعاً في منح ولائهم المحض الى مسيلمة ضد القوة الأكبر ، قوة أبي بكر (٦) . وكان للبعض من هؤلاء متنبؤوهم الخاصون بهم مثل طلحة في بني أسد ، وبالتالي فلم تكن هناك مصلحة مشتركة واضحة تربط بينهم وبين حنيفة كما يظهر ذلك من انعدام التعاون بينهما ضد المدينة رغم قرب الدار بينهم.

وفي اليمن في جنوب الجزيرة العربية ، كانت الأحوال – على خطورتها – تبشّر بالانفراج لصالح أهل المدينة ، وقد انطلقت في تلك البلاد ذات الحضارة العريقة ، حركة كادت أن تبلغ حد الانبعاث القومي ، وكان قائد الحركة نبياً دعياً آخر هو «الأسود

---

(٤) الطبري : ج ١ ، ص ١٩٣٠–٣٢؛ واط : محمد في المدينة ، ص ١٣٦ . دايل ف. ايكلمان «سليمة» ، مجلة تاريخ الشرق السياسي والاقتصادي ١٩٦٧ ، ص ١٧–٥٢ ، وقد عالج الموضوع من ناحيته الاجتماعية والانتربولوجية علاوة على الناحية التاريخية.

(٥) الطبري: ج ١ ، ص ١٩٣٠–٤ ، ايكلمان «سليمة» ، ص ٤٢.

(٦) الطبري: ج ١ ، ص ١٨٧١ ، ١٨٨٩ ، ١٩١١ ، ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ والكامل لابن الأثير، ج ٢ ، ص ٢٥٩ و ٢٦٤.

العنسي» الـذي بدأ حركته في الواقع قبل وفاة الرسول ﷺ بعامين، وكان يرى انه طالما استطاعت اليمن أن تتخلّص من النفوذ الفارسي فيها فليس ثمة ما يمنعها من أن تتمتّع باستقلالها التام والخروج على سلطة المدينة، وكان أنصار الأسود هم من جماعات المزارعين في اليمن. ولكن كان الى جانبهم عدد لا بأس به من القبائل تعارض هذه الحركة وتقف الى جانب النظام المدني وهذه هي القبائل اليمنية التي كانت تتعاطى التجارة والتي كانت على استعداد لمحاربة أبناء جلدتهم من أجل فتح طريق التجارة مع الشمال. والذين لا بدّ أنهم أدركوا تماماً ألا سبيل لاستمرار مورد رزقهم إلا بالتأييد المدني لهم، وأن أي ثمن يُدفع في هذا السبيل ليس بالثمن الباهظ.

وانه لذو دلالة كبيرة أن يكون الأشعث بن قيس الكندي وهو أحد زعماء الثورة، من كبار الملاّك الزراعيين في حضرموت وأن يكون أبو موسى الأشعري، وهو من أوائل المسلمين الذين ظلوا على إخلاصهم للاسلام، من كبار التجار اليمنيين المقيمين في مكة، ومن المؤكد انه كان ممثل تجار اليمن في مكة قبل الاسلام وأكثر من هذا انه استمر في مزاولة تجارته بعد الاسلام وحتى ايام الفتوح الأولى ولم تصرفه عنها مهامه الجسيمة كوالٍ وقائد في البصرة [٧].

وفي المدينة نفسها صمّم أبو بكر كل التصميم على الاستمرار في تنفيذ خطط محمد لاستكمال النظام المدني الذي وضع عليه السلام أسسه أثناء حياته، وكان يقف الى جانب أبي بكر في هذا الأمر أهل المدينة يسندونه بكل قوة وثبات وتصميم. وكان هذا أمراً طبيعياً من أهل المدينة ولكن الأمر الغريب حقاً أن نجد أهل مكة وأهل الطائف [٨] يمحضون أبا بكر التأييد الكامل والولاء المطلق، ومع أن هؤلاء كانوا أعدى أعداء محمد أغلب أيام حياته، فانهم لم يستغلّوا فرصة وفاته للانقضاض على نظامه والإطاحة به بل نجدهم على العكس من ذلك قد أصبحوا المدافعين الأشداء عن النظام المدني. وقد كانوا بطبيعة الحال حديثي عهد بالاسلام، ومع أن المرء لا يعدم أن يجد حالات فردية يكون

---

(٧) الطبري: ج ١، ص ١٩٩٤ و١٩٩٦، ٢٠٠٤، أنظر ابن تغري بردى «النجوم الزاهرة»، طبعة لايدن ١٨٥١، ج ١، ص ١٤٢، ولمزيد من التفاصيل مع تفسير مختلف، أنظر واط «محمد في المدينة»، ص ١١٧ - ٣٠.

(٨) الكامل، لابن الأثير، ج ٢، ص ٢٥٩.

فيها الحماس الديني هو الحافز للدفاع المستميت عن الدين الجديد. فان المرء لا يعدم أن يجد حالات فردية يكون الولاء فيها تحقيقاً لمصالحهم.

ذلك أنهم أدركوا أنهم وقد خسروا تجارتهم العالمية فانهم قد ارتبطوا دون انفصام بالنظام المدني ولذلك فاذا ما أرادوا استعادة رخائهم ورفاههم فما لهم من خيار إلا أن يحاربوا من أجل بقاء هذا النظام ونجاحه، وهما في الواقع ليسا بالأمر البعيد.

وفي هذه المرحلة كان تحت تصرّف أبي بكر كل رجال المدينة ومكة والطائف وبعض رجال القبائل شبه الرحّالة التي تضرب وتتجول في تلك الأنحاء. أما بقية القبائل الحجازية فكانت موزعة الى قسمين. فمنهم مَن ظلّ يرقب وينتظر دون أن يتدخل مع هذا الفريق أو ذاك ومنهم من أعلن عداءه لأبي بكر بكل قوة وصراحة[٩].

والى حدٍّ ما فإن ردّ الفعل هذا يمثّل نقطة التوتر الفاصلة بين أهل المدن وأهل البوادي في شبه الجزيرة العربية. فقد وجد أهل البوادي في النظام المدني مجرد أداة لإعادة سيطرة الجماعات المستقرة عليهم، ولذلك فانهم أخذوا يتحيّنون أول فرصه مناسبة للخروج على هذا النظام والتخلص منه. ولم يكن ليرضيهم مجرد الانفصال عن هذا النظام وانما كانوا يهدفون الى هدمه وإبادته. ولذلك لم يتورّع البدو المحيطون باطراف المدينة من الهجوم عليها وقد استطاع أهل المدينة وبالكاد صدّهم وردّ الأذى عن مدينتهم[١٠].

وقد كان أهل المدينة في الواقع في وضع حرج جداً، فغالبية جيشهم كانت قد خرجت في حملة الى الشمال، وكان أبو بكر في تصميمه على إنفاذ ما بدأه الرسول قد أسرع في إرسال هذه الحملة على الطريق الشمالي كما خطط واستعدّ لها الرسول قبل موته ووفق خطته ﷺ في إرهاب القبائل العربية القاطنة على حدود بلاد الروم وأسيادهم الروم من خلفهم، وقد أنفذ أبو بكر هذه الحملة خلاف نصائح مستشاريه وتجاهل بشجاعة وقوة جنان، كل الأخطار الآنية والآجلة وأصرّ على وجوب سير الحملة في طريقها عام ١١/٦٣٣.

وكان هذا القرار مخاطرة عظيمة من أبي بكر، ولكنها في نفس الوقت خطوة سياسية

---

(٩) الطبري: ج ١، ص ١٨٧١ و١٨٨٧ و١٩٠٥.

(١٠) نفس المصدر، ص ١٨٧٢-٤.

حاسمة وفعّالة ، فقد كان عمله هذا إعلاناً صارخاً للجميع على أن المدينة من القوة والمنعة بحيث تستطيع أن تنازل أعداءها أجمعين وفي آن واحد. كما كان تأكيداً عملياً للمهتمين بأمور التجارة على أن الحفاظ على طرق التجارة مطلب عاجل وأساسي ويتبوأ مكان الصدارة في سياسة أبي بكر.

وأخذاً لهذه الظروف والملابسات في نظر الاعتبار فإن إرسال الحملة كان مجازفة محسوبة ولكنها كانت ضربة سياسية محكمة. ومهما يكن من أمر فلم تحقق هذه الحملة من الناحية العسكرية شيئاً ذا بال وعادت الى المدينة بعد زهاء الشهر من خروجها منها.

هذا التصميم الفذّ من جانب أبي بكر هو الذي حوّل حراجة موقف المدينة الى نصر سريع حاسم وكان من حسن حظ أبي بكر أن الثوار لم يتفقوا فيمّا بينهم على عمل مشترك موحّد ضد المدينة. وبعد نجاحه في الدفاع عن المدينة لم يضيع أبو بكر وقتاً في أخذ المبادرة ضد أعدائه. فحشد جميع قواته وأرسلها في حملات الى جميع الجهات. وكانت غالبية هذه القوات من القبائل المحيطة بهذه المدن (١١) .

وليس من مجرد الصدف أن نجد مصادرنا الأولى تطلق على هذه القوات اسم «أهل القرى» أي العرب المستوطنون في المدن والقرى مقابل أهل البوادي وقد أطلق أهل القرى أيضاً على بعض من مناوئيهم من بني حنيفه ولنفس السبب (١٢) وتشير الروايات المتأخرة الى «أهل القرى» هؤلاء على أنهم «القراء» وهو اشتقاق آخر من الفعل «قرى» (١٣) .

وهذا الاختلاف اللفظي البسيط جرَّ الى خلاف كبير في فهم طبيعة الجماعة المعنية لأن لفظ «القراء» عني بها خطأ قراء القرآن (١٤) وفي هذه الحالة فان التأكيد على أهل القرى في مصادرنا يقصد به جلب انتباهنا الى أن هجوم أهل المدينة على حنيفة كان أمراً مختلفاً طالما كان صراعاً بين جماعتين مستقرّتين أو بعبارة أخرى ، فان هذا القتال كان في الحقيقة بين حلف أهل المدينة وبين حلف حنيفه ، منافستها المنتظرة في اليمَامة أما التوتر السائد بين

(١١) المصدر السابق، ص ١٨٨٧ و١٩٢٣ و١٩٣٠.

(١٢) نفس المصدر، ص ١٩٤٦-٧.

(١٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٨٨ «فاستشهد وجوه الناس وقرّاء القرآن».

(١٤) أنظر ص ٨٨ - ٨٩ من هذا الكتاب.

أهل المدن وأهل البوادي فقد كان وفي هذه الحالة بالذات، أمراً ثانوياً.

وقد مُنيت حملات الردة الشهيرة في بعض الأحيان بنكسات طفيفة ولكنها سرعان ما استرجعت مواقعها وحققت نصراً ساحقاً. وقد غير انتصارها هذا ميزان القوى في شبه جزيرة العرب الى صالح المدينة وحكومتها الاسلامية، فعادت الى حظيرة الاسلام القبائل المترددة والمنتظرة التي كانت على وشك إعلان ردّتها فاستعين بها على ضرب المرتدّين ومحاربتهم [١٥].

أما من استسلم من أهل الردة وعادوا الى الاسلام «فلم يكن أبو بكر ليستعين بهم في قتال أهل الردة ولا في قتال الأعاجم» [١٦].

وقد دحرت القبائل المرتدة كلها في غضون عام واحد من وفاة الرسول ﷺ وقد أسرعت القبائل التي لم تكن قد أسلمت بعد الى الدخول في دين الله أفواجاً والى القبول بحكومة المدينة ونظامها وكانت أولها وأهمها قبيلة حنيفه في أواسط الجزيرة العربية والتي دُحرت في معركة عقرباء عام ١١ /٦٣٣. وهذا يعني أكثر من العودة الى الوضع السائد. ولكن أبو بكر لم يكن ليستطيع أن يتجاهل، بسهولة، التهديد الذي تمثله حنيفه لخطط حكومة المدينة التجارية، ثم ان خالداً ابن الوليد كان هناك.

وخالد هو بطل عقرباء والقائد العام لحروب الردة في أواسط الجزيرة العربية، وكانت عبقريته العسكرية هي السبب في النصر الوحيد الذي أحرزته قريش ضد النبي في معركة أُحد عام ٣/٦٢٥، وكان رجلاً مرموق المنزلة رفيع المقام في مكة، كما كان رئيساً بارزاً من رؤساء مخزوم، اكثر بطون قريش عدداً ومنعة. وكانت كل أعماله وتصرفاته توحي بصلابة الرأي وقوة الجنان وتشير الى نزوع نحو الاندفاع؛ وفي قتاله لأهل الردة لم يلتزم تماماً بأوامر أبي بكر وتعليمَاته، وإنما كان يحارب من يجد أمامه ويدحره [١٧] وفي هذا الصدد فقد ذكرت مصادرنا قبائل كثيرة مثل بني أسد وغطفان وفزارة وطيءْ وتميم وغالبها من أهل البادية.

ثم التفت نحو حنيفة وفتح بلادها وقد خرج من معركة عقرباء وهو القائد الأعلى

---

(١٥) الطبري: المصدر السابق، ص ١٩٦٢–٨٠.

(١٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٢٥.

(١٧) نفس المصدر السابق، ص ١٩٢٢.

لجيش كبير منتصر يربض على مقربة من الامبراطورية الساسانية الغنية ، وكان يعلم أن بني شيبان وهم مسلمون لم يشتركوا في حروب الردة ، كانوا في شغل شاغل في الغارة على أطراف حدود الساسانيين في سواد العراق. وكانوا يقومون بهذه الغارات من تلقاء أنفسهم ودون ما أمر أو توجيه من المدينة (١٨) وكان إغراء المشاركة في هذه الغارات أكبر من أن يستطيع مقاومته رجل في مثل طباع خالد.

ولا ندري على وجه التأكيد ان كان خالد قد استأذن أبا بكر في إقدامه على هذا العمل أم لا ، ولكن من يعرف خالداً وطبعه ، يستطيع أن يحكم بأن خالداً لم يكن ليعبأ باستئذان أبي بكر في أمر يريد أن يعمله كما لم يكن ليعبأ بتجاهل أمره إن كان قد استأذنه فمنعه أبو بكر في المضي فيمَا عزم عليه (١٩) فلم يكن خالد القائد المنتصر وكبير بني مخزوم لينظر الى أبي بكر التيمي بكثير من الاهتمام ، فأبو بكر لم يكن خليفة إلا في المدينة فقط عدا عن أن تيم لا تُقاس بمخزوم منزلة وجاهاً.

وقد دعى خالد رجاله للاشتراك معه في زحفه هذا ولكنه أذِنَ بالرجوع الى المدينة للراغبين عنه ، ولا شك أن من ظل معه وتبعه إنما فعل ذلك طمعاً في الغنائم المرتقبة في بلاد الساسانيين.

وقد كانت أمثال هذه الغزوات العربية للامارات الساسانية أمراً مألوفاً متكرراً قبل الاسلام ، وظل الأمر كذلك رغم ظهور الاسلام ، بل انها في الحقيقة أصبحت الآن ضرورة اقتصادية لا لكثرة السكان في بلاد العرب فحسب بل ولأن التجارة وخاصة بعد حروب الردة قد مُنيت بكساد تام.

ولا بدّ أن أبا بكر ، وهو الحاكم المسؤول قد أحس بهذه الحقيقة وأن الركود الاقتصادي العام آخذ بالخناق ، وعلى ذلك فليس من بأس من الاذعان لاندفاع خالد رغم أنه حل فطري للأزمة (٢٠) ولكن سرعان ما أدرك أبو بكر ان هذا هو الحل الأمثل إن لم يكن الحل الأوحد. فقد أدّت الحروب في بلاد العرب على مدى عقد كامل من السنين الى توقف التجارة فيها وما من شعاع أمل في عودتها الى سابق حياتها ، واذا أرادت

---

(١٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٤١.

(١٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٤٢ والطبري ، ص ٢٠١٦.

(٢٠) الطبري : ج ١ ، ص ٢٠٤١-٢.

حكومة المدينة أن تستمرّ في الحياة وأن تقوى قبضتها على أتباعها فيجب عليها إيجاد مصادر جديدة للدخل لسكانها لتعوضهم بها عما لحقهم من توقف التجارة وركودها من خسائر، وخاصة وان هذه الحكومة نفسها هي المسؤولة عن هذا الركود والخسران. ولذلك وكتعويض عن هذا الخسران فقد أعدّ أبو بكر جيشاً كبيراً عام ١٣ /٦٣٤ يضم رجالاً ممن وقفوا بصلابة مع نظام الحكم في أحرج أوقاته وهم أهل المدينة ومكة والطائف ومعهم بعض القبائل العربية التي حاربت أهل الردة وخاصة منها القبائل اليمَانية التي حاربت مع المسلمين بني قومها من أهل الردة [٢١] وقد حرم أعداء المدينة من الاشتراك بهذه الحروب وما قد تستتبعه من غنائم وأسلاب. وقد أنيطت قيادة هذه الجيوش برجال من قريش أمثال عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وغيرهما ممن كانوا لسابق تجاربهم التجارية على علم ومعرفة بأحوال البلاد المقصودة وجبهات القتال المنتظرة فيها.

وعلى خلاف الحملة السابقة في نفس هذا الاتجاه فقد حدد هدف هذه الحملة بكل وضوح وجلاء وهو الوصول الى الحدود البيزنطية في جنوب فلسطين. لكن تأليف الجيش العربي من أربعة ألوية منفصلة مستقلة عن بعضها البعض يعمل كل منها في مكان يختلف عن مكان الآخر يدلّنا على أن هدف الحملة لم يكن القيام بمجابهة واسعة مع العدو في ميادين القتال بقدر ما كان هدفها الحصول على اكبر نصيب من الغنائم [٢٢]. ويبدو أن العرب قد أخطأوا في تقييم الوضع في الامبراطورية البيزنطية إذ انهم ظنوا أنها لا تختلف في شيء عن الامبراطورية الساسانية الممزقة. ولكن الروم البيزنطيين كانوا على علم تام بتطور الأحداث في شبه جزيرة العرب، وقد زاد فقدانهم السيطرة على طرق المواصلات التجارية من قلقهم من الخطر الناجم عليهم والمفروض عليهم من القوة الجديدة النامية في المدينة وما هذه الغزوات الاسلامية المتكررة على حدود بلاد الروم إلا تهديد واضح ومتنامٍ وخطير لأمن الامبراطورية البيزنطية واستقرارها ولم يكن بامكان حكومة منظمة مثل حكومتهم، وقد خرجت لتوّها منتصرة من حرب طويلة ضروس مع الامبراطورية الساسانية (٦١٤–٦٢٨) أن تتجاهل أمراً هاماً مثل أمن الحدود.

---

(٢١) الطبري: ص ٢٠٠٤–٥ والبلاذري، ص ١٠٧.

(٢٢) الطبري: ص ٢٠٨٥–٧ والبلاذري، ص ١٠٨.

ولا بدّ أن أخبار وفاة محمد وما تبع ذلك من انتفاضات وحروب في شبه الجزيرة العربية قد زادت من قلقهم ولعل الأوضاع قد أغرتهم بالتدخّل في الأمر على أمل تغيير الأوضاع لصالحهم ، ولذلك فما ان وصل الجيش العربي تخوم فلسطين حتى التقى بعدو يقظ كثير العدد والعدة متأهب للقتال.

ومع ان العرب قد حققوا نصراً بسيطاً أول الأمر ضد حامية بيزنطية صغيرة إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن عليهم أن يخوضوا حرباً ضد جيش نظامي مستعد للحرب كل الاستعداد.

وفي الحال طلبوا المدد من أبي بكر ولكن لأنه لم يزل مصرّاً على استبعاد أهل الردة من القتال فلم تكن لديه قوات كافية ليرسلها الى فلسطين ، وكان الخيار الوحيد لديه هو أن ينتفع من خالد بن الوليد وصحبه الذين كانوا يواصلون غزواتهم الصاعقة في العراق.

ولم تصادف غزواتهم هذه مقاومة تُذكر ولم تكن لها أهمية عسكرية ولكنها كانت ذات نفع مادي للمشتركين فيها ولأبي بكر نفسه أيضاً إذ كان يرسل اليه بخمس الغنائم الكثيرة التي كانت تغنم هناك.

وعلى كل حال فان سرعة تطور الاحداث في فلسطين اضطرت أبا بكر لأن يوعز الى خالد بالالتحاق بجيش المسلمين في فلسطين مع أكبر عدد ممكن له من الرجال. وقد أسرع خالد بتلبية النداء فقطع وصحبه بادية الشام في مسيرة بطولية شهيرة لم تستغرق إلا خمسة أيام فقط [٢٣].

وكانت جيوش المسلمين في فلسطين قد اجتمعت الى بعضها وكوّنت جيشاً واحداً فلما قدم عليهم خالد اجتمعوا وأمّروه عليهم فصار القائد الأعلى للجيش. ومن الممتع أن نعرف أن هذا التعيين لم يتم بأمر من ابي بكر أو بعلم منه وإنما فرضه على الموقف بأس خالد وكفاءته العسكرية [٢٤].

وقد بلغ مجموع جيش المسلمين أربعاً وعشرين ألف رجل ، وهو يكاد أن يكون كل قوة الحكم في المدينة في هذه المرحلة ، ويبدو أن من المحتمل أن جيش الروم في فلسطين ،

---

(٢٣) الطبري: ص ٢١٠٩ ، والبلاذري ، ص ١١٠.

(٢٤) البلاذري: ص ١١٥.

وجلّه من المرتزقة العرب أهل أرمينيا ، لم يكن ليفوق الجيش العربي عدداً ولذلك لم يكن مستغرباً أن ينتصر العرب على جيش الروم انتصاراً ساحقاً حين التقى الجمعان في أجنادين عام ١٣ /٦٣٤.

وقد مات أبو بكر قبل أن تصل اليه أخبار المعركة ولا بدّ انه مات مرتاح الخاطر سعيد البال ، لأنه استطاع خلال حكمه القصير والذي لم يزد عن السنتين ، أن يحقق كل المهام البارزة التي واجهها أيام حكمه.

فقد أبعد الخطر عن نظام الحكم في المدينة ولم يقتصر عمله على إعادة القبائل الى حظيرة الاسلام فحسب بل وتعدّاه الى نشر الاسلام بين القبائل التي ظلت حتى وفاة الرسول ﷺ مناوئة له.

وقد فرضت حروب الردة نوعاً من أنواع الوحدة على شبه الجزيرة العربية ومع أن هذه الوحدة ظلت محدودة أو ناقصة بسبب منع القبائل المرتدة من أن تصبح وحدات فعّالة في الأمة فان الباب ظل مفتوحاً على مصراعيه للوحدة العربية التامة.

فلأول مرة في التاريخ أخذت القبائل العربية التي لم يكن يجمعها — لحد الآن — جامع من مصلحة أو عمل ، أخذت لأول مرة تشترك في أعمال جماعية حيث يقف بعضها الى جانب البعض الآخر. وهكذا بدأنا نشهد أهل مكة مثلاً يحاربون في العراق جنباً الى جنب مع قبائل من شرق شبه جزيرة العرب كما بدأنا نرى قبائل يمانية من الجنوب تشترك مع أهل مكة وأهل المدينة في حرب فلسطين في الشمال.

ولعل فشل أبي بكر الوحيد كان في عجزه عن وضع حد للانهيار التجاري المستمر. ولكن المفارقة الكبرى هنا هو أن هذا الانهيار قد وضع الاسلام على عتبة باب الفتوحات الكبرى. ولم يلقَ العرب مقاومة تُذكر في غزوهم للعراق ، كما قدّر لهم النجاح المبين في معركتهم الكبيرة مع الجيش البيزنطي في فلسطين ، ومن المحتمل أن يكونوا أنفسهم قد استغربوا نجاحهم ونصرهم هذا ، ولكن مما لا شك فيه أن هذا النصر قد شجعهم على الاندفاع الى الأمام والمضي نحو المزيد من الفتوحات.

وقد أعطت هذه الحروب أبا بكر الفرصة لأن يتولى — وبجد جد ضيق — تدوير الأمور وتوجيهها بنفسه ، ولكنه ظل أبعد ما يكون عن الحاكم المطلق ، وكما شرحنا ذلك من قبل ، فقد كان خلال الستة الأشهر الأولى من حكمه «خليفة غير متفرّغ» وهذه

الحقيقة مجتمعة مع طبيعة علاقته مع خالد تصوران بكل وضوح القيود الموضوعة على سلطته. وعلى كل حال فانه نفسه لم يكن ليعتبر هذا فشلاً، فان تاريخ حكمه وحقيقة استمرار الأمة في تجربة الخلافة أيام عمر من بعده يحكمان على نجاح حكومته كل النجاح.

ومما يجب أن يذكر هنا أيضاً أن أبا بكر كانت له خلافاته مع زعماء الأمة الآخرين في المدينة، وأوضح هذه الخلافات وأشهرها خلافه حول معاملة المرتدين عن الاسلام، فقد اتفقت آراء الجماعة على وجوب اخضاعهم ودعوتهم الى الاسلام. ولكن الآراء اختلفت في طريقة معاملتهم، فكان خالد بن الوليد يمثل أقصى الرأي المتطرف في الشدة والقسوة، وقد اتخذت اجراءات انتقامية قاسية ضد المرتدين في اكثر من مناسبة واكثر من مكان، لكن سلوكه هذا أثار الكثير من النقد والاستياء في المدينة وخاصة – ولهذا الأمر دلالته الخاصة – من رجال بارزين أمثال عمر بن الخطاب [٢٥]. وقد كان أبو بكر، خلا حالة واحدة فقط، أقل عنفاً مع المرتدين من خالد، فهو مثلاً لم يحفظ للأشعث بن قيس الكندي وهو أحد قادة المرتدين في اليمن حياته فحسب بل وفكّه من الحديد وزوّجه اخته، ولكنه من الجهة الثانية كان يتفق وخالد في عدم الوثوق بالمرتد حتى بعد توبته وعودته للاسلام وفي عدم معاملة المسلم المرتد معاملة المسلم الذي لم يرتد قط، وظل صامداً مع أهل المدينة في وقت محنتهم يدافع عن الاسلام ونظامه، ولذلك فقد أبقى أبو بكر الأشعث الكندي تحت رقابة صارمة دائمة في المدينة وسدّ أُذنيه عن نداءات بني شيبان للاستعانة بمن قد ظهرت توبته من أهل الردة ممن «يستطعمه الغزو في العراق» [٢٦].

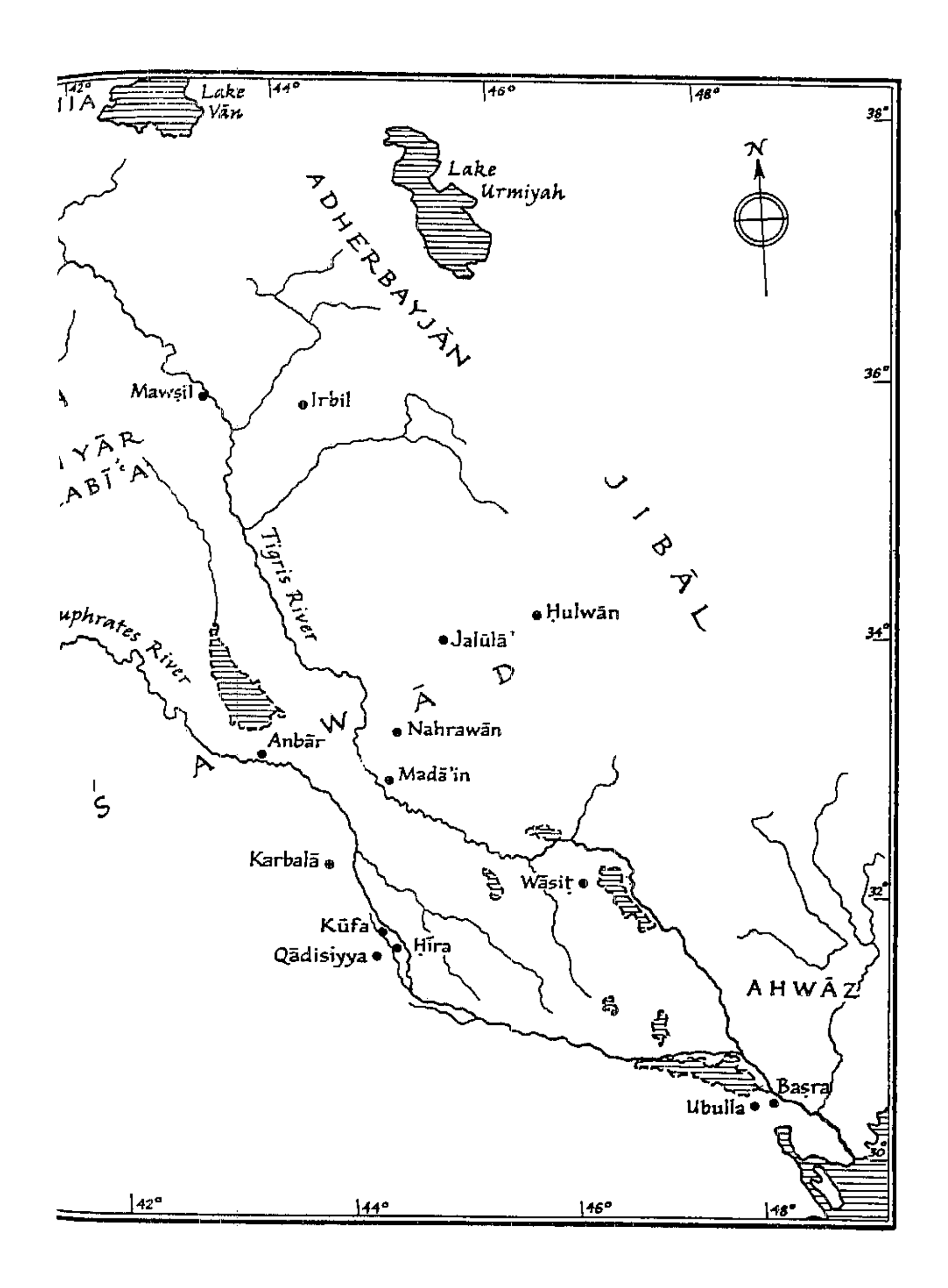
ونستطيع دون عناء أن نفهم رأي أبي بكر وخالد، ونعذرهما عنه بسبب ما عانياه كلاهما من حروب أهل الردة. ومع هذا فان حرمان أهل الردة من الاشتراك في الحروب وبالتالي من الانتفاع من غنائمها يعني بالتالي حرمانهما نفسيهما من مصدر كبير من مصادر الجند، ولكن أبا بكر لم يكن يرى لهذا الأمر كبير أهمية فهو يرى ان الجيوش التي ثبت

---

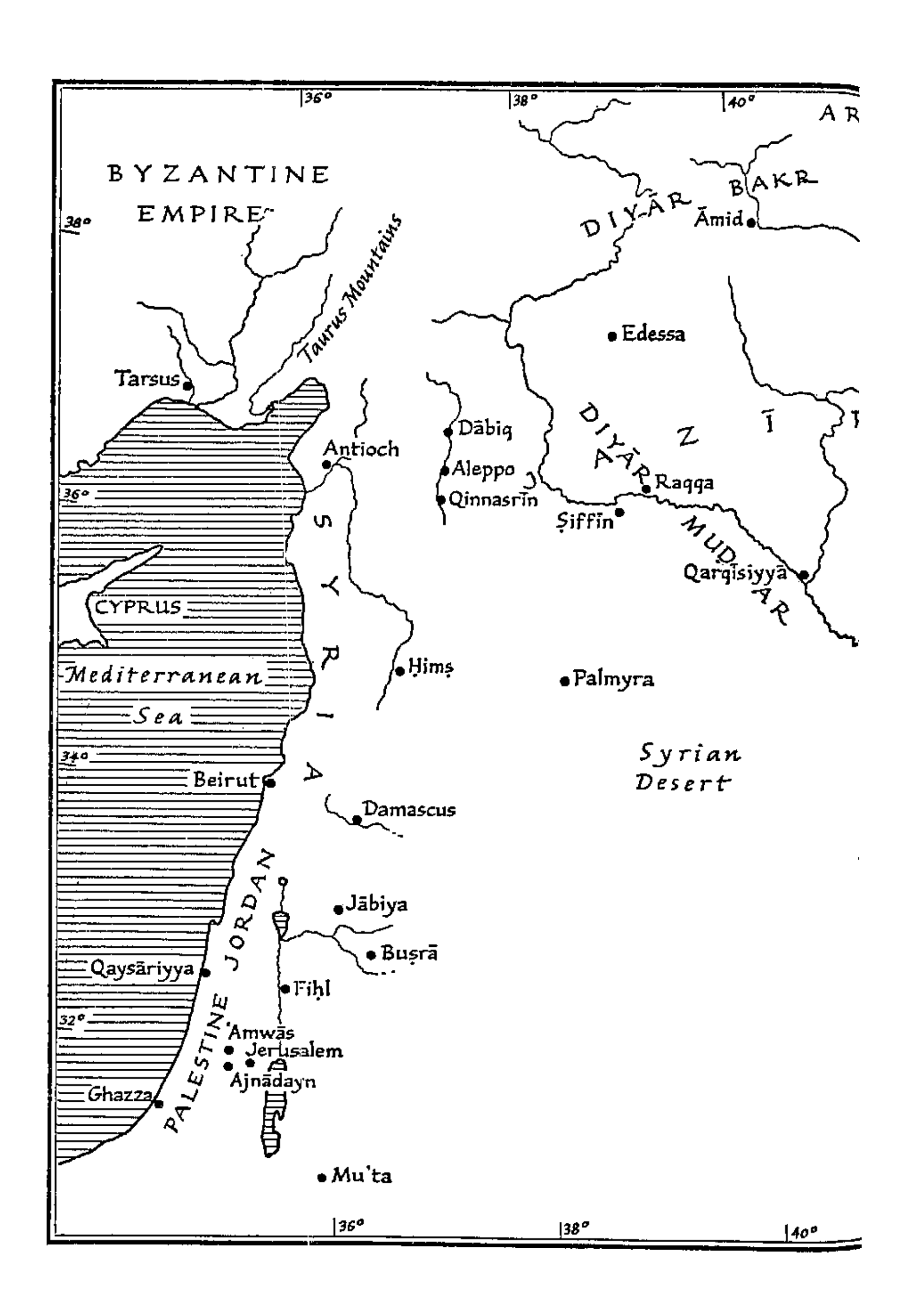
(٢٥) الطبري: ص ١٩٢٨.

(٢٦) الطبري: ص ٢١٢٠.

اخلاصها وقمعت فتن أهل الردة تكفي وحدها لتأمين السيطرة على شبه الجزيرة العربية. وهذا صحيح طالما استطاع نظام الحكم في المدينة الامتناع عن تجريد الحملات البعيدة خارج شبه الجزيرة العربية في العراق وبلاد الشام، وهذا ماكان ينويه أبو بكر ويريده، أما حملتاه على بلاد فارس وبلاد الروم فقد كانتا في نظره أمراً طارئاً وعارضاً ومؤقتاً.



(٢) خارطة سوريا وأرض



الجزيرة وارض السواد.

الفصل الثالث

عمر وعصر الفتوحات

حين حضرت الوفاة أبا بكر عام ١٣ /٦٣٤ أوصى أن يخلفه على المسلمين عمر بن الخطاب ، وعلى الرغم من أن وصيته هذه كانت عملاً فريداً لا سابقة له ، إلا أنه يبدو وكأنه العمل الأمثل المستطاع . ويكشف تقبّل الجماعة عامة لهذا الإجراء عن رغبتها في الاستمرار بالعمل على أسلوب أبي بكر في الحكم . ولعلها قد رأت أن مدة السنتين اللتين قضاهما أبو بكر ، ورغم ما تحقق فيهمَا من نجاح ، لم تكن فترة كافية للوصول بها الى حكم صحيح عن مدى صواب أسلوب الحكومة هذا.

ومع ان وصية أبي بكر باستخلاف عمر كانت بدعة جديدة لا سابقة لها ، فان ما يجب ذكره وتذكّره هو أن أبا بكر طرح الموضوع على شكل اقتراح وجعله معلقاً على موافقة الجماعة ورضاها ، ولم يكن قراره ملزماً لها ، بل كان في قدرتها أن ترفض هذاالمرشح وتختار شخصاً آخر غيره لو انها شاءت أن تفعل ذلك.

ولكن عمر كان رجلاً معروفاً ومشهوداً له بالصفات القيادية وبصواب الرأي ، وقد برز اسمه واتسعت شهرته أيام أبي بكر ، وكان له الفضل في جمع كلمة أهل المدينة على قبول أبي بكر خليفة في أشد ساعات الحرَج والانقسام ، وهذا يدل على مدى ثقة الجماعة به واعتمادها على حكمته وصواب رأيه.

واذ رضيت قريش بأبي بكر خليفة وحاكماً فليس ما يدعوها الى عدم الرضى بعمر ، الذي سبق أن برهن — حسب ما تقتضيه التقاليد العربية — على صفاته القيادية ومؤهلاته للزعامة ، ولذلك لم تكن هناك ندحة من انتخابه قائداً وزعيماً للجماعة ، وعلى هذا فإن أبا بكر لم يوصِ بشخص معين لمنصب الخلافة بقدر ما أوصى باستمرار منصب الخليفة نفسه.

وكان أول عمل أحدثه عمر حين استخلف ، هو خروجه عن سياسة أبي بكر في عدم الاستعانة بالحروب والفتوح بمرتد ، فلم يكتفِ عمر بندب أهل الردة للقتال وإنما شجعهم وحرّضهم على المشاركة في الحملات العربية على ملك الساسانيين في العراق. ولذلك لما وجّه أبا عبيدة بن عمر الثقفي الى العراق أمره «أن يستنفر معه للجهاد كل قوم من العرب يمرّ بهم»[1] بصرف النظر عن سابق أمرهم أيام الردة. وكان هذا من عمر قراراً حصيفاً وخطيراً أدى الى تغييرات عميقة في شبه جزيرة العرب وكان أول خطوة فعّالة نحو توحيد العرب ، إذ لم يبقَ بعد هذا القرار من يمكن إقصاؤه عن المشاركة في النشاط العام للجماعة المسلمة ، فأصبح الجميع سواء كانوا من أهل القرى أم أهل الوبر ، بدواً أم حضراً ، ذوي مصلحة مشتركة ونصيب متساوٍ في نظام أهل المدينة.

وقد أسقط هذا القرار البسيط والخطير عن الثوار المرتدّين جرمهم وأعاد لهم حقوقهم وأعاد الانتفاع بقابلياتهم لمصلحة الجميع على حد سواء وأصبح التعاون الاسلامي مشاعاً بين المسلمين كافة وكان حتى الآن محصوراً بفئات معينة و بهذا اتسعت قاعدة نظام الحكم في المدينة لتشمل العرب أجمعين ولولا هذا القرار الحصيف لما قدّر للامبراطورية العربية أن تظهر للوجود.

وسكوت المصادر العربية عن ذكر أية معارضة لهذا القرار يدلّ على الموافقة الجماعية على هذا القرار إن لم يكن التأييد الكلي الشامل له من قبل الجميع.

ولا بدّ أن الجماعة العربية قد بدأت تدرك الآن أن قيام نظام المدينة على أساس التجارة الدولية أمر يتعاظم يوماً بعد يوم صعوبة تحقيقه وخاصة بعد نشوب العداء مع الدولة البيزنطية.

وقد عملت سلبية الساسانيين تجاه الغزوات العربية واندحار الروم في معركة اجنادين على إقناع العرب بجدوى الغزوات والحروب بسبب وفرة المغانم والأسلاب التي يمكن الحصول عليها بنتيجتها ، والى عقم المضي في التجارة لقلّة أرباحها بالمقارنة الى غنائم الحروب. واذ تشجع العرب على سلوك هذا السبيل فقد رأوا أن ينتفعوا من قواتهم لتحقيق أقصى ما يمكن جمعه من المغانم ، وقد نجح العرب في هذا وانهالت عليهم المغانم والاسلاب وكانت أوفر وأكثر بكثير مما كانوا يتوقّعون.

(١) البلاذري ، ص ٢٥٠ ، والطبري ، ص ٢١٦٥ و٢١٨٥ و٢٢٢٥.

وكانت الاقاليم الساسانية اكثر إغراء في هذا الخصوص ، لا بسبب وفرة الغنائم فيها فحسب ، بل وأيضاً لانعدام المقاومة فيها . ولكن الامبراطورية الساسانية ، كقوة عظمى لا يمكن لها أن تطيق مثل هذه الغارات فترة طويلة ، فاذا كانت لوثوقها في قدرتها وقوتها ، قد تجاهلت مناوشات خالد وغزواته واعتبرتها أمراً مسلماً به طالما كانت الى جوارها هذه الشعوب المُحِبَّة للغزو والنهب ، فانها لا تستطيع اليوم السكوت على وصول أبي عبيد ومعه خلق كبير من قبائل العراق إذ ان هذا معناه إعلان الحرب رسمياً على حدودها الجنوبية . ولهذا فقد أخذت الأمر بجد وحزم واستنفرت قواتها وأرسلت جيشاً ليلتقي بجيش العرب ويصدّه ، وقد اشتبك الجيشان فأرعب منظر الفيلة في جيش الفرس خيل العرب وإبلهم فولّوا أمامها الأدبار ولم تنجح شجاعة أبي عبيد وبسالته في لَمِّ شمل قومه وتثبيت أقدامهم ، فتشتت جمع جيشه وانهار نظامه وقُتل هو وأخوه وابنه في معركة الجسر هذه عام ١٣ / ٦٣٤ [٢] .

وكان موقف العرب قد تحرّج على الجبهة البيزنطية أيضاً . فقد أثار انتصارهم في موقعة اجنادين شعور الخطر والقلق عند الروم فاستنفروا قوات جديدة لمواجهة التهديد العربي الزاحف نحو بلادهم .

واذ جاء استنفار قوات الامبراطوريتين الكبريين في آن واحد ، فقد حمل هذا عمراً على استنفار قواته هو الآخر أيضاً . وليس صعباً أن تتصوّر عظم المشاكل العديدة والمعقّدة التي واجهت عمراً في استنفار العرب ، ناهيك عن تنظيمهم وتدريبهم لمقابلة أعظم قوتين عالميتين ومحاربتهما .

وقد كانت القدرات التنظيمية عند التجار القريشين خير معين لعمر في هذا الأمر بالذات ، فصلاتهم التجارية ببلاد الروم قبل الاسلام وعلاقاتهم القبلية ومكانتهم في بلاد العرب ، والتي ظلت على حالها إن لم تكن قد زادت في ظل الاسلام ، كانت كلها عوامل ذوات قيم عالية في مواجهة متطلبات الوضع الجديد ، وقد اختير سعد بن أبي وقاص لقيادة القوات العربية على الجبهة الفارسية ، وهو قرشي لم يكن ذا كفاءة عسكرية بارزة ، ورغم كونه امرئ جاف الطبع حاد المزاج ، وعلى حظ قليل من القدرة

---

(٢) البلاذري ، ص ٢٥١ ، ٢٠٠ .

على القيادة والادارة ، كما ستثبت الأيام ذلك ، فانه اختير لهذا المنصب لحسن علاقاته مع عرب شبه الجزيرة واستعداده التام للتعاون مع أهل الردة [٣] .

وقد خرج سعد من المدينة على رأس قوة صغيرة قوامها ألفا رجل نصفهم من أهل اليمن الذين أسرعوا الى تلبية نداء عمر ، وفي طريقه الى العراق انضمت اليه قبائل عدّة حتى بلغ تعداد جيشه السبعة آلاف رجل بينهم مشاهير الثوار من أهل الردة من أمثال الأشعث بن قيس الكندي وطليحة ، المتنبئ السابق لبني أسد [٤] وما ان بلغ سعد الجبهة الساسانية حتى انضمت الى جيشه قبائل من شرق شبه الجزيرة ممن سبق لهم أن اشتركوا في قتال الساسانيين من قبل .

وحين التحم الجمعان في القتال كان العرب قد تغلبوا على خوفهم من الفيلة الفارسية وتعلموا بعضاً من أساليب أعدائهم في القتال . أما الساسانيون فلم يكونوا ، بالرغم من ذعرهم ، ليعتبروا العرب خطراً كبيراً يمكن له أن يهدد امبراطوريتهم وبالتالي فلم يحاولوا أن يحشدوا أمامهم كل قواهم العسكرية وخاصة في المعارك الأولى ، ولم يفطن الفرس الى حقيقة الحال ومغبّة هذا الوضع إلا بعد فوات الأوان . فقد نفذ العرب الى الاراضي الساسانية وسببوا لخصومهم بعض النكسات ، واكثر من هذا وذاك أهمية انهم استطاعوا الحفاظ على ما غنموه لأكثر من سنتين كما استطاعوا أن يعتاشوا على الغنائم الوفيرة التي جمعوها من أرض العراق .

وقد رفعت هذه الانتصارات معنويات العرب وضعضعت معنويات الفرس ، ومع هذا فقد دفع الفرس أخيراً الى ميدان القتال بقوة كبيرة جداً ولكنها لم تستطع أن تغير من نتيجة الموقف شيئاً . فانتصر العرب على الفرس نصراً حاسماً في معركة القادسية عام ١٦ /٦٣٧ .

وقد ساد مثل هذا الوضع أيضاً على الجبهة البيزنطية ، فبعد انتصار العرب في معركة اجنادين عام ١٣ /٦٣٤ ظلوا متمسكين بأرض فلسطين حيث وصل اليهم المدد من

---

(٣) الطبري ، ص ٢٢٠٢ و٢٢١٥-١٦ و٢٢٢١ .

(٤) البلاذري ، ص ٢٥٧-٦٠ والطبري ، ص ٢٢٢٢ .

المدينة وكان جلّه من أهل اليمن ، ولم يكن بينهم الكثيرون من أهل الردة وان كان بينهم بعض المشاهير من زعماء الردة أمثال قيس بن المكشوح المرادي[٥] .

ولا بد أن عمراً رغبة منه في إحلال الوفاق والانسجام داخل هذا الجيش ما دام في أرض الاعداء ، فقد رأى أن الأصوب أن يستبدل بخالد بن الوليد أبا عبيده الجراح قائداً عاماً للجيش على طول الجبهة البيزنطية .

ولا خلاف في أن خالداً كان الأكفأ عسكرياً والأقدر ادارياً ، لكن الوضع كان يتطلب رجلاً أخف عنفاً وأقل شدة من خالد ، يستطيع بسهولة وببساطة أن يتعاون مع رجال من أمثال قيس بن المكشوح .

ولم يكن مردّ هذا التغيير عداوة شخصية بين عمر وخالد ، وانما كان عملاً سياسياً فهمه وأدرك مغزاه خالد فظل يعمل تحت قيادة أبي عبيدة . ويبدو أن مهمة أبي عبيدة كانت مهمة المنسق اكثر منها مهمة القائد العام ، وعن طريق تنسيق حركات قواده استطاع أن يوجّه ضربات متلاحقة الى أعماق الأراضي السورية مع الحفاظ على وحدة جيشه وقوته .

ولما قرر الروم شنّ هجوم عام ضد هؤلاء الغزاة كان أبو عبيدة على استعداد تام لمواجهته فنازلهم بكامل قوته في معركة اليرموك عام ١٦ /٦٣٧ وأحرز نصراً ساحقاً وحاسماً حمل الروم على مغادرة بلاد الشام كلها مرة واحدة والى الأبد مما سهّل أمر فتح بقية البلاد السورية دون صعوبة تُذكر .

وكان من المحتم أن يتبع فتحَ مصر فتحُ بلاد الشام ، ومع ذلك فان هذا الفتح الجديد يعدّ مثالاً خالداً للطرق الارتجالية العشوائية التي سارت بها الفتوحات العربية . فقد كان عمرو بن العاص فاتح مصر أحد القادة القريشيين في حملات أبي بكر الأولى ، ثم جعله عمر تحت قيادة أبي عبيدة في جيش الشام . وكان عمرو يعرف مصر معرفة جيدة ، فقد زارها تاجراً عدة مرات قبل الاسلام .

وبعد الانتهاء من فتح جميع بلاد الشام كان عمرو معسكراً مع قوة صغيرة من

---

(٥) البلاذري ، ص ٢٥٦ .

الجيش في فلسطين. ولا تدع مصادر الأخبار لدينا شكاً في أن عمرو مضى الى مصر من تلقاء نفسه وعلى رأس ثلاثة آلاف وخمسماية رجل فقط [٦].

ولأن عمرو لم يكن رجلاً مندفعاً، بل كان على العكس من هذا مشهوراً بالحلم والأناة وطول الرويّة لذلك وجب أن ينظر الى تصرفه في هذا الخصوص على أنه التصرف الطبيعي لأي قائد عربي تجاه حكومته في المدينة. فهؤلاء القادة ذوو الآراء المستقلة والارادة الحرة لا يفكرون في تسلسل الأوامر القيادية الواجب صدورها من الخليفة الواجبة عليهم طاعته، بل على العكس من ذلك ينظرون الى أنفسهم على أنهم ليسوا أقل مركزاً وأهمية منه ولذلك فليس ما يمنعهم من العمل بما يهديهم اليه تفكيرهم دون الرجوع الى سلطة أعلى في المدينة.

ولا يعني هذا عدم الاحترام للخليفة أو الحط من مقامه أو الرغبة في كسب أمجاد شخصية لأنفسهم، إذ لم يكن لعمرو على من اتبعه وهم ثلاثة آلاف وخمسماية نفر لا غير، أية سلطة أو اجبار، ولكن هذه كانت الطريقة التي يمارسون بها سلطاتهم كقواد تجاه سلطات الخليفة في المدينة.

ولا بد أن عمراً قد قدّر هذه الأمور حقّ قدرها، لأن ردّة فعله تجاه حركة عمرو كانت إمداده بما لا يقلّ عن ثمانية آلاف رجل تحت قيادة قريشي بارز آخر هو الزبير بن العوام. وهنا يجب أن نلاحظ أن كلا الجيشين جيش ابن العاص وجيش ابن العوام لم يضمّا أحدا من أهل الردة مما يدل على أن أحداً من قبائل الردة لم يشترك في فتح مصر (١٩/ ٦٤٠) [٧].

* * *

ومن المهم أن نتوقف هنا وقفة هامة نتعرّف بها على تركيب الجيوش العربية المشتركة

---

(٦) البلاذري، ص ٢١٢ والطبري، ص ٢٥٨٤ وابن عبدالحكيم: فتوح مصر، طبعة نيوهافن ١٩٢٢، ص ٥٧ والكندي، كتاب الولاة والقضاة في مصر، ص٨.

(٧) أنظر ص ٦٨ من هذا الكتاب.

في هذه الفتوحات الأولى. وليس التعرّف الى هذا الأمر بالمهمة السهلة للطبيعة الاعتباطية التي كانت تسود جميع الجيوش وتجهيزها فيجب ألا ننسى بأننا نتكلم الآن عن شبه جزيرة العرب في القرن السابع للميلاد وقد خرجت للتوّ من فوضى حروب الردة لتجد نفسها محمولة على معالجة أوضاع مستجدّة على حدودها لا عهد لها بها من قبل.

وقد بذلت مصادرنا التاريخية جهداً واضحاً في محاولتها شرح تركيب هذه الجيوش، لكنها عند وصفها للجماعات المشتركة في هذه الجيوش كانت، مع الأسف، تستعمل مصطلحات وأسماء تزيد من غموض الحال بدل إيضاحه، فهذه المصطلحات التي أُوجدت آنذاك لوصف وتسمية حالات جديدة معينة سرعان ما بَطُلَ استعمالها أو اختفت من الوجود، عدا عن أن هذه المصطلحات نفسها كانت تختلف من مكان الى آخر تبعاً للأمجاد التي تريد تلك الجماعات إضفاءها على نفسها، وسبب هذا بالدرجة الأولى هو أن الاشتراك في الفتوح الأولى كان يتضمن امتيازات معينة ويعني التفوّق والبروز وهو ما صار بعد قليل مصدر الفرقة والنزاع بين العرب أنفسهم في البلاد المفتوحة. ولذا فمن المستحيل أن نفهم التطورات اللاحقة هناك دون أن نعرف العرب الموجودين هناك والأُسس التي تقوم عليها ادّعاءاتهم.

ومما يجب فهمه بداءةَ ذي بدء هو أن القبائل العربية التي أنجزت الفتوحات الأولى ظلت تعتبر البلاد التي فتحتها مُلكها الخاص لا يشاركها فيه أحد، ولم يفكروا قط أن هذه الفتوحات قد جرت باسم ملك أو خليفة. فهذا الفتح فتحهم وما يجدونه من مغانم وأسلاب فهي لهم وحدهم. يستحق رؤساؤهم، حسب تقليد قبلي قديم، ربع ما تغنم القبيلة. ومن حسن الحظ فان رئيس الاسلام يستحق الآن خُمسَ ما غنموا. وكانوا راغبين فيها كل الرغبة. وكانت الكميات الوفيرة والأسلاب التي غنمها المسلمون في هذه المرحلة من الكثرة بحيث ترضي الجميع وتتغلب على أي خلاف بينهم حولها. لكن الخلاف الجاد سرعان ما برز بعد ذلك بقليل بسبب عدم رضى القبائل الفاتحة الأولى بالتنازل بسهولة للقبائل التي التحقت بالفتوح مؤخراً عن شيء من هذه الغنائم التي كانت تعتبرها ملكاً خاصاً بها وحقاً خالصاً لها.

وفي نقاش مشكلة تكوين الجيوش العربية لا بدّ من أن نبحث أيضاً موضوعاً أوسع وهو أحوال البلاد المفتوحة وهي العراق وبلاد الشام ومصر وتنظيماتها. فان أحوال هذه

الأقطار قبل الفتوح وتأثير الفتوح عليها كانت تختلف في بعضها عن البعض الآخر فكان لكل قطر من هذه الأقطار مشاكله الخاصة. ولم يكن هناك حل واحد يمكن تطبيقه على الجميع. وهذه الخلافات خلقت مشاكل عويصة للمؤرخين، والقلّة من هؤلاء الذين حاولوا دراسة مفصلة للفتوحات خلطوا في حساباتهم بين الأحوال والحلول في هذه الأقطار الثلاثة[٨]. ومع الاعتراف بالحاجة الى المزيد من الدراسة والبحث في هذا الميدان فاننا يجب أن نقدم وصفاً لهذه الأوضاع، وإلا ففي غياب مثل هذا الوصف – تصبح أغلب القرارات التالية في الامبراطورية العربية أموراً غير قابلة للتفسير.

وسنبدأ الكلام أولاً عن مصر لأن مشاكلها التاريخية أسهل على الحل ولأن مصادرنا التاريخية أوضحت – على خلاف المعتاد – الكثير من القضايا ذات العلاقة بفتح العرب لها، ومنها معلومات مفصلة عن تركيب الجيش الفاتح.

ويتألف هذا الجيش أصلاً – كما علمنا من قبل – من ثلاثة آلاف وخمسماية نفر زحف بهم عمرو بن العاص من فلسطين الى مصر ثم انضاف اليهم ثمانية آلاف نفر أرسلهم عمر بن الخطاب مدداً من المدينة بقيادة الزبير بن العوام[٩]، والأمر الهام الملاحظ في تركيب كلا الفئتين هو خلوّهما من أهل الردة أولاً ووجود شخصيات مكية ومدنية بارزة فيهما ثانياً، حتى ان سعد ابن أبي وقاص بطل القادسية كان نفسه بين رجال جيش الزبير[١٠] كما كان في هذا الجيش عدد من بطون القبائل الحجازية ولكنهم كانوا يمثلون قبائل عدّة ولا يمكن نسبتهم الى قبيلة معينة ولذلك سمّوا «أهل الراية» أي الذين تظلّلهم راية واحدة على خلاف المعتاد حيث يحارب أفراد كل قبيلة تحت راية قبيلتهم إن كان هناك منهم عدد كاف[١١].

وفيما عدا هذا فغالبية جيش ابن العوام كان من بطون القبائل اليمنية، وحتى المهرة منهم، وكان هؤلاء قد دخلوا الاسلام بآخرة ولكنهم لم يشاركوا في حروب الردة، وقد

(٨) أنظر كوهين، الجزية، دائرة المعارف الاسلامية لعام ١٩٥٤.

(٩) ابن عبد الحكيم، فتوح مصر، ص ٦١.

(١٠) نفس المصدر، ص ٩٣ و١١٤–٥.

(١١) نفس المصدر، ص ١١٦–٧.

كان هؤلاء «المدديون» أقل من غيرهم مقاماً ولكنهم سرعان ما حققوا لأنفسهم المساواة في المقام مع رفاقهم الفاتحين[١٢] .

وكانت جماعة عمرو بن العاص تتألف من شتات غريب مثل هذا أيضاً ، فكان أفرادها من أبناء القبائل التي اشتركت في الحروب مع الروم منذ أيام أبي بكر ، ولذلك فإن ولاءهم للإسلام وسابق جهادهم له كانا محل الاعتبار والاحترام . ومع هذا فانهم يمثلون بطوناً صغيرة اشتركت في هذه الحملة الأولى وهي بطون من أقصى شمال الحجاز ممن كانوا يقطنون على حدود الصحراء السورية وكانت «بلى» من قضاعة اكثرها تمثيلاً .

وعلى العكس من هذا فاننا لا نجد في حملة عمرو على مصر أثراً لبني كلب ، وهم من قضاعة أيضاً ، وكانوا في الأصل يسكنون الصحراء السورية ثم اعتنقوا الاسلام بعد فتح فلسطين[١٣] .

وكان في جماعة عمرو أيضاً قبائل من المهاجرين الأوائل من اليمن ممن كانوا ضد المرتدين من بني قومهم . وكان أبرز مَن يمثّلهم قبيلة تُجيب بقيادة معاوية بن خديج الذي أضافت مواقفه البطولية في حرب فتح مصر الى حسن بلائه السابق مزيداً من المجد والشهرة[١٤] .

ومما له دلالة خاصة أيضاً أن بطناً آخر قريباً من تُجيب يعود الى قبيلة السكون ظل في سوريا وكون وحدة عسكرية متميزة في الجيش هناك . وغياب هؤلاء عن المعارك الأولى يشير الى وصولهم المتأخر الى ميدان القتال . وعلى هذا فقد نشأ في فلسطين – حيث كانت جماعة عمرو بن العاص قد استقرت هناك مدة أربع سنين – وضع خاص كان فيه رجال القبائل من البطون الصغيرة والذين أبلوا البلاء الحسن ، وحققوا بالفعل للاسلام انتصاراته الأولى ، قد ازدحموا بجماعات من قبائل اكبر وأقوى ولكنها أقلّ منهم بلاء في نصرة الاسلام .

ومن الطبيعي أن يخلق مثل هذا الوضع نوعاً من التوتر بين الجانبين . ولهذا فقد رأت

---

(١٢) نفس المصدر ، ص ١١٨–١١٩ و١٢٢–١٢٨ .
(١٣) نفس المصدر ، ص ١١٦–١١٩ .
(١٤) نفس المصدر ، ص ١٢٣ و١٤٣ .

الفئة الأضعف جانباً أن من الأنفع لها أن تزحف على مصر وتحاول فتحها حيث تستطيع آنذاك أن تنفرد وحدها بالبلد كله. وكان على عمر أن يقبل بحركتهم هذه ويؤيدها لأنه يعلم أن خسارة مثل هؤلاء النفر او فشلهم في تحقيق أهدافهم سيترك آثاره السيئة على نظام الحكم بأجمعه، ولهذا فلم يكن أمامه من خيار غير الإسراع بإمدادهم بالرجال، وفي مثل هذه الظروف فقد كان استبعاد أهل الردة من جيش الزبير بن العوام أمراً متعمداً.

وما ان تمّ فتح مصر حتى استقرت القبائل كلها في الفسطاط التي غدت المدينة الحامية الجديدة في مصر، وقد منح العرب قطع أراضٍ غير زراعية ليبنوا عليها دورهم. وكان موقع الفسطاط بين دلتا النيل المتشعبة وبين وادي نهر النيل موقعاً استراتيجياً مكّن العرب من السيطرة على كل أنحاء الأقاليم بسهولة.

وكان للعرب في مصر، الى جانب الفسطاط، مركزان عسكريان آخران فقط، هما الاسكندرية والخربيطة. فأما الاسكندرية وهي أول الموقعين وأخطرهما، فان الخطر الجاثم دوماً من هجمات أسطول الروم قد دفع العرب الى إنشاء قاعدة عسكرية بحرية في الاسكندرية تُدار بفصائل عسكرية ترسل اليها من الفسطاط وتغيّر مرتين في العام (١٥) أما ثاني المركزين العسكريين، خربيطة، فهي قرية صغيرة على حدود الصحراء الغربية للدلتا، وقد أنشأ العرب فيها قاعدة عسكرية لتصدّ أي هجوم محتمل من الروم عن طريق الصحراء الغربية (١٦).

وقد أُبعد العرب عن الريف المصري ولم يكن يسمح لرجال القبائل العربية بالخروج اليه إلا لرعي خيولهم وماشيتهم في فصل الربيع (١٧) وظل السكان المصريون يحتفظون بكامل ملكيتهم لأراضيهم وفي الحقيقة لم يحدث أي تغيير في تركيب ملكية الأرض في مصر.

وبطبيعة الحال فقد كانت في مصر قبيل الفتح العربي لها، جالية رومية كبيرة ولكن الروم على ما يبدو كانوا منصرفين الى العمل في التجارة مع بيزنطة اكثر من اهتمامهم

---

(١٥) نفس المصدر، ص ١٣٠ و١٩٢.

(١٦) نفس المصدر، ص ١٤٢ والكندي، الولاة والقضاة، ص ٢١.

(١٧) ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص ١٣٩-٤٢ و١٦٢.

بالزراعة والأرض. ولذلك ومع ان أعداداً كبيرة منهم تركت مصر عند انسحاب جيش الروم وأسطولهم منها، فلم تظهر هناك مشكلة حول ما تركوه خلفهم من أراضيهم عند انسحابهم من مصر، على خلاف الحال في العراق وبلاد الشام حيث ظهرت هذه المشكلة بشكل واضح وخطر. ويبدو من ظاهر الحال ان المشكلة الاقتصادية الوحيدة التي خلّفها رحيلهم من مصر هو قلّة العملة الذهبية التي حملوا اكثرها معهم[١٨].

وقد ظل النظام الاداري والوضع الاجتماعي في مصر كما كان عليه قبيل الفتح العربي خلا بعض تغييرات طفيفة في الأجهزة الادارية اقتصر معظمها على إحلال موظفين عرب في دواوين الحكومة محل الموظفين اليونانيين. وقد ظلت الكنيسة القبطية، كما كانت من قبل – على جانب كبير من القوة والنفوذ وكان الموظفون المحليون على جانب من الكفاءة والتعاون بحيث يمكن الاعتماد عليهم لتصريف الأمور اليومية.

أما عن الضرائب فقد كانت السياسة العامة عند العرب الفاتحين هو الحفاظ على النظم البيزنطية السائدة في البلاد، ولكن اختفاء العملة الذهبية المفاجئ أثّر كثيراً في تغيير هذه السياسة. فقد أدرك عمرو بن العاص، وقد أصبح الآن والي مصر، أن ازدهار الزراعة المصرية وبالتالي رخاء مصر، يعتمدان كلياً على الادامة الحسنة، والباهظة التكاليف في نفس الوقت، للشبكة الواسعة والدقيقة من قنوات الري وعلى وجوب اتخاذ اجراءات وقائية ضد فيضان النيل في كل سنة[١٩].

ومن جهة ثانية فقد اتضح جيداً لعمرو بأن الفلاحين غير قادرين على دفع الضرائب نقداً.

ولهذا وذاك كان لا بدّ من تعديل النظام البيزنطي وتحويره بما يضمن التغلب على هذه الأزمة الحادة وإن تكن مؤقتة.

وكان نظام الضرائب البيزنطي في الاقتصاد المصري الزراعي يقوم على دفع ضريبة معينة ثابتة عن الأرض نقداً، وكان مقدار هذه الضريبة يخضع الى تعديلات سنوية حسب الظروف المحلية وحسب تقدير موظفي الضرائب ورؤساء القرى المحليين.

(١٨) نفس المصدر، ص ٨٢ و٨٧.

(١٩) نفس المصدر، ص ١٦١.

وكان رؤساء هذه القرى في كل مقاطعة من مقاطعات الاقليم يجتمعون فيمَا بينهم مرة كل عام ليناقشوا ويقرّروا مقدار الضريبة الواجبة على كل قرية في عامها القابـل ، وكانت كل قرية تعتبر ، لأغراض دفع الضرائب وجمعها ، وحدة مستقلة بذاتها . وكان من مهمة رئيس القرية [العمدة] أن يوزع أعباء الضريبة المفروضة على الفدادين المزروعة فعلاً في قريته ، وأن يرى كل فلاح يدفع حصته منها نقداً حسب مساحة الأرض التي في حوزته .

وكان رؤساء القرى مسؤولين أيضاً عن تقدير الضريبة التي يدفعها التجار والعمال في قريتهم بنسبة قدراتهم المالية . وكان على الرئيس أيضاً تقدير الضرائب وجمعها بالنسبة لجالية القرية ، أي من جلا ونزح عن القرية من سكانها ولكنهم ما زالوا مسجلين فيها . وكان هؤلاء النازحون يعملون بصفة مؤقتة في الأشغال العامة وكان هذا هو الغالب ، أو انهم يفضلون العمل والإقامة الدائمة في بلد آخر غير بلدهم الأول — ولكنهم في كلتا الحالتين يتركون عوائلهم في حماية أهلهم وأقاربهم في قريتهم الأولى [٢٠] .

وبعد أن يجمع الرؤساء هذه الضرائب يستقطعون منها نسباً معينة للانفاق منها على إدامة كنيسة القرية والحمامات العامة والمعابر على نهر النيل ، ولربما دفعوا منها أيضاً نفقات الادارة المحلية وما تبقّى من وارد الضريبة ، بعد ذلك يرسل الى مركز المقاطعة الذي ترسله بدورها الى العاصمة الاسكندرية [٢١] .

وقد ترك عمرو أمر وضع الضرائب وجبايتها الى الموظفين المحليين فاستطاع بتعاونهم معه إدخال بعض التغيير الذي يؤمن لحكومته ما تحتاجه من المال . وقد أذن لجباة الضريبة أن يستوفوها من الفلاحين عيناً اذا تعذّر النقد ، وبأي شكل من أشكال المنتوج الزراعي ، كما أُعفيت الأراضي المزروعة بالبرسيم من الضريبة مقابل السماح للعرب برعي حيواناتهم فيها لفترة قصيرة من الوقت في فصل الربيع [٢٢] .

---

(٢٠) ليس من الصحيح إطلاق لفظ الجالية ، بمعنى «الهاربون» في مثل هذه الحالات لأنها تتضمن هروب الفلاحين من الأرض . أنظر كوهين ، «الجزية» . ومن الأصح أن ينظر الى هذه الحالات على أنها تهرّب من الضريبة بالنسبة للنازحين من قراهم المسجلين بها لأغراض الضريبة طلباً لأعمال اكثر ربحاً في مكان آخر ، ولهذا فإن ضرائبهم إما أن تنخفض الى حد كبير أو — وهو الأحسن — أن تلغى نهائياً . أنظر ، ابن عبدالحكم : ص ١٥٣ والمقريزي في الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٢١) أحسن المصادر في هذا الخصوص ابن عبدالحكم ، ص ١٥٢ – ١٥٣ . وعنه نقل المقريزي في الخطط ج ١ ف ١ ص ٣٢٣ – ٤ .

(٢٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٤١ و١٥٣ .

وكان الابتكار الهام الذي وفّر للخزينة ما هي بأمسّ الحاجة اليه من مال ، هو تغيير ضريبة الرأس ، التي كانت قد فُرضت على التجار أصلاً ولكن جبايتها أُهملت ، أما الآن فقد زيد مقدارها وضُبطت جبايتها ضبطاً جيداً.

ومن الواضح جداً أن أحداً من المصريين – حتى هذه الفترة – لم يعتنق الاسلام بعد ، فاستغلّ عمرو هذا الوضع وأصدر قراراً يقضي بأن يدفع جميع غير المسلمين – مع استثناءات بسيطة محسوبة بدقة – ضريبة رأس قدرها ديناران في العام عن كل نفر. وهذا يعني شمول الضريبة للتجار كافة في القرى ولغالب أهل المدن وخاصة مدينة الاسكندرية والمدن الأخرى على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

ويجب الاعتراف بأن مبلغ الدينارين كان مبلغاً كبيراً في حساب ذلك الزمان ، ولكن الاعفاء من هذه الضريبة لم يكن صعب المنال. فقد كان الدفع يقتصر على الذكور القادرين على العمل ، وبهذا فقد أعفي من الأساس رجال الدين والنساء والكهول والعجزة والفقراء ، وكذلك فان هذه الضريبة لا تشمل – بطبيعة الحال – الفلاحين الذين يخضعون لضريبة الأرض (٢٣).

ومن المحتمل أن يكون هذا التعديل الضرائبي قد تمّ على مراحل ، وعملاً بنصائح الزعماء المصريين ، ويبدو أن غالبية السكان كانت ظاهرة الارتياح الى هذه الاجراءات بدليل أننا لم نسمع بأي اعتراض أو مقاومة لها.

ويبدو أن رجال القبائل العربية كانوا راضين عنها أيضاً وإن لم يقبضوا منها إلا القليل من النقد فرؤساؤهم كانوا يتقاضون عطاءات قدرها ٢٠٠ دينار في العام (٢٤) وكانت المواد الغذائية والملابس توزع على الجميع (٢٥) . وليس لدينا من الاخبار ما يُنبئ بأنهم كانوا يتقاضون رواتب أو اعطيات معينة في هذه المرحلة ، وإنما تشير الأخبار الى ما قد

---

(٢٣) نفس المصدر ، ص ٧٠ والمقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٢٤ و٣٣١ ، وج ٢ ، ص ٦١. والبلاذري ، الفتوح ، ص ٢١٨.

(٢٤) ابن عبد الحكيم ، ص ١٤٥.

(٢٥) نفس المصدر ، ص ١٥٢ و ١٩٢ . وكان الطعام الموزع من الوفرة بحيث يغني عن المدفوعات النقدية وكان يطلق عليه لفظ الأرزاق.

حدث من هذا القبيل بعد ذلك أيام الأمويين. وقد طلب عمر أن يرسل الى المدينة شيء مما يقبض من الطعام أي القمح [٢٦] . وبهذا أصبحت مصر، ولفترةٍ ما خزين القمح للحجاز كما كانت ذلك لبيزنطية أيام البيزنطيين.

* * *

أما سوريا فقد كانت مثل مصر جزء من الامبراطورية البيزنطية إلا أن الأوضاع فيها كانت تختلف عن الأوضاع في مصر، كما كان تركيب الجيش العربي الذي فتح بلاد الشام لا يخلو من تعقيد.

فنحن نذكر أن أول جيش أُرسل الى فلسطين أيام أبي بكر عام (١٣ /٦٣٤) كان مكوّناً من القبائل العربية التي صمدت في نصرة حكومة أهل المدينة ضد ثورات أهل الردة. وكان اختيار هؤلاء لهذه الحملة المعينة مظهراً من مظاهر تكريمهم ومكافأتهم على إيمانهم وصمودهم.

وكان لباب هذا الجيش مكوّناً من سبعة آلاف نفر من أهل مكة والمدينة والطائف وما يجاورها من بطون قيس في الحجاز مثل عبس وسليم [٢٧] وكان معهم رجال من قبائل شمال غربي بلاد العرب ذات الأصل اليمَاني القديم، مثل بلي التي كانت تحت قيادة عمرو بن العاص.

أما جمهور الجيش ومجموعه عشرون ألف نفر فكان من قبائل اليمن الذي ظلت مخلصة للمدينة أيام محنة الردة [٢٨] .

وكان هؤلاء هم أبطال اجنادين وفاتحو فلسطين وقد استطاعوا خلال السنوات الثلاث التاليات أن يتوغلوا في أعماق البلاد السورية حتى التقوا أخيراً مع الروم في معركة اليرموك الحاسمة ١٦ /٦٣٧ حيث أحرزوا فيها النصر المبين ضد الروم.

---

(٢٦) نفس المصدر، ص ١٥٨ – ١٦٥. والبلاذري، ص ٢١٦.

(٢٧) الطبري، ص ٢٠٧٩ و٢٠٨٣ – ٤. ونبلاذري، ص ١٧٢.

(٢٨) الطبري، ص ٢٠٨٢ – ٧.

وقد كانت هذه المعركة نقطة التحوّل في الفتوح العربية وفي استيطان العرب في بلاد الشام ذلك أن الروم قرروا الجلاء التام عن كل بلاد الشام وقد اصطحبوا معهم في انسحابهم أعداداً كبيرة من سكان البلاد. وكان بعض هؤلاء من عرب أهل الشام (٢٩) أما الغالبية من السكان العرب الذين قرروا البقاء في بلادهم فقد آثروا اعتناق الاسلام وبالتالي أن ينضموا الى جيش العرب (٣٠) وهذه القبائل وإن دانت بالاسلام متأخرة فانها لم تشترك بحروب الردة وكان أبرزها بطون بني كلب.

ومع أن عمر بن الخطاب أذِنَ بانضمام القبائل المرتدّة الى الجيش العربي في جبهة الشام فاننا لم نسمع بذكرهم في جيش الشام عدا جماعة منهم تتكون من ٧٠٠ نفر كانت تحت قيادة قيس بن المكشوح المرادي. وقد نقلت هذه الجماعة بعد معركة اليرموك الى العراق فقدمته وأخذت مواقعها في اللحظة الأخيرة في معركة القادسية (٣١).

وبسفر هذه الجماعة من سوريا خلت بلاد الشام من أهل الردة ولم ينتقل اليها أحد منهم بعد ذلك. وربما كانت هذه خطة موضوعة لإبقاء بلاد الشام بعيدة وفي منجاة من أي مصدر من مصادر المتاعب. وفي الحقيقة فلا بدّ أن هناك مشاكل خطيرة قد برزت بين العرب هناك، ولو أن مصادرنا لا تقدّم لنا صورة متكاملة عنها. ولكن عمر بن الخطاب إدراكاً منه لخطورة هذه المشاكل فقد قدم الشام بنفسه، وبالتأكيد في نهاية عام ٦٣٨/١٧ ليساعد على حل هذه المشاكل (٣٢).

وكانت الخطة الأساسية لاستيطان العرب في سوريا هي بناء مدينة حامية في الجابية في مرتفعات الجولان ليسيطروا منها على الاقليم كافة (٣٣).

لكن الأحوال بعد معركة اليرموك دفعت الى تغيير هذه الخطة تغييراً جذرياً ذلك أن مساحة الأرض المسكونة في سوريا أكبر من مثيلتها في وادي النيل، عدا عن أن بلاد

---

(٢٩) البلاذري، ص ١٣٦.
(٣٠) نفس المصدر، ص ١٤٥ و ١٥٠ والطبري، ص ٢٠٨١.
(٣١) البلاذري، ص ٢٥٦، والطبري، ص ٣٥٠.
(٣٢) البلاذري، ص ١٣٦.
(٣٣) نفس المصدر، ص ١٣٩ و ١٥١.

الشام بحكم موقعها اكثر عرضة لغزو الروم براً من الشمال وبحراً من السواحل السورية الطويلة.

ومن الناحية العسكرية الصرفة كان من الضروري إنشاء مراكز دفاعية رئيسية على كلتا الجبهتين البرية والبحرية. وكان ثمة عامل مهم آخر له أثره في الوضع وهو أن اليونانيين والعرب الذين لحقوا بالروم عند انسحابهم من بلاد الشام تركوا بعض المدن والكثير من الأراضي الزراعية خالية تغري بالاستيلاء عليها كل طلعة وعابر سبيل.

وكان أول من أقدم على استغلال هذه الضياع الخالية هم عرب أهل الشام(٣٤) فانهم وقد اعتنقوا الاسلام رأوا أن العرب الفاتحين قد اختاروا المقام في الجابية فلم يروا ما يدعوهم الى فقدان هذه الفرصة وعدم استغلال هذا المال المباح.

ولكن إقدام عرب أهل الشام على مثل هذا العمل يحرم العرب الفاتحين من ثمرة فتوحاتهم، ولأن عرب الشام اكثر عدداً من إخوانهم المسلمين الفاتحين، فقد أصبح الوضع في غاية الدقة والحرج ويتطلب في معالجته كل اللباقة والدهاء. ولهذا السبب بالذات ذهب عمر الى الشام لكي يحكم أو يقنع أو يحاول أن يساعد في إيجاد مخرجٍ ما من هذا المأزق.

ومن جهة ثانية فان استمرار وجود خطر هجوم بيزنطي على بلاد الشام يضطر العرب هناك أن يكونوا دوماً على أُهبة الاستعداد لدرء هذا الخطر، ولذا فيجب أن يكونوا على أتمّ صورة من صوَر الإلفة والوفاق فيما بينهم، وإلا فإن أي خلاف بينهم يؤدي بهم الى أسوأ الكوارث وأفجعها.

ومن جهة أخرى فقد كان النزوح من بلاد الشام لغرض اللحاق بالجيش البيزنطي المدحور كبيراً أيضاً، الأمر الذي يستدعي تنظيم إعادة توزيع هذه الديار الخوالي بما يعود بالفائدة على الجميع وبما يضمن ازدهار الحياة التجارية في المدن والحياة الزراعية في الأرياف. ولهذا وذاك فقد كان القرار النهائي الذي أيّده عمر هو ان يُعاد توزيع جميع

---

(٣٤) نفس المصدر، ص ١١٣ و١١٦ و١٢٢ و١٢٦ و١٣٨ و١٣٩ و١٤٢ و١٤٤ و١٥٠ و١٥١ و١٥٢. والطبري، ص ٢١٥٩ و٢٣٩٢.

الدور والضياع الخالية بين المسلمين العرب السوريين الاصليين منهم والفاتحين القادمين على حد سواء.

وعلى هذا قُسِّمَ إقليم الشام الى أربع مقاطعات عسكرية تسمى كل مقاطعة منها «جند» على غرار التقسيمَات البيزنطية القديمة. وكانت هذه المقاطعات الأربع هي حمص ودمشق والأردن وفلسطين وقد توزعت فيها القبائل العربية المنحدرة من أصول متقاربة وسكنت هذه البقاع وسُمح لها بحرية العمل التجاري في حدود مناطقهم مقابل التعهّد بالدفاع عنها وعن الاقليم كله ضد غارات العدو(٣٥).

ويبدو أن هذا الحل لم ينل الرضا التام من الجميع وخاصة منهم العرب الفاتحون إذ سرعان ما أحست بعض القبائل العربية الفاتحة بنوع من الاهمال والمزاحمة فأخذت المبادرة وقررت من تلقاء نفسها الزحف لفتح مصر.

وضاقت جماعات أخرى من الفاتحين بالاستيطان ذرعاً فخُيِّرت أو كوفئت بفتوح جديدة في بلاد أخرى. وكانت هذه الجماعات هي عماد الجيش الفاتح المكوّن من سبعة آلاف نفر من أهل مكة والمدينة والطائف ومَن جاورهم من بطون قيس في الحجاز، والذين كوفئوا أو عُهِد اليهم بمهمة الفتح العسير للبلاد الشاسعة والغنية، بلاد الجزيرة وما بين النهرين والذين سرعان ما استولوا عليها وحكموها كإقليم مستقل(٣٦) وحموا بذلك الجناح الأيمن من بلاد الشام من أي هجوم بيزنطي محتمل.

وقد عملت هذه الترتيبات على إشاعة الأمن والوفاق بين العرب في سوريا وجرى بعدها الاستيطان بهدوء فمنح أفراد بعض القبائل اليمَانية الفاتحة وكانت تبلغ العشرين ألف شخص عدداً، الدور والضياع في دمشق وفي حمص حيث استقرّ غالبها وحيث أُتيحت لهم فرص العمل التجاري وإقامة خط دفاع على الجبهة الشمالية.

وكان المتّفق عليه أن القيادة في حمص هي للسمط بن أسود الكندي ومن بعده ابنه شرحبيل وكانا من اليمَانيين الذين نصروا الاسلام وآزروه أثناء حروب الردة في

---

(٣٥) البلاذري، ص ٢٩ و١٥١. الطبري، ص ٢٣٤٧–٨ و٢٤٠٣ و٢٤٠٧ و٢٥٢١ و٢٥٢٣. وابن عساكر في تاريخ دمشق، طبعة صلاح المنجد، دمشق، ١٩٥١، ص ٣٥٣ و٣٥٦.

(٣٦) البلاذري، ص ١٧٢–٧. والطبري، ص ٢٣٠٧.

اليمن [٣٧] . وأعطى العرب من أهل الشام أراضي على طول الساحل الخصيب حيث برزوا في الدفاع عنها ضد هجمات الروم البحرية [٣٨] .

وقد جمعت بين هاتين المجموعتين القويتين في سوريا المصلحة المشتركة وهي الحفاظ على هذه الترتيبات المرضية لها وقد عُرفوا باسم جامع هو «اليمانية» بسبب كونهم قادمين من اليمن أصلاً ولأنهم فوق هذا يدّعون الانتساب الى أصل يماني ولكن صلة النسب الضعيفة هذه كانت أقل العناصر أهمية في وفاقهم الجديد.

وقد اضطلع بنو أبي سفيان وخاصة منهم معاوية بتبعة الحفاظ على هذا الوفاق ، وكما نعرف جيداً فقد كانت لأبي سفيان تجارة واسعة مع الشام في الجاهلية وكانت له ضيعة قرب دمشق ، وكان ابنه يزيد من القادة الأوائل الذين أرسلهم أبو بكر الى الحرب في فلسطين ، ولما توفي أبو عبيدة عام ١٨ /٦٣٩ خلفه يزيد على ولاية الشام وعند وفاته عام ٢٠ /٦٤١ عيّن أخوه معاوية والياً على الشام وظلّ فيها طيلة العشرين سنة التالية.

وكان حجر الزاوية في سياسة معاوية هو استمرار الاستقرار والهدوء في جميع ربوع البلاد بالحفاظ على ترتيبات الاستيطان فيه. وكان هذا الاستقرار ضرورياً جداً للبلاد لتمكينها من الدفاع عن نفسها ضد خطر الروم الذي لا يمكن الغفلة عنه.

وعلى هذا فلم يكن معاوية ليسمح بقيام ما يعكّر صفو الوفاق بين العرب في سوريا أو ما يصرفهم عن مهمتهم الأولى وهي الدفاع عن بلادهم ضد خطر الأعداء.

ولكي يستطيع معاوية السير بسياسته هذه فقد عمد الى الحصول شيئاً فشيئاً على ما أصبح في النهاية سيطرته التامة على القادمين الى سوريا ، فبعد مرحلة الاستيطان الأولى ، استطاع بلباقة أن ينتفع من سلطته والياً على المقاطعة ليحدّ من تدفّق هجرة القبائل العربية ذات الصلة بالبطون الموجودة في بلاد الشام من قبل [٣٩] . وكان من حسن حظه أن خطته هذه اتفقت الى حدٍّ ما مع سياسة المدينة في إبعاد أهل الردة عن بلاد الشام ، وكانت نتيجة هذا وذاك نجاة هذا الاقليم من الاضطرابات والخصومات التي سببها استمرار تدفّق الهجرات في الأقاليم الأخرى.

---

(٣٧) البلاذري ، ص ١٢٢ و ١٣١ . والطبري . ص ٢٢٥٠ ، وابن عساكر ، ج ١ ، ص ٥٩١.

(٣٨) البلاذري ، ص ١٢٨ و ١٣٣ و ١٤٤ و ١٥٠ فتوح ،

(٣٩) الاصفهاني أبو الفرج ، كتاب الأغاني ، طبعة القاهرة ، ج ١٨ ، ص ٦٩ — ٧٠.

أما التنظيمَات المالية في سوريا فقد كان النظام المالي الذي أسسه العرب فيها بسيطاً مثل نظامهم في الاستيطان هناك ويمتّ اليه بصلة. فالمسلمون يدفعون الاعشار عما بحوزتهم من الأرض [٤٠] في حين يستمر غير المسلمين على دفع الرسوم التي كانوا يدفعونها أيام الرومان. ولهذا السبب فقد ظل موظفو الضرائب السابقون في مراكزهم ليخدموا العهد الاسلامي الجديد.

ومع اننا غير واثقين من عدة نقاط في نظام الضرائب البيزنطي في سوريا. فالظاهر أن هناك ثنائية بين ضريبة الأرض وضريبة الرأس على أشكال مختلفة وعلى مستوى دافعي الضريبة من الفلاحين، في حين أن المدن السورية من الجانب الآخر يسودها كلها نظام موحّد [٤١].

وكان العرب يأخذون من الفلاحين ديناراً واحداً وجريباً من الحنطة على كل رأس، ولربما كانت بنسبة الأرض التي بحوزتهم. أما بالنسبة لغير المسلمين من سكان المدن فقد استمرّ العرب على جمع ما كان يسمى «الجزية» وهي ضريبة على الرأس وكان مقدارها ديناراً أو اثنين أو أربعة نسبة الى ثراء دافع الضريبة. وكان الحصول على الاعفاء منها أمراً سهلاً للغاية [٤٢].

ولا يبدو في هذه المرحلة المبكرة، ان نظام توزيع العطاءات قد أُسس بعد [٤٣] وان كان هناك بعض الرؤساء الذين اعتادوا على استلام رواتب معينة قد تبلغ المائتي درهم في العام. وما عدا النفقات الادارية، والتي لم تكن بطبيعة الحال كثيرة – فان إيراد الرسوم كان يستعمل في تحصين السواحل وللاستعداد للغزو في البحر [٤٤].

وكان القمح الناتج من سوريا يوزّع على العرب المستقرّين في المدن والذين لم يعطوا أرضاً للزراعة قط [٤٥].

---

(٤٠) البلاذري، الفتوح، ص ١٥١ و١٥٢ و١٧٣ و١٧٧ و١٨٠. وابن سلام، أبو عيسى القاسم، في كتاب الاموال، ص ٥٠٠.

(٤١) كوهين «الجزية».

(٤٢) البلاذري، الفتوح، ص ١٢٤.

(٤٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٥٦.

(٤٤) البلاذري، الفتوح، ص ١٢٨.

(٤٥) البلاذري، الفتوح ص ١٢٤ و١٢٥ و١٥٢.

أما من استوطن الأرياف منهم فكانوا يكتفون بما تنتجهم أراضيهم. وأخيراً فان مما يجب أن يذكر هنا أن سوريا لم تكن ترسل شيئاً من وارداتها الى المدينة ما عدا الخُمْس المعتاد من الغنائم.

* * *

ومن بين الأقاليم الثلاثة يطرح اقليم العراق أمام الباحثين أهم المشاكل التاريخية وأكثرها تعقيداً. فكما كان العراق مسرح اختلافات مريرة فريدة فكذلك كانت مصادر الاخبار عنه ظاهرة التحيّز ميّالة الى المبالغة في تعقيد وارباك صورة وضع معقّد ومرتبك بحدّ ذاته.

وقد حذى المؤرخون المعاصرون حذو مصادر بحثهم فزادوا في الإبهام والغموض. واذ عجزوا عن تفسير وفهم مواد البحث فقد عمدوا الى تطبيق تفسيرات فقهية متأخرة تاريخ الظهور على أحوال الفترات الأولى ونتيجة لعجزهم عن دراسة ظروف فتح هذا الاقليم دراسة منهجية منسّقة فقد طبّقوا هذه التفسيرات الفقهية القاصرة على غير المناطق الصحيحة (٤٦).

واننا لنرجو أن يساعد تفسيرنا التالي – على الأقل – على توضيح الغموض وإزالة الارتباك وان يحفز الباحثين الى مزيد من الدراسة والاستقصاء.

كان تكوين الجيش العربي الذي فتح العراق هو العامل الأكبر في الاضطرابات العنيفة التي ظلّ هذا القطر يعانيها لمدة طويلة بعد فتحه. وتتضح رغبة مصادرنا في توكيد هذه النقطة من اعتنائها الدقيق في اختيار التسميات لمختلف الجماعات التي اشتركت بالفتح ثم استقرت بعده في العراق نهائياً.

فاننا لنذكر أن الغزوات الأولى على الأرض الساسانية ابتدأت بها أيام أبي بكر القبائل العربية الساكنة في شرق شبه الجزيرة العربية، وكانت غالبيتهم من بني شيبان.

---

(٤٦) إيف لاكيغراد، الضرائب الاسلامية في العصر الأول، كوبنهاغن ١٩٥٠ ودي. سي. دينيت، الدخول في الاسلام والضرائب في العصر الأول، كامبرج ١٩٥٠.

ومما يذكر لهذه القبائل بالفضل انها لم تشترك في حروب أهل الردة. ولذلك يشار اليها في مصادرنا – عن جدارة واستحقاق – بأهل البلاء تقديراً لشجاعتهم وحسن بلائهم ضد الساسانيين (٤٧).

ولما اشترك خالد في هذه الحملات على العراق كان أغلب رجاله – عدا مَن ظلّ معه من أهل مكة والمدينة – من بطون ليست على جانب كبير من الأهمية (٤٨)، لكن هذا الواقع لم يكن ليقلّل شيئاً من دورهم البارز في الحروب فقد كانوا أبطال موقعة عقرباء والمعارك الأخرى ضد المرتدين وكان ايمانهم بالاسلام وتفانيهم في سبيله فوق كل شك أو شبهة، وقد أضفى تغلغلهم في الأراضي الساسانية على غزواتهم هذه صفة النصر العسكري البارز.

ومهما يكن هذا النصر العسكري طفيفاً. فقد كان ضرورياً ومهماً في سير الفتوحات الكبرى التالية له. وقد خدمت المعارك التي خاضها هؤلاء الرجال وانتصروا فيها، الاسلام اكبر خدمة وكانت الدليل القاطع على صدق ايمانهم به.

أما أهل مكة والمدينة الذين كانوا معهم فقد تميزوا بأسماء المهاجرين والانصار أو على الغالب ببني قريش، أما غير هؤلاء من القبائل التي لا يمكن تمييزها فقد عرفوا بأهل الأيام، والأيام هنا تعني المعارك أي ابطال المعارك (٤٩).

لكن الحملات ضد الفرس لم تبلغ ذروتها إلا بعد أن سمح عمر بن الخطاب لجموع أهل الردة بالالتحاق بالجيش العربي. وكان بلاؤهم البارز في معركة القادسية ١٦ /٦٣٧ موضع التقدير والاعجاب. ومنذ يوم القادسية هذا سقط عنهم لقب أهل الردة المهين وصاروا يعرفون باسم أهل القوادس وهو وصف عام يُطلق على كل من شارك في قتال الفرس في معركة القادسية من القبائل العربية مرتدّة وغير مرتدّة على حد سواء (٥٠).

وعلى نفس الغرار اطلق لفظ الرديفة على كل من جاء العراق بعد القادسية (٥١)،

---

(٤٧) الطبري، ص ٢٠٢٨ و٢٤١٥، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٧٥–٦.

(٤٨) الطبري، ص ١٨٨٧، ١٩٠٥، ١٩١١، ١٩٣٠، ٢٠٢١، ٢٠٢٨.

(٤٩) الطبري، ص ٢١١٠، ٢٢٠١، ٢٨٥٣، ٢٩٠٧.

(٥٠) الطبري، ٢١٦٥ و٢١٨٣ و٢٢١٧–٢٢ و٢٦٣٣، ٢٨٥٢–٣ و٢٩٠٧.

(٥١) الطبري، ٢٤١٣ و٢٤٩٦ و٢٨٣٥.

وان صنف هؤلاء القادمون حسب تواريخ وصولهم فكانت هناك الرديفة الأولى والثانية والثالثة وهلُمَّ جرا. ولم تكن هذه النعوت مجرد تسميات جوفاء اختُرعت للوصف أو الادعاء، وإنما هي نعوت ذات معان ودلالات وُضعت في حينها لأغراض معينة هي تعيين دور كل جماعة ومقدار بلائها وما أدّته حقاً وبالضبط من خدمة للقضية العامة ليتقرر على ضوء هذا وذاك مقدار مكافأتها.

وكما رأينا من قبل فقد تعمّد أبو بكر إقصاء القبائل المرتدّة عن الغزوات وحرمانها بالتالي من مغانم وفيرة المقدار سهلة النوال. ولما أذن لهم عمر بالاشتراك في حروب العراق لم يكن في ذهنه أبداً أن يعاملهم على قدم المساواة مع القبائل الأخرى التي سبقتهم الى الحروب والتي لم يشب إيمانها بالاسلام شائبة. وكانت السياسة التي انتواها عمر هي أن يستنفر هؤلاء المرتدين النادمين وينتفع بهم جنوداً في جيشه ودون أن يولي أحداً من رؤسائهم وظيفة ذات مسؤولية في الجيش أو في ادارة البلاد المحتلة [٥٢]. وبعبارة أخرى فان تأثيرهم على اتخاذ القرارات في البلاد المحتلة يكون على أقل ما يمكن وخاصة وانهم سيكونون هناك تحت قيادة زعماء من قبائل أخرى لا تنظر اليهم بعين الودّ.

ومن الطبيعي أن يتجلى عدم مساواتهم مع الآخرين عند قسمة مغانم الفتوح، وكما سنشرح ذلك حالاً، فقد كانت قبائل أهل الردة تعطى حصصاً أقل من حصص القبائل الأخرى غير المرتدة.

أما بالنسبة للرديفة وغالبيتهم من قبائل الردة فان هذه التفرقة كانت من القوة والوضوح بحيث كادت أن تؤدي الى نشوب مشاكل شائكة. ولكي تفهم طبيعة هذه المشاكل فان على المرء أن يأخذ بنظر الاعتبار ظروف الفتح وطريقة معاملة السكان المحليين والنظم الادارية لدى العرب الفاتحين ثم طبيعة علاقتهم مع المدينة.

ترك الانهيار الكامل والنهائي للامبراطورية الساسانية في العراق عام ١٦ /٦٣٧ للعرب كامل السيطرة على أكثر بقاع الامبراطورية خصباً وغنى واكثفها سكاناً. وتُعرف هذه البلاد في مصادرنا باسم السواد وهي تمتد من رأس الخليج العربي في الجنوب حتى الموصل في الشمال ومن الصحراء السورية العراقية في الغرب الى حلوان في الشرق.

(٥٢) الطبري، ص ٢٢٢٥ و٢٢٢٧.

وقد كان حظ العرب في بلاد الشام حسناً اذ هرب اكثر سكان البلاد مع الروم المنهزمين وتركوا دورهم وأراضيهم خلاء فسكنها المسلمون وتوزعوها فيمَا بينهم.

ولكن هذه المسألة لم تحلّ بالعراق بهذه السهولة. فما لا شك فيه أن ملك الفرس وحاشيته وقواده وغيرهم قد فرّوا جميعاً باتجاه بلاد فارس على أمل العودة للعراق واستعادة ملكهم فيه من أيدي العرب، لكن الغالبية الساحقة من سكان البلاد وزعمائها آثروا البقاء في أماكنهم ولم يغادروها، وكان على العرب الفاتحين أن يبتّوا في مصير هؤلاء أشخاصاً وأملاكاً.

وقد يُقال بوجوب الاستدلال بأحكام الشريعة في قسمة غنائم الحروب في هذا الخصوص، لكن هذه الاحكام لا تفي مع الأسف بالمرام، ففي ما عدا ما نصت عليه من وجوب دفع الخمس الى حكومة المدينة فان القرآن والسنّة لا يقدّمان حلولاً ثابتة لطريقة تقسيم الغنائم في هذه الظروف الجديدة غير المتوقّعة. والصعوبة العظمى في هذا الموضوع هي في تحديد غنائم الحرب وما اذا كانت تقتصر على ما يغنم في ساحات القتال أم يتعداها ليشمل الاشخاص والاملاك في جميع البلاد المفتوحة ومهما اختلفت الظروف.

وقد كان العرف الجاري عند العرب الفاتحين أن يعتبروا كل البلاد المفتوحة ملكاً خالصاً للفاتحين أنفسهم. ولم يكن التمييز بين الغنيمة والفيءْ قد ظهر للوجود بعد وإنما حدث ذلك في وقت متأخر. والغنيمة في هذه التفرقة الجديدة تعني كل ما يغنم في ساحة الحرب أما الفيءْ فكل ما يغنم عداها. والواقع أن الموضوع حسم عملياً. فالفرس الذين اعتنقوا الاسلام لم يعودوا يكوّنون مشكلة ما. وقد دخل الاسلام عدد كبير من أفراد الجيش الفارسي وانضموا الى الجيش العربي وقوبلوا فيه بالترحاب وأجزل لهم فيه بالعطاء[٥٣] كما دخل الاسلام بعض الدهاقين، وهم زعماء الفرس ونبلاؤهم وسمح لهم بالاحتفاظ بأملاكهم. وفيمَا عدا هذا فقد ظلت الصعوبة العظمى هي في أمر الأغلبية الساحقة ممن لم يدخلوا الاسلام.

وكان هؤلاء وذراريهم يسبون في أول الأمر وقد يرسلون الى المدينة كجزء من حصتها في خمس الأسلاب[٥٤] وقد حدث أن قبيلة باجلة استلمت بعض السبي كجزء من

(٥٣) البلاذري، الفتوح، ص ٣٧٣–٤ والطبري، ص ٢٤٩٩ و٢٥٦٣.

(٥٤) الطبري، ص ٢٠٢٦ و٢٠٢٨ و٢٠٣١ و٢٠٣٦ و٢٠٣٧ و٢٢٨٩.

ربعها في خمس الغنائم ثم سُئلوا أن يتنازلوا عن ذلك ويردوا السبي لتجنيده على الجبهة الساسانية من جديد، وأجازوهم عن ذلك بثمانين ديناراً عن الشخص الواحد، وباربعمائة دينار في رواية أخرى مقابل التنازل عن حقهم هذا وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن هذا الربع إنما هو ربع الأرض.

ويجب الاعتراف بأن مصادرنا كثيراً ما تقول «ربع السواد»(٥٥).

ولكن هذا خطأ فادح طالما أن الروايات المعنية تشير بوضوح الى الناس لا الى الأرض(٥٦) ويجب أن يفهم لفظ السواد هنا على أنه أهل السواد.

ولم تكن فكرة سبي أو استرقاق شعب كامل بالأمر الممكن عملاً، فليس لهذا العدد الكبير من السبي كبير نفع للعرب عدا عن أن الفاتحين هنا شأنهم شأن اخوانهم في مصر، سرعان ما أدركوا أهمية الاقتصاد الزراعي كمصدر من مصادر الإيراد من مصلحتهم حفظه وانعاشه ولأن العرب كانوا قلة نسبة الى عدد سكان أهل البلاد فقد أملت عليهم الضرورات الاقتصادية إبقاء أبناء البلاد المفتوحة أحراراً لينهضوا بزراعة الأرض.

والأهم من هذا، ومن الناحية التاريخية الصرفة – فان نصيب الأرض من القسمة لم يكن بأكثر من نصيب الناس منها، وهذه النقطة أساسية في التفسير. فالرواة والفقهاء والمؤرخون والباحثون المعاصرون اختلفوا فيما بينهم كثيراً حول طريقة توزيع الأرض وايرادها في العراق حيث كان الوضع على أشدّه من الارتباك والغموض.

ويعود بعض أسباب الصعوبة في هذا الأمر الى المحاولات للتفرقة بين الخراج وهو ضريبة الأرض، والجزية وهي ضريبة الرأس. ففي هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الفقه الاسلامي كان تعريف هذين المصطلحين يختلفان من مكان الى آخر ومن وقت الى آخر، ولكنهما يعنيان الضريبة والرسم بصفة عامة.

وتعود بقية أسباب الصعوبة في هذا الأمر الى الاتجاه الى اعتبار الاجراءات الأولية للفاتحين الأوائل على أنها مبنية على قواعد فقهية مضبوطة. وبالتالي محاولة تفسيرها على

---

(٥٥) الطبري، ص ٢١٩٧–٨. والبلاذري، الفتوح، ص ٢٧٦–٨.

(٥٦) البلاذري. الفتوح، ص ٢٦٦ و٢٦٨، والطبري، ص ٢٣٦٩–٧٥، وابن سلام، كتاب الأموال، ص ٥٩، وأبو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٦ و ٢١.

أُسس من هذه المبادئ الفقهية التي ظهرت مؤخراً والتي لم تكن الجماعة قد عرفتها بعد وهي محاولة خاطئة مربكة. ذلك لأن الاجراءات الأولية كانت تتخذ على أُسس اعتباطية وبطرق عفوية ولمواجهة حالات مستجدّة طارئة.

والنقطة الهامة في هذا كله أن الأرض بقيت في يد أصحابها الأولين من أهل البلاد المفتوحة على أن يدفعوا عنها الرسوم المطلوبة في حين كانت حصيلة هذه الرسوم تُوزع بين الفاتحين. لم يكن مبدع هذه السابقة أحداً غير خالد بن الوليد نفسه، ففي حملاته الأولى استسلمت له ثلاث أو أربع بلدان صغيرة دون قتال، وصالح خالد أهلها على الاحتفاظ بأرواحهم وأملاكهم مقابل مبلغ قليل من المال يدفعونه للجيش الفاتح. وكان خالد «بعد أن يستخرج خُمس هذا المال ويرسله الى المدينة يوزع باقيه بين جنده»[٥٧].

وقد تمسّك أهل هذه البلدان بعد إتمام فتح العراق بعهود الصلح هذه واستمروا يدفعون للفاتحين المبالغ القليلة التي فرضتها عليهم هذه العهود. وكانت هذه الحال احدى عدة أحوال فريدة شاذة طبقت في العراق.

ومع هذا كان لهذه السابقة – على ضيق نطاقها وصغر شمولها – أهمية بالغة من حيث انها أصبحت نموذجاً لتوزيع الدخل في العراق. فاتباعاً لهذه السابقة غير المقصودة، كان اكثر الدخل الناجم في العراق يعامل معاملة الغنيمة فيستخلص خمسه ويرسل الى المدينة ويوزع باقيه بين جنود الجيش الفاتح.

وكان الدخل في العراق يتكون من موردين أساسيين أولهما حصيلة الرسوم المقطوعة التي فرضتها عهود الصلح على البلدان التي استسلمت دون قتال طويل، وثانيهما حصيلة الضرائب المجموعة من المناطق الأخرى.

وليس من الصعب علينا أن نتصور أن الرسوم المقطوعة التي صالح أهل المدن عليها خالداً هي على الاكثر أقل بكثير من مبلغ الضريبة التي كان أهل البلدان أنفسهم يدفعونه للساسانيين عن نفس المساحات والمناطق. وواضح أيضاً أن أمر توزيع عبء هذه الرسوم بين السكان وجمعها منهم قد ترك أمرهما الى زعماء المدن المحليين، كما انه ليس من المحتمل أن يكون أحد من سكان هذه البلدان قد دخل الاسلام حتى ذلك الحين.

---

(٥٧) الطبري، ص ٢٠٢٦ و٢٠٢٨ و٢٠٣١.

أما في المناطق التي لم تفتح صلحاً فقد استمرّ العمل فيها بنظام الضرائب الساساني وعلى أيدي نفس موظفيه السابقين (٥٨) وهذا يتفق وخطة العرب في الرغبة بإجراء أقل تغيير ممكن في شؤون البلاد المفتوحة وخاصة في الشؤون المعقّدة مثل الضرائب.

وكان النظام الساساني للضرائب يتضمن نوعين من الضرائب، أحدهما ضريبة الأرض والآخر ضريبة الرأس. وكانت ضريبة الرأس تفرض على كل شخص من أبناء البلاد، من أبناء المدن والأرياف على حد سواء، ممن يتراوح عمره بين العشرين والخمسين عاماً، وكانت هذه الضريبة توضع وتصنّف بالنسبة الى دخل الشخص، وكان عليّة القوم وقادة الجيش والجند ورجال الدين وموظفو الدولة معفيين منها (٥٩).

أما ضريبة الأرض فكانت نسبة معينة من حاصل الأرض تؤخذ عيناً او نقداً وتقدّر على منطقة معينة ونوع معين من المنتوج الزراعي وقد استمر العرب على استيفاء هذه الضريبة على نفس الأسس الساسانية (٦٠) وكذلك استمروا على استيفاء ضريبة الرأس ولكن على ألا يزيد حدّها الأعلى عن ثمان وأربعين درهماً ولا تقلّ في حدّها الأدنى عن الاثني عشر درهماً، والحدّان في الحالتين أخفّ عبئاً عما كانا عليه أيام الساسانيين عدا عن أن من المؤكد أن فرص الاعفاء ومداه كانت أيام العرب أوسع منها أيام الساسانيين (٦١).

ولا شك أن أكثر المشاكل تعقيداً في أمر الاستيطان في العراق هي مشكلة الأرض الخلاء، التي تركها أصحابها. وهي «ماكان لكسرى ملك الفرس وعياله وأتباعه وماكان لبيوت النار والآجام وأرض كل من قُتل في الحرب أو فرّ من البلاد» (٦٢) وليست لدينا معلومات مضبوطة عن الطريقة التي استمرّ بها الفلاحون في زراعة هذه الأراضي، ولكن المعقول أن نخمّن أن مثل هذه الترتيبات كانت لمصلحة ملاّك الأرض النافذين.

---

(٥٨) الطبري، ص ٢٠٤٩–٥١.

(٥٩) اي. كريستنسين: ايران تحت حكم الساسانيين، كوبنهاغن ١٩٣٦، ص ١١٨–٢٤ و٣١٥–٣١٦ و٣٦٢.

(٦٠) الطبري، ص ٢٤٦٧–٨، والبلاذري، الفتوح، ص٢٦٩–٧٠.

(٦١) البلاذري، الفتوح، ص ٢٧١.

(٦٢) البلاذري، الفتوح، ص ٢٧٢–٣ وابن سلام، الأموال، ص ٢٨٣، والطبري، ص ٢٣٧١ و٢٤٦٧.

ويمكن أن نفترض أيضاً بأن هؤلاء الفلاحين كانوا أقناناً في هذه الأراضي بموجب بعض الأحكام القانونية أيام الادارة الفارسية.

وقد توفرت الآن لهذه الأراضي القوى البشرية اللازمة لزراعتها ولكنها لا مالك لها. ولرغبة العرب في استمرار زراعة هذه الأرض الخصبة فقد تركوها بأيدي فلاحيها ليستمرّوا في عملهم فيها.

وعلى كل حال كان من المستحيل عملاً تقسيم هذه الأراضي بيد أفراد الجيش العربي الفاتح – والذين يعتبرون أنفسهم المالكين لها بحق الفتح – بسبب توزع هذه الأراضي في كل طرف من أطراف أرض السواد. إذ ان ذلك يعني توزع الجيش الفاتح وانتشاره في أماكن واسعة نائية في أنحاء القطر وهذا يعني انهيار النظام كله (٦٣).

وكان الحل الوحيد هو وضع الأرض تحت الملكية الجماعية التي أطلق عليها الاسم الجديد «الفيء» وصار الملاكون يُدعون بأهل الفيء (٦٤) وكان هؤلاء الملاكون الجدد – ولا شك – أرحم بالفلاحين من سابقيهم الفرس لأن العرب لم يطلبوا من الفلاحين نسباً معينة لإيجار الأرض ويكاد أن يكون من المؤكد أن نسب الضرائب الساسانية ظلت متّبعة نفسها مما يعني تحسناً كبيراً في أحوال الفلاحين (٦٥).

وفي سبيل ادارة هذه الأراضي وجمع وارداتها وتوزيعها فقد أُقيم لهذا الغرض نظام «الأمناء» (٦٦).

وكان هؤلاء الأمناء يختارون من بين أهل الفيء، وكانوا بطبيعة الحال خليطاً من أهل الردة وغيرها من القبائل العربية، ولأن مهمة كبيرة مثل هذه لا يمكن إيداعها لقبائل أهل الردة ولأن أغلب أهل مكة والمدينة عادوا الى أهليهم في الحجاز (٦٧). فلم يبقَ من يلقى عليه عبء هـذه المسؤولية إلا القبائل التي ثبت ولاؤها لأهل المدينة أيام الردة فوقفت

---

(٦٣) الطبري، ص ٢٤٦٨.

(٦٤) الطبري، ص ٢٣٧١ و٢٤٦٨.

(٦٥) البلاذري، الفتوح، ص ٢٦٩–٧١، والطبري، ص ٢٤٦٧–٨.

(٦٦) الطبري، ص ٢٤٦٩ و٢٤٩٦.

(٦٧) نفس المصدر، ص ٢٤٥٦ و٢٥٩٦.

مع النظام وحاربت المرتدّين عنه والذين شاركوا من بعد في فتوح العراق منذ أول بدايتها واستمروا فيها في جميع مراحلها ثم أقاموا في العراق بعد معركة القادسية ألا وهم «أهل الأيام» الذين غطى الآن على «أيامهم» وأمجادهم الحربية ضلال معارك أهم وأكبر شاركوا هم فيها أيضاً.

ونحن اذا ما أطلقنا على هؤلاء اسم أهل القادسية نكون قد ساوينا بينهم وبين قبائل أهل الردة [٦٨] الذين شاركوا في معركة القادسية أيضاً. وهذا — كما هو واضح ومفهوم — يشكّل تهديداً لمقامهم الذي حصلوا عليه بعد طول جهاد شاق وبالتالي لمكاسبهم الجديدة أيضاً.

ولذلك، وتصميماً منهم على الحفاظ على امتيازاتهم وبسبب مسؤولية الأمناء فقد أُطلق عليهم اسم جديد هو القراء.

وقد فهم هذا الاصطلاح حتى عند بعض المؤرخين القدامى على أنه يعني قرّاء القرآن ومع أن هذا التفسير ممكن لغوياً فمن الصعب من الوجهة العملية الصرف أن تقبل فكرة وجود هذه الآلاف من قرّاء القرآن منقسمين في جماعات يحارب بعضهم بعضاً في صفين بعد بضع سنين من تاريخنا هذا. فاذا كانوا نوعاً من رجال الدين كما يراهم بعض المؤرخين فان المرء ليعجب أن يجدهم بهذه الكثرة الساحقة وخاصة في مثل هذه المرحلة الأولى من تاريخ الاسلام [٦٩].

ويبدو من تتبّع تاريخهم أنهم قوم ميّالون كل الميل الى الحرب والقتال، وهم متحدون سياسياً وتجمع بينهم اكثر من مصلحة واحدة، وكلهم من بطون القبائل التي أخلصت الولاء لحكومة المدينة أثناء حروب الردة. وكل هذه الدلائل تشير — دون شك — الى الجماعة التي كانت فعلاً تُعرف بأهل الأيام.

ويجب أن يفهم اصطلاح القراء على أنه اشتقاق آخر من الفعل قرى. وهي تعني ما تعنيه كلمة أهل القُرى — بالضم، جمع قرية، والذي يشير الى تفوّق هؤلاء بالعمل كأُمناء

---

(٦٨) نفس المصدر، ص ٢١١٠.

(٦٩) ايچ. آر. جيب: تفسير للتاريخ الاسلامي في «دراسات للحضارة الاسلامية»، لندن ١٩٦٢، ص ٧—٨ حيث وصفهم بالحزب الديني.

للمزارع في الأرياف والقرى (٧٠) وقد جاء الغموض والاختلاط بين هؤلاء وقرّاء القرآن من المؤرخين الاسلاميين في القرن العاشر، إذ خلطوا بين هؤلاء وبين القرّاء الأوائل في عقرباء وربما دفعتهم البقية الباقية من هؤلاء القرّاء أنفسهم الى هذا الخلط طمعاً في إعادة الحياة الى سمعتهم القديمة.

أما عن تنظيمات العرب في العراق فقد كانت هناك سياسة معينة في جمع جميع العرب سوية في مكان واحد وابعادهم عن السكان المحليين، وقد استقرّ الفاتحون أول أمرهم في العاصمة الساسانية في المدائن وسكنوا دُورها المهجورة (٧١) لكنهم سرعان ما تحولوا عنها الى الكوفة عام ١٨/ ٦٣٩ لأن المدائن – اذا أردنا أن نصدّق مصادر الأخبار – لم يوافقهم مناخها، ولكن الاحتمال الأصحّ انهم فعلوا ذلك لأن موقع الكوفة كان اكثر ملائمة لإرسال الجيوش الى سوريا عند الحاجة الى ذلك (٧٢). كما كان من الممكن – من الناحية العسكرية – حصار المدائن وعزلها بسهولة بالقيام بالهجوم عليها من مقاطعة فارس القديمة والتي لم تكن قد خضعت للعرب بعد.

واكثر من هذا يبدو انه ليس من السهل جداً في مدينة كبيرة مثل المدائن السيطرة على القبائل فيها سيطرة تامة فعّالة في حين يسهل ذلك في مدينة حامية مثل الكوفة.

ولم يمضِ وقت طويل حتى بُنيت مدينة حامية جديدة هي البصرة وربما كان الغرض من تأسيسها التخفيف من ضغط سيول المهاجرين المتدفّقة نحو العراق من جهة، وكنتيجة – من جهة ثانية – لإقدام عرب البحرين على فتح جبهة جديدة عبر الخليج الفارسي.

---

(٧٠) في الواقع فان الفرزدق استعمل أهل القرى ليشير إلى القرّاء الذين قتلوا في ثورة ابن الاشعث (أنظر الصفحة ١٦٣ - ١٧١ من هذا الكتاب) وانظر ديوان الفرزدق، تحقيق بوشير، باريس ١٨٧٠، ج ١، ص ١٥١. وقد أكّده احمد المانيني في شرح اليمَامة على تاريخ العتبي. (القاهرة ١٢٨٦ هـ)، ج ٢، ص ٢٠٧. هذا المعنى للقرى، حين شرح استعمال هذا اللفظ في سجستان واقتبس آراء بعض اللغويين في تأييد ذلك الشرح. ومن المهم أن نجد المسعودي يستعمل لفظ أهل القرى والاشراف، ويستعمل القرى (بفتح القاف) بدلاً من القرى (بالضم). (المسعودي. علي بن الحسين: «مروج الذهب»، باريس ١٨٦١ – ٧٧، ج ٥، ص ٤٦٩. وانظر أيضاً ٥٠ من هذا الكتاب حيث يختلف مدلول الكلمة اختلافاً بسيطاً.

(٧١) الطبري، ص ٢٤٤٣ و٢٤٤٤ و٢٤٥١.

(٧٢) الطبري، ص ٢٤٨٣ – ٦ و ٢٥١٥ والبلاذري، فتوح، ص ٢٧٥.

وكانت هذه القبائل قد استغلّت انهيار الدولة الساسانية فعبرت من تلقاء نفسها الخليج [٧٣] وبدأت القيام بغزوات متكررة على مقاطعة فارس. ولم تكن مياه الخليج عائقاً أمام هؤلاء العرب دون غزواتها هذه، بل كانت هذه المياه في الحقيقة، طريقهم المسلوك، لكن كان المانع الحقيقي لهم هو المقاومة العنيفة وغير المتوقّعة التي واجهوها في فارس نفسها.

واذ فشلت — لهذا السبب — جهود هذه القبائل العربية في تأسيس قاعدة قوية لها في فارس فقد آثرت الانسحاب الى مناطق أسلم وأكثر أمناً فاختارت البصرة حيث انضم اليها رفاقها من قبائل القسم الشرقي من شبه جزيرة العرب [٧٤].

وعلى العكس مما حدث في الكوفة فان عدداً قليلاً جداً من مؤسسي مدينة البصرة كانوا من القبائل العربية التي قامت بالفتوح الأولى وبالفتح الفعلي للعراق. وكذلك فقد كانت غالبية عرب البصرة من القبائل «المحايدة» التي لم تشارك مشاركة فعلية في حروب الردة لا مع الحكومة ولا مع الثوار وربما كان بعضهم دخل الاسلام بعد انتهاء هذه الحروب وكانت هذه القبائل بطوناً لبكر وتميم وعبد قيس والأزد [٧٥] وهذا التجانس بين عرب البصرة جنبها الكثير من الصراع المرير الذي تعرّضت له الكوفة.

وكانت المجموعة التي انقسم اليها العرب في الكوفة والبصرة على شيء من التعقيد والتشابك فمع ان تنظيم الجيش العربي الفاتح كان — وكما هو المتوقع — على اكبر جانب من البساطة إلا أن التنظيم والتخطيط أخذا مكانيهما فيه لما أريد استيطان هذا الجيش في المدينتين الجديدتين.

وكانت المسألة صعبة خاصة وان بطون القبائل وهي أصغر وحدة اجتماعية عند العرب لم تكن الوحدة الملائمة للتنظيم الجديد. فلم يلتحق بالجيش بطن بكامله إلا في

(٧٣) الطبري، ص ٢٥٤٦ والبلاذري، فتوح، ص ٣٨٦.

(٧٤) الطبري، ص ٢٥٤٨.

(٧٥) البلاذري، الفتوح، ص ٣٨٦ ولتفاصيل اكثر عن البصرة أنظر صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، بغداد، ١٩٥٣.

حالات قليلة جداً أما في غالب الحالات فلا يلحق بالجيش إلا قسم وقسم صغير من البطن.

وقد ازداد الوضع سوءاً لأن الروادف، أي المهاجرون الى العراق، دخلوا اليه في مثل هذا الشكل غير المنتظم. ومن الممتع أن نرى مصطلحات عدة استعملت في هذا الموقف للاشارة الى هذه المجموعات فاذا التحق البطن بكامله بالجيش سموا «البررة» فاذا التحق بعض منه فقط سمّوا «الخيار» وعلى هذا فان البطون في الكوفة تختلف كثيراً عن بعضها بعدد أفرادها (٧٦).

ولأجل إسكان وتنظيم هؤلاء في المدن الجديدة جمعت القبائل المتقاربة نسباً معاً ثم قسمت الى سبعة أقسام نسبية. حمل كل قسم منها اسم القبيلة والبطن الرئيسي وقد منح كل قسم منها قطعة أرض فضاء ليبنوا عليها دورهم والمسجد.

وقد سمح لمهاجرين جدد آخرين بالقدوم والانضمام الى أبناء أفراد قبائلهم أو القبائل الأقرب نسباً اليهم (٧٧) ولأغراض الادارة العسكرية فقد قسمت القبائل في الكوفة الى أقسام صغيرة نسبياً بصرف النظر عن البطون التي تنتسب اليها. وكان عدد الرجال في كل وحدة يعتمد على حصة أعضائها من الوارد اذ خصص لكل وحدة مائة ألف درهم وكانت كل وحدة تسمى عرّافة ويرأسها عريف والعرفاء مسؤولون عن دفع العطاء الى أعضاء عرافاتهم كما هم مسؤولون عن تهيئتهم وجمعهم للخدمة العسكرية.

وقد اتبع نفس هذا النظام الاجتماعي العسكري في البصرة أيضاً وكل الفرق بين الاثنين هو عدم الحاجة الى خلق أقسام جديدة هناك (٧٨) حيث كان التجمّع القبلي الواضح موجوداً هناك من قبل والذي عمل عمل الأقسام في الكوفة وكانت البصرة أسعد حظاً من الكوفة إذ أنها سلمت من المحن التي جلبها التقسيم الاصطناعي، وبعد خمس وعشرين سنة حين أُعيد تنظيم الكوفة والبصرة أُدخلت تغييرات جذرية على الكوفة في حين ظلت الأقسام في البصرة كما كانت من قبل.

---

(٧٦) الطبري، ص ٢٤٩٥، وابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٧٧) البلاذري، الفتوح، ص ٢٧٦-٧ والطبري، ص ٢٤٩٥.

(٧٨) الطبري، ص ٢٤٩٦.

وبينما كان على البصريين أن يثبتوا سيطرتهم على الأراضي المفتوحة فإن الكوفيين كانوا قد مدّوا سيطرتهم على السواد. ومع هذا فكان من الصعب أن يعيش الكوفيون خارج مدينتهم الحامية بصورة دائمة وقد أرسلت بعض القبائل في غزوات صغيرة لتأسيس الحكم العربي أو ليقيموا مسالح، وهي حاميات صغيرة في الأرياف وفي أحيان أخرى كانت هناك أوامر تصدر من والي الكوفة بتعيين جماعة من الكوفيين للقيام بجباية الضرائب في منطقة معينة، وكما رأينا من قبل، فان مهمة جمع الضرائب تركت لرؤساء القوم ودهاقينهم ولذلك فان هذه التعيينات تمثّل الرابطة بين الحكومة العربية في الكوفة والحكومات المحلية وكانت وظائف هؤلاء المعينين تتضمن بالتأكيد استلام الرسوم المُجباة من قبل الدهاقين ونقلها الى بيت المال، وربما شملت أيضاً الرقابة على تقدير وجباية ضريبة الرأس.

وهذه الرابطة الحيوية والمسؤولية الهامة لا يمكن أن تعهد، وما كانت لتعهد الى أهل الردة. وهنا أيضاً يظهر القرّاء الذين انهمكوا من قبل في ادارة الأراضي الخلاء وكأنهم المرشحون الوحيدون لهذه المسؤوليات وهذا الاستنتاج تسنده بوضوح مصادرنا طالما أن الواقع أن جميع أسماء القبائل التي ذكرت على أنها كانت تقوم بأي نشاط خارج الكوفة في ذلك الوقت كانت من القرّاء(٧٩).

وفي الوقت الذي حصرت فيه قبائل أهل الردة بالكوفة لا يخرجون منها، كان القرّاء يتجوّلون بكل حرية وسرور في أنحاء الأرياف حيث كانوا خلال جولاتهم التفتيشية يتمتعون بخيرات الأرض إذ كان على السكان المحليين أن يقوموا لهم كلما مرّوا بهم بواجب الضيافة لمدة ثلاثة أيام على الأقل(٨٠).

ومن الطبيعي بعد هذا أن يتذمّر أهل الردة في الكوفة من الامتيازات المعطاة للقرّاء في حكومة السواد ويجب ألا ننسى أن هؤلاء الثوار أو المرتدين القدامى كانوا من أبرز القبائل العربية أيام الجاهلية على العكس من القرّاء الذين ينتمون الى قبائل أقلّ أهمية.

لم يكن الأشعث بن قيس الكندي، قائد الردّة المشهور زعيماً عادياً لقبيلة عادية.

---

(٧٩) الطبري، ص ٢٤٥٥-٦ و٢٤٦٣ و٢٤٧٤ و٢٤٩٧ و٢٥٩٦ و٢٥٩٧ و٢٦٢٨ و٢٦٣٧ و٢٦٤٥.

(٨٠) نفس المصدر، ص ٢٤٧٠.

فكانته في الجاهلية كانت مكانة الملك على قومه في حضرموت ولم ينسَ له أتباعه في الكوفة مكانته الماضية ولأن اكثر المهاجرين الجُدُد للكوفة كانوا من قبائل أهل الردة فلذلك لم يكن ندحة عن تولّي صاحبهم مقام الزعامة والسيادة ، وقد سهل له هذا أن الاقسام السبعة الأولى في المجتمع الكوفي كان لهم حق اختيار زعيمهم وفي مثل هذا الوضع بدأ القرّاء يصبحون أقلّ عدداً وبدأت أمجادهم الجديدة تهدد جدياً بالزوال ولذلك فلا عجب اذا ما أحسّوا بالغيرة على موضعهم في هذا المجتمع السريع التغيير.

ومع أن هذا التوتر أخذ يزداد ويتعاظم الى حد الانفجار إلا أن مما خفف من حدّته أول الأيام هو نشوة الانتصارات أيام الفتوحات الأولى ، فالثروات التي غنمت في ساحات القتال كانت اكثر بكثير مما يتصوّر الخيال ، ولذلك كانت جميع الأطراف تحس – مؤقتاً على الأقل – بالقناعة والرضى ومع هذا فكانت نقطة الاتفاق الوحيدة بينهم هو تقسيم الغنائم بينهم بالتساوي بعد إخراج الخُمس وإرساله للمدينة وهذه القسمة المتساوية مع ضخامة حجم الحصص ساعدت على التغلّب على بعض المصاعب مثل استرقاق سكان السواد وادارة الأراضي المهجورة.

ولكن الآن وقد انتهت المعارك الكبرى ولم تبقَ هناك غنائم قتال تجمع من ساحات الحروب فمن المهم أن يتقرر كيفية توزيع الدخل المتجمع من السواد ، وحيث أن القبائل التي اشتركت بالقسمة تعتبر كل هذه الأرض ملكها بحق الفتح ، فلذلك كان من الطبيعي وجوب قسمة كل وارد السواد بينها ، حتى لقد برز الشك في مدى استحقاق المدينة خُمس هذه الواردات . كما كانت تستحق خُمس ما يغنم في ساحات الحروب [٨١] ولكن الواضح أن المشكلة سوّيت لصالح المدينة ولربما بعد تردّد واحجام.

أما بقية الإيراد من ضريبتَي الأرض والرأس ومما يرد من الأراضي المهجورة والجزية المدفوعة نتيجة اتفاقات الصلح والهدنة ، فكانت تقسم بين القبائل الفاتحة على شكل إعطاءات سنوية وكانت تستثنى منها مبالغ ضئيلة للقادمين الجدد ، لذلك كان العطاء في الكوفة بين ٢٥٠ الى ٣٠٠٠ درهم في السنة . وكان على رأس القائمة مؤسسو الكوفة أي فاتحو العراق الأوائل وكان عطاء الواحد منهم يتراوح بين الـ ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ درهم في

(٨١) الطبري ص ٢٤١١ – ١٨ . البلاذري – الفتوح ص ٤٤٨ – ٦٨

العام وكان بعض حصتهم تأتيهم من غلّة الأرض المهجورة وكان أعلى عطاء هو عطاء أهل الأيام أي القرّاء. وكان ولا شك تقديراً لولائهم وحسن بلائهم ولخدماتهم في حكومة السواد. أما القادمون الجدد والذين لا حقّ لهم بالأرض المهجورة، فكان عطاؤهم أقل، وكان القليل من أوائل القادمين نسبياً يأخذون الى حد الألف والخمسمائة درهم في حين كان عطاء غالبيتهم يتراوح بين ٢٥٠ الى ٣٠٠ درهم(٨٢).

أما في البصرة فكان الرؤساء البارزون فقط يتقاضون عطاء قدره ٢٥٠٠ درهم وكان يسمى شرف العطاء أي عطاء الاشراف والقادة. أما بقية أفراد القبائل فعطاؤهم هو المعتاد بين ٢٥٠ الى ٣٠٠ درهم(٨٣) ومع أن هذه المبالغ ليست عالية فكان الوضع يتحسن بالمواد الغذائية التي كانت توزّع كل شهر مما يتراكم من ضرائب الأرض الذي يدفع محاصيل عينية(٨٤) وعلى كل حال فيجب أن يلاحظ أن العطاء العالي هنا كان هو الاستثناء وان الغالبية تأخذ عطاء متقارب المقدار، الأمر الذي زاد من التجانس والوفاق في البصرة على عكس الحال في الكوفة فان الاختلاف البين في حجم العطاء كان سبباً آخر من أسباب زيادة التذمر والسخط بين المقيمين الأوائل من كان مرتدّاً منهم أم غير مرتدّ، وبين القبائل الرديفة أي حديثة القدوم. وكانت الاحوال غير الطبيعية للحياة في مدينة حامية مضافاً اليها شذوذ التنظيم العسكري - الاجتماعي قد أسهمتا في زيادة هذا السخط في الكوفة وصار انفجار الوضع أمراً لا بدّ منه عاجلاً أو آجلاً.

وعلينا أن نلتفت الآن لدرس الحال في المدينة، عاصمة الامبراطورية العربية السريعة النمو. ويجب القول ان ما عدا القرارات السياسية الكبيرة للنظام ككل، فلم تكن المدينة تمارس أية سلطة على الأقاليم المفتوحة حديثاً.

والحكومة المركزية بمعناها الضيق، لا وجود لها إذ أن مثل هذا النظام يتطلب

---

(٨٢) الطبري ص ٢٤١٣ - ٢٤٩٦، ٢٥٣٨.

(٨٣) البلاذري - الفتوح، ص ٤٦٠.

(٨٤) الطبري ص ٢٧٣٦.

بيروقراطية واسعة لم تكن المدينة تملك منها شيئاً وكان عمر وحده خليفة رسول الله يقف في مجرى الاحداث الجارفة التي تزعزع كيان أية حكومة معاصرة. وكان يعتمد على مشورة ومعونة زعماء المدينة الآخرين. وتصور مصادرنا عمراً وهو في الحكم يعدّ في حرّ شمس الصيف، ابل الصدقة ودون أن يتبرع لمعاونته في هذه المهمة إلا عليّ وعثمان حيث كانا يسجلان له عدد الجمال وأنواعها وصفاتها وأعمارها وعيوبها (٨٥).

ومع أنه كانت له السلطة لتعيين الولاة والقوّاد وفي بعض الأحيان كان يوجّه لهم رسائل مفصلة عن واجباتهم وتبعاتهم ولكن الواقع انه لم يكن يملك الوسيلة لتنفيذ هذه الأوامر فما أن يغادر هؤلاء الرؤساء المدينة حتى يبدأوا بالتصرّف من تلقاء أنفسهم لمجابهة أوضاع جديدة غير متوقّعة ومن المفهوم أن يكونوا أحراراً في اتخاذ ما يرونه سليماً حسب تقديرهم. ولعلهم ان يهتموا بتلبية رغبات رعاياهم اكثر منهم باتباع أوامر عمر. وحين أراد عمرو بن العاص أن يمضي الى فتح مصر وليس معه إلا ثلاثة آلاف وخمسماية نفر فقط ممن كانوا قد عسكروا في فلسطين فقد تصرّف عمرو من تلقاء نفسه ومن دون الرجوع الى عمر.

وعلى الرغم من الازدياد الكبير في المشاكل والعقبات التي تواجهه وعلى الرغم من طبيعته الحادة الحازمة، فلم يكن له من السلطات اكثر مما كان لسلفه الهادئ غير المتفرّغ أبي بكر، ولعل كل الفرق بينهما ان عمراً يستعمل قوة طبعه ونشاطه المتدفّق ليغطي بها على صلاحيات مركزه المحدودة. وعلى كل حال فكل أعماله المسجلة وأقواله توضح جدياً بأنه كان مدركاً لحدود صلاحياته وهو كأي زعيم عربي تقليدي كان ينصح ويقنع ولكنه لم يأمر.

وكان اللقب الأول لعمر هو خليفة خليفة رسول الله، أي خليفة أبي بكر الذي هو خليفة رسول الله وما قلناه عن لقب خليفة بالنسبة الى أبي بكر يصدق على عمر أيضاً وعلى كل فان اللقب أصبح متعباً فاستعمل لقب أمير المؤمنين بدلاً عنه (٨٦).

ومن الخطأ أن يعتقد أن هذا التغيير الى لقب أقصر قد يعني تغييراً في الصلاحيات

---

(٨٥) الطبري ص ٢٧٣٥ — ٧٦.

(٨٦) الطبري ص ٢٥٤٠.

والسلطات ففهم هذا اللقب على أنه الأمير على المؤمنين فيه تجاوز كبير، فالمعاجم الموثوقة تعطي كلمة أمير، معنى أمير أو آمر. أو قائد العميان، أو البعل أو الناصح أو المشير، ومن بين هذه الألفاظ كان آخرها، المشير، هو الاكثر واقعية بالنسبة الى مركز عمر، وقد ترجم المؤرخ الروماني ثيوفانس اصطلاح أمير المؤمنين على أنه القنصل الأول وطبّقه حتى على حكام بني أُميه، وطبّقه المؤرخون الروم المتأخرون على حكام بني العباس أيضاً [٨٧].

وبالنسبة للعرب فلم يكن أمير المؤمنين أميراً قط وإنما كان ناصحاً ومشيراً على غرار الرؤساء العرب. والاستثناء الوحيد في هذا الصدد هو أن سكان البلاد المفتوحة كانوا اكثر اعتياداً على الحكم الفردي من حكامهم الفاتحين. ولهذا فقد نظروا الى عمر على انه محيي العدل ونظروا الى أمير المؤمنين نظرتهم الى ملوكهم الأولين.

والقسم الثاني من هذا اللقب – المؤمنين – يحتاج بعض النقاش أيضاً. فالنقاش طويل في التفرقة بين المسلم والمؤمن. ويذهب البعض الى أن المؤمنين هم الصفوة من المجتمع الاسلامي في حين أن المسلمين يطلقون على عموم الجماعة. ومن الصعب البت في هذا الخلاف بالرجوع الى القرآن الكريم أو المصادر التاريخية [٨٨] فالأمر، لحسن الحظ – لا يحتاج الى تخريجات فقهية أو دينية ما دام بالامكان الاعتماد الى تمييز واضح بين الصيغتين. فأمير المؤمنين كان لقباً سياسياً ولم يكن لقباً دينياً وكان اختيار لفظ المؤمنين بمعنى المقتنعين أنجح من لفظ المسلمين وأعمّ في معناه وأشمل. كان البعض من رؤساء أهل الردة يُلقّب «بالملك» في بلاده لذلك فلا أهمية سياسية يمكن تحميلها الى لقب أمير المؤمنين الذي اتخذه عمر إذ لا يتضمن ذلك أي زيادة أو تغيير في سلطاته وما هي إلا اختصار وتيسير للقب خليفة رسول الله.

وكان انعدام وجود أي طريقة لتأمين سيطرة دولة المدينة سيطرة فعّالة على أقاليمها الشاسعة البعيدة وضيق صلاحيات منصب أمير المؤمنين هما العاملين الذين شكّلا العلاقة بين المدينة والأقاليم. ويجب ألا ينظر الى تأسيس عمر للديوان لتنظيم توزيع العطاء على أنه

(٨٧) جي. ويلهاوسين: المملكة العربية وسقوطها، ترجمة م.ج. واير. كلكتا ١٩٢٧، ص ١٣٨.

(٨٨) جيب. «التفسير الجديد...»، ص ٥ و٦. وم. واط (محمد في المدينة) ص ٢٢٦، وسيرجنت «دستور المدينة»، المجلة الاسلامية، ج ٣، ١٩٦٤، ص ٣-١٦.

تأكيد للسلطة المركزية بل مجرد اعتراف شكلي بما سبق أن قررته القبائل في العراق من تلقاء نفسها ولربما كانت محاولة يائسة من جانبه للحدّ من، أو، لاحتواء رغبات الفاتحين، وكانت المدينة أول الأمر قانعة سعيدة بما يأتيها من أخماس الغنائم من المقاطعات فلما انقطعت الحروب وانقطع معها تدفق الثروات اضطرت المدينة الى التفتيش عن مصادر أخرى للايراد من المقاطعات وفي نفس الوقت فان الاخماس والاعشار التي تُجنى من شبه الجزيرة العربية كانت كافية لإدامة ثراء المدينة بل بالواقع أنها مكّنتها من أن تدفع عطاءات جزيلة تتراوح بين الـ ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ درهم لسكان المدينة ومكة.

فأهل مكة الذين دخلوا الاسلام بعد فتح مدينتهم كان عطاء الواحد منهم ٢٠٠٠ درهم أمـا أهل المدينة والمهاجرون الأوائل فكان عطاء الواحد منهم يتراوح بين ٣٠٠٠ الى ٥٠٠٠ درهم مع بعض الزيادات للنساء والأطفال وعلى هذا فقد كان عطاء عليّ ٥٠٠٠ درهم له شخصياً و ٥٠٠٠ لولدَيه الحسن والحسين لمحبة رسول الله ﷺ لهما. ولم يكن هناك عطاء اكثر من خمسة آلاف درهم إلا عطاء أُمهات المؤمنين زوجات الرسول ﷺ فكان عطاء الواحدة منهن ١٢٠٠٠ درهم(٨٩).

لكن هذا الحال السعيد لا يمكن أن يدوم للأبد وسرعان ما بدأت المدينة تحس بنضوب المال بين يديها فالأراضي الغنية المهجورة في العراق سرعان ما ستصبح موضع الخلاف بين عثمان والقبائل العربية في العراق فاذا وجد عمر صعوبة في تأمين سيطرته على العمال في المقاطعات فقد كان صعباً أيضاً على هؤلاء العمال إثبات سلطتهم واستطاع عمر اثبات سلطته وسلطة الولاة معاً بإيجاد ما قد يسمى بحق «القيادة الاسلامية»، وهذا يتضمن تعيين أشخاص من البارزين في خدمة الاسلام من أمثال عمار بن ياسر الذي عيّنه عمر والياً على الكوفة لكن المحاولة فشلت لأن عمار لم يكن مضطلعاً في الحكم فلم يكن أمام عمر إلا الاعتماد على السياسيين القدامى مثل المغيره ابن شعبة الثقفي رغم سمعته المهزوزة في صدق إسلامه(٩٠).

وفي هذه الأثناء اغتيل عمر فمات وكان مدركاً لمشاكل الامبراطورية ولعجزه عن

(٨٩) الطبري، ص ٢٤١٢–١٣ والبلاذري، الفتوح، ص ٤٥٠–٧.

(٩٠) الطبري، ٢٦٤٥ والبلاذري، ص ٢٧٩.

إيجاد الحلول لها ، وكانت الأحداث تجري بسرعة فائقة والامبراطورية تتسع سريعاً والقبائل تزداد استقلالاً ، وهي لا تستطيع أن ترى البلاد المفتوحة إلا ملكاً خاصاً وكان التوتر الاجتماعي عميقاً والولاة لا سلطة لهم وكان النظام الذي أسس بالمدينة له طبيعته الخاصة فلا هو يلائم ولا قصد به أن يطور القوة للسيطرة على دوامة السياسة الامبراطورية ، وكان سلاح عمر الوحيد للنزال والسيطرة على هذه الدوامة القوية من الأحداث هو مركزه كمستشار وقد بدا الآن يتضح بما لا يقبل الشك عدم كفاية هذا السلاح .

(٣) خارطة الاقاليم الغربية.

Black Sea
Caspian Sea
Aral Sea
ARMENIA
KHWĀRIZM
Oxus River
Jaxartes River
FARGHĀNA
Zarafshān River
Bukhārā
SOGHDIANA
Samarqand
Ardabīl
ĀDHER-BAYJĀN
ṬABARISTĀN
Rayy
GURGĀN
Merv
PRINCIPALITIES OF ṬUKHĀRISTĀN
GŪZGĀN
Balkh
Kābul
Nīshāpūr
KHURĀSĀN
Murghāb River
Merv ar-Rūd
Harī-rūd River
Harāt
QŪHISTĀN
ZĀBULISTĀN
Indus River
JAZĪRA
Mawṣil
Ṣiffīn
Tigris River
Euphrates River
Ḥulwān
JIBĀL
'IRAQ
CYPRUS
Mediterranean Sea
SYRIA
Damascus
PALESTINE
Jerusalem
Kūfa
Wāsiṭ
Baṣra
AHWĀZ
Iṣfahān
Dasht-i-Kavīr Desert
Dasht-i-Lūṭ Desert
SĪSTĀN
Zaranj
Bust
Hilmand River
Iṣṭakhr
Shīrāz
FĀRS
Jīruft
KIRMĀN
MAKRĀN
Red Sea
Persian Gulf
30°
40°
50°
60°
70°
45°
35°

(٤) خارطة الاقاليم الشرقية.

الفصل الرابع

انهيار حكومة المدينة

لا ريب أنه ما من حَكَم أصلح من عمر نفسه للحكم على النظام الذي رأسه عشر سنوات ، وما امتناعه عن ترشيح خلف له إلا حكم منه على هذا النظام. فقد عيّنه أبو بكر خلفاً له قبل وفاته وكان له هو مثل هذا الحق في تسمية خلفه أيضاً ، وخاصة والمسلمون الصالحون من ذوي الصحبة السابقة والبلاء الحسن كثيرون من حوله ، فما من سبب لامتناعه هذا إلا اعتقاده بأن منصب «أمير المؤمنين» لم يعد قادراً على مواجهة المتطلبات الجديدة الكثيرة للامبراطورية الواسعة ، وبالتالي ، فانه أي عمر لم يكن مستعداً للقول باستمراره.

ومع أن الجماعة ظلت سليمة متماسكة رغم كوارث حروب الردة وعقابيل آلام الفتح ، فقد كانت الظواهر تشير بوضوح كاف الى انفجار مدمر قريب.

فقد كان أهل مكة من أسرع الناس الى استغلال الفرص لجمع المال والثروات وكذلك كان الولاة في الأقاليم [1] ولم تنفع في ردع هؤلاء الولاة أوامر عمر في استخلاص نصف ثرواتهم لبيت المال في المدينة عند انتهاء ولايتهم.

وكانت القبائل في الجانب الثاني تزداد تذمّراً وسخطاً من تكدس الثروة عند المكيين وعند الولاة. كما كانت تزداد تذمراً من وضعها الاقتصادي ومن محاولات المهاجرين مشاركتهم غنائم الفتح.

---

(١) كان نظام «الائتمان» الذي ينطوي عليه أسلوب توزيع الغنائم فرصة طيبة لجمع الأرباح. وكان من نتائج عمليات الائتمان هذه أن أصبح عمرو بن حريث ، وهو قرشي من بني مخزوم أغنى رجل في الكوفة. أنظر الطبري ، ج ١ ، ص ٢٦٠٠.

وكان عمر يتجوّل في شوارع المدينة وأسواقها ليرى بنفسه أحوال الناس ويسمع شكاواهم [٢] وكان يريد الذهاب الى خارج المدينة أيضاً وقد ذهب مرة الى الشام. ولكن كان من المستحيل عليه أن يصل الى نتائج كبيرة في هذا المجال. فأمير المؤمنين لا يملك السلطة الواسعة ولا الوسيلة المثمرة للسيطرة على ما يحدث ويدور حواليه. فلا غرو أن تسرع الأحوال في الأقاليم نحو التدهور والانهيار في حين ظل هو في المدينة لا سلطان له.

وقد بدأت القبائل تشعر بقوتها وتقدّر قيمة استقلالها، وأسوأ من هذا كله، بدأت تشعر وتعتزّ بارتباطها المحلّي وبدأت روح من الاستقلال الاقليمي تسري بينها ولم تنفع معها محاولات الولاة لتقوية سلطانهم للحدّ من جماحها.

وبهذا المنظار يجب أن ينظر الى تعيين عمر لأهل الشورى فهو لم يقصد أن يؤسس «مجلساً للشورى» يشير على الحاكم الجديد فيما يجب فعله أو تركه، لأن جماعة الشورى حلّت حال انتخاب عثمان. كما لم يكن يقصد بها أن تكون الشكل الاسلامي لمجلس الكرادلة الذي يجب أن ينتخب أحد أعضائه، ولو أن هذا هو التفسير السائد ولكنه لا يجد له سنداً في مصادرنا.

ولربما كانت هذه المصادر تنظر الى هذه الأحداث بمنظار القرن الثاني للهجرة حيث كانت الخلافة نظاماً ثابتاً قوياً ولم تكن الأجيال اللاحقة لتتصوّر أن جدواها كانت محل خلاف يوماً ما.

وكان عمر يفضّل أن يترك أمر خلافته مفتوحاً بعده كما فعل ذلك الرسول ﷺ نفسه من قبل، وأن يترك للجماعة، ممثلة بستة من أبرز قادتها أن يقرروا المسألة حسبما يرون.

وحتى لو افترضنا صحة التفسير العادي فانه لا يتناقض مع هذا التحليل طالما أن شخص الخلَف ونوع القيادة المطلوبة كانا بطبيعتهما أمرين محرجين للغاية.

فقد كان من الواضح أن الستة سرعان ما قرروا الإبقاء على منصب امارة المؤمنين لأنه – كما بدا لهم – الاصلح للجماعة، ولكن بعد أيام من المناقشة الحادة والاستماع الى آراء

---

(٢) الطبري، ص ٢٧٤٢ ـ ٥.

بعض شخصيات المدينة ضاق الخيار واقتصر على مرشحَين اثنين فقط هما علي ابن أبي طالب وعثمان ابن عفان[٣].

والأول هو ابن عمّ النبي محمد ﷺ وزوج ابنته فاطمة. أما عثمان ابن عفان فهو من كبار بني أمية وكان زوجاً لاثنتين من بنات الرسول ﷺ أيضاً.

ومن الواضح أن اختلاف الستة وافتراقهم لم يكن لأسباب شخصية محضة فحسب، بل كان أيضاً حول ما يجب أن يكون لأمير المؤمنين الجديد من الصلاحية. فقد عرض على عليّ أن يبايع له على أن يسير على ما سار عليه الشيخان، أبو بكر وعمر من قبله، وكان هذا الحل توفيقاً ناجحاً بين أولئك الذين يعارضون علياً لأسباب سياسية والذي يؤيدونه لأسباب سياسية وشخصية معاً.

وقد رفض عليّ بصورة قاطعة باتة هذه الشروط وأصرّ أن يعمل برأيه واجتهاده كما تتطلب الأحوال والأوضاع. أو بعبارة أخرى، فقد رفض علي المنصب ما لم تزد سلطاته الزمنية، لربما عن طريق منحه سلطات دينية اكثر.

ثم عرض المنصب على عثمان بنفس الشروط فقبله حالاً ودون تحفّظ، وعلى هذا فقد بويع أميراً للمؤمنين جديداً[٤].

إن رفض عليّ أن يسير طائعاً على خطى أبي بكر وعمر وإصراره على أن يكون أميراً للمؤمنين بسلطات ومسؤوليات أوسع، تظهره وكأنه كان على علم بما سيتركه التغيير المستمرّ في الامبراطورية من آثار أليمة تتطلب علاجاً ناجعاً وحاسماً وسريعاً. وهذا الاصرار على تبنّي سياسة جديدة متطورة لمواجهة الظروف الجديدة المتغيّرة جعلت منه وبصورة آلية زعيم قوى التغيير وبطلها فاجتمع حوله طلاب التغيير وقوى المعارضة كافة. وفي وقتٍ ما نسب بُعد نظره وسداد رأيه الى نوع من الالهام والوحي، أو «العلم» الذي أصبح فيما بعد حجر الزاوية في عقيدة الشيعة وسياستها.

وقد اختير عثمان بوصفه مرشحاً محافظاً، وكان رجلاً لطيفاً كريماً، ولكن الاختيار لم

---

(٣) الطبري، ص ٢٧٨٣–٥.

(٤) الطبري، ص ٢٧٨٦ و٢٧٨٨ و٧٩٣ – ٤. والبلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، تحقيق كواتيان. القدس ١٩٣٦، ص ٢٢.

يكن – لعدّة أسباب – اختياراً سليماً. فقدكان عثمان وثيق الارتباط بالمصالح المكية، وكان عليّ يختلف عنه في هذه النقطة بالذات، فمع كون عليّ قرشياً مكياً في نسبه ومولده إلا أنه كان مدنياً في روحه وشعوره، فقد قضى سنوات شبابه تحت سقف بيت محمد ﷺ خلال أحرج أوقات الرسالة في مكة. فلم يدع له هذا مجالاً للتعرّف على تفكير بني قومه المكيين ومصالحهم، وظل منذ الهجرة يعيش في المدينة ويخالط أهلها ويخالطونه، ولهذا فهو أقرب الى أن يكون المرشح المقبول من أهل المدينة. ولهذا فقد ظل يتمتع بتأييدهم المطلق طيلة حياته. ولا بدّ أن هذا التأييد كان سنده في الترشيح أثناء مباحثات أهل الشورى الستة.

وكان عثمان من الجهة الثانية، رغم دخوله الاسلام مبكراً ورغم سابق جهاده وبذله فيه، فقدكان مكياً في الصميم، فقد عاش اكثر حياته في مكة. وكانت له – كرجل ذي ثراء عظيم – روابط تجارية وثيقة وكثيرة هناك، ولهذا فهو خير من يفهم مصالح قريش حق الفهم.

وكان لسابق جهاده في الاسلام أثر بارز في تخفيف حدّة معارضة زملائه المسلمين لترشيحه، الى أقل ما يجب من المعارضة لقريشي أصيل مثله ولزعيم من زعماء بني أُمية الذين ظلوا حتى الأمس القريب أعدى أعداء الاسلام والمسلمين.

وكان المأخذ الوحيد على تشكيل عمر لهيئة الشورى هو صبغتها المكية الكاملة. فلا شك أن عمراً في دعوته لأبرز ستة من الصحابة المهاجرين ليحسموا، باسم الجماعة، قضية اختيار الحاكم الزعيم. إنما كان يحاول أن يسبغ شكلاً إسلامياً على التقليد العربي القديم المتمثّل بمجلس القبيلة.

لكن اختيار هؤلاء الستة جميعهم من أهل مكة يؤدي دون شك الى تجاهل مصالح أهل المدينة ومصالح القبائل العربية الأخرى التي تدخل في تكوين الجماعة الاسلامية الآن.

واذا افترضنا أن عامل قصر الوقت قد برّر استبعاد إدخال رؤساء قبليين آخرين من خارج المدينة، فليس هناك ما يبرر استبعاد الأنصار من أهل المدينة، وهم حواليه، إلا أن يكون ذلك خطأً كبيراً أو أن يكون قراراً متعمداً من عمر يسلم فيه بأن المهاجرين، أي المكيين السابقين هم أولى وأصلح من غيرهم لتقرير مصير الجماعة.

ومهما تكن حقيقة الأسباب الكامنة وراء هذا الاختيار، فهي لا تغير الواقع الواضح وهو أن هيئة الشورى هذه لا تمثل الجماعة كل التمثيل، وانها بشكلها الذي وُجدت فيه، قد تصلح، بل انها كانت تصلح فعلاً في مكة قبل الاسلام. ولكنها، وفي هذا الشكل وفي هذا الوقت، لا تصلح قط للمدينة، ناهيك ببقية المسلمين في أرجاء جزيرة العرب أو المنتشرين في شتى أنحاء الامبراطورية الجديدة، إذ لا يمكن لستة من قدامى أهل مكة أن يكون لهم من سعة الأفق وبُعد النظر ما يستطيعون بهما أن يستوعبوا المصالح الجديدة المتضاربة لامبراطورية كبيرة ناشئة وما يمكن أن ينشأ عن هذه الأوضاع من آثار بعيدة المدى وكان من المستغرب منهم أن يفكروا في عليّ أولاً وإن كان من الطبيعي أن ينتهوا في الأخير الى الاختيار الأسلم، اختيار عثمان المحافظ.

وقد بدأ عثمان عهده بداية هادئة واستطاع أن يكسب لبعض الوقت رضى الجميع، وتقسم مصادرنا مدة خلافة عثمان (٢٣ – ٣٥ – ٦٤٤ – ٦٥٦) الى فترتين متساويتين، وتحكم على الست السنين الأولى منها بالصلاح والنجاح وعلى الست الثانية بالفشل والطلاح [٥]، وقد يكون هذا التقسيم على جانب كبير من الدقة ولكنه لا يعكس الحقيقة وواقع الحال.

ذلك أن عثمان ظل خلال النصف الأول من فترة حكمه وفياً الى وعده باتباع سياسة سلفَيه أبي بكر وعمر. لكن سرعة الأحداث جاوزت هذه السياسة وجعلت استمرار الأخذ بها خطأ كبيراً يضر بمصالح الأمة [٦].

فقد وافق عهد عثمان عهد تدفّق موجات عربية جديدة للهجرة من شبه جزيرة العرب الى العراق ومصر. ولعل عثمان قد رأى أنه لا يمكن ترك المبادأة في هذا الأمر بأيدي القبائل وحدها ويكتفي هو بالاعتراف والتسليم بما يقرّرونه ويفعلونه في هذا الصدد [٧]، فأراد أن يثبت وجوده باتخاذ بعض الاجراءات للسيطرة على الأقاليم. لكن سياسته

---

(٥) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٥ و٢٦.

(٦) نفس المصدر، ص ٤٢.

(٧) ابن عبدالحكيم، فتوح مصر، ص ١٢٣ و١٢٨، والطبري، ص ٢٨١٤ والبلاذري، فتوح، ص ٢٢٦.

الايجابية هذه أودت بعد وقت قصير بحكمه وبحياته. فالضعف الشائع عنه لم يكن ضعفاً في الشخصية، وانما كان خطؤه الوحيد الذي تنقله عنه المصادر الموثوقة انه كان امرءً كثير الأدب، وهو أمر ليس بالشيء الخطير، ولا علاقة له بالسياسة[٨].

وكان منهجه السياسي الجديد يفترض وجود سلطة لدى عثمان اكثر مما يسمح له أن يحوز، الأمر الذي قد ينفر منه أصحابه الذين انتخبوه.

ولكن هذا الأمر لم يكن مهماً بحدّ ذاته اذ يبدو ان المهاجرين وبقية قريش قد فهمت مصاعب عثمان وحاجته للعمل الحاسم، ولذلك فقد ظلوا على اخلاصهم له طالما انه لم يمس مصالحهم الخاصة بأذى.

وكانت خطوته الأولى هي ضمان سيطرته التامة على الاقاليم. وبوصفه الرئيس الأعلى لقبيلة كبيرة، فقد وجد أن أحسن ما يضمن له هذه السيطرة هي تعيين قرابته وأهل بيته حكاماً على تلك الأقاليم. وكان معاوية بن أبي سفيان، وهو من أبناء عمومته الأقربين، عاملاً على الشام منذ أيام عمر، وكان مرضياً عنه من الجميع ولا موجب لتغييره فأبقاه عثمان في مركزه.

أما مصر فقد كان عامل عمر عليها الرجل الداهية عمرو بن العاص، فنحاه عثمان وأحلّ محلّه أخاه لأمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وكان عبد الله من قواد عمرو الذين أسهموا معه في فتح مصر فكان مثل عمرو على معرفة جيدة بأحوالها[٩].

وعيّن لولاية الكوفة الوليد بن عقبة، وما ان ثبت له عدم صلاحه لهذا المنصب حتى أسرع فاستبدل به ابن عم آخر له هو سعد بن العاص. كما وأرسل شاباً آخر من أبناء عمومته الى ولاية البصرة وهو الشاب اللامع عبد الله بن عامر.

وتفسر لنا هذه التعيينات سرّ اتهام عثمان بالمحسوبية، ولكن هذه التهمة ليست موضع بحثنا الآن، وإنما الأهم من ذلك أن نعرف أن جميع هؤلاء الأقارب الذين ولاّهم عثمان حكم الأقاليم، كانوا – باستثناء الوليد بن عقبة الذي سرعان ما نحاه عن منصبه – رجالاً أكفاء، وفي الغالب ذوي تجربة ومراس. وقد اختارهم عثمان لصفاتهم هذه ولأنه

(٨) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٤ و ٥ و ١٠.

(٩) الكندي، الولاة، ص ١٠ – ١١.

يستطيع أن يثق بهم ويضمن بهم ولاء الأقاليم له ، كما وان مركزه رئيساً لقبيلته ، بني أمية ، قد ثبت وتقوّى ، لهذا فقد كانت خطوة عثمان هذه خطوة سياسية موفقة لتقوية مركزه كأمير للمؤمنين.

وكانت خطوة عثمان الثانية هي سعيه الى خلق منافذ آمنة ينفس من خلالها عن حدّة الصراع الذي بدأ يضطرم في مدن الحاميات العسكرية في العراق ومصر، عن طريق التخطيط المنظم بشن حملات عسكرية جديدة على جميع الجبهات في آن واحد.

فمن مصر قاد ابن أبي سرح جيوش العرب متوغلاً فيها بعيداً في الشمال الافريقي ، ومن البصرة سار عبد الله بن عامر في حملة كبيرة لفتح ما تبقى من بلاد الامبراطورية الساسانية ، وفي نفس الوقت خرجت من الكوفة جيوش عربية أخرى اتجهت الى الشمال من بلاد فارس صوب المقاطعات القزوينية.

وقد نجحت هذه السياسة بنجاح الحملات في جلب الوفير من الثروات والايراد الى بلاد مصر وأرض الرافدين ، وبالتالي ، وعن طريق الخُمس الشرعي ، الى المدينة نفسها عاصمة الخلافة.

وقد يسّرت هذه الثروة الجديدة لعثمان إرضاء مطالب المهاجرين الجُدد الى البلاد المفتوحة دون أن يثير عليه نقمة المهاجرين القدامى اليها ، فكان عطاء الرجل منهم يبلغ الثلاثمائة درهم في العام ، وهو ، إذا ما أُضيف اليه نصيب الرجل من المغانم والأسلاب ، إيراد مجزٍ. لكن هذا الأمر كان في البصرة فقط ، لأن غنائم جيشها من ثروات خراسان تفوق كثيراً مغانم جيش الكوفيين من مقاطعات قزوين ، ولأن البصرة قد نجت لحسن حظها من شرار سؤ توزيع المغانم الذي كانت تتخبط به الكوفة آنذاك(١٠) ولهذا كانت البصرة راضية هادئة ، وظلت ، على العموم ، شاكرة لعثمان مخلصة لذكراه.

لكن مشكلة الكوفة لم تُحَل. وكان أول فشل كبير لعثمان هو في محاولته تقوية سلطانه لينظم شؤون الكوفة وما حواليها من البلدان. فأثارت عليه سياسته هذه غضب القرّاء ، وكانوا على جانب كبير من الأهمية ، لأنهم كانوا المسيطرين فعلاً على ادارة ريف العراق. واكثر من هذا ، فانهم كانوا يديرون أملاك الساسانيين الواسعة المهجورة في السواد ، وان

---

(١٠) لمزيد من التفاصيل أنظر م.ع. شعبان ، الثورة العباسية ، الترجمة العربية ، ص ٧٢-٧٤.

كانوا من وجهة نظرهم يعتقدون أنهم يملكون تلك الأراضي[11]. ولهذا فما لم تخضد شوكتهم في العراق ويقلم نفوذهم فيه فلا سلطة لأمير المؤمنين هناك.

وقد تركز النزاع حول الأراضي المهجورة، إذ لم تكن هذه الأراضي قد قُسِّمت بعد، بل كانت تُدار من قبل القرّاء ويقسم إيرادها على جند الجيش الفاتح. وكما قلنا من قبل، فان هؤلاء القرّاء ينظرون الى أنفسهم على أنهم الملاّك الحقيقيون لهذه الممتلكات الثمينة.

ولم يجرأ عثمان أن يتحدى — صراحة، حقوقهم المزعومة هذه ولكنه تبنّى أسلوباً متدرّجاً نحو ذلك، فبدأ أولاً بالقول ان المحاربين القدامى الذين عادوا الى مكة والمدينة، بعد أن قاموا بواجبهم في معارك الفتح — لم يفقدوا حقوقهم في هذه الأراضي، ولذلك فقد طالب بالنيابة عنهم في حصصهم فيها.

وقد ردّ القرّاء على عثمان أنه لولا وجودهم الخاص والمستمرّ في العراق لما أمكن لأحد جمع هذه الايرادات مطلقاً، وهذا يبرهن على أن المحاربين الكوفيين هم أصحاب الحق الأكبر في هذه الأراضي.

لكن هذه الحجة لم تقنع عثمان ولذلك، وبين وعد سعيد بن العاص ووعيده وإغرائه وإرهابه رضوا بخطط عثمان ووافقوا على إقامة نظام لتبادل حقوق الأراضي بشكل معقّد كل التعقيد. فاشترى طلحة — مثلاً — وهو من كبار أهل مكة، نصيب من أقام بالمدينة بما كان له بخيبر في الحجاز، وابتاع الأشعث بمال كان له في حضرموت أرضاً أغنى منها في السواد[12] ويقال ان عثمان وهب كثيراً من أرض السواد الى أهل مكة، وقد يكون هذا قد حدث بطريق صفقات الاستبدال المعقّدة. وعلى كل حال، فان النتيجة النهائية لهذه العمليات كلها كانت اكتشاف القرّاء بآخرة على أن كيانهم الاقتصادي قد انهار بعد أن خرجت أراضيهم من أيديهم بصرف النظر عن حقوقهم فيها.

وأضاف عثمان الحشف الى سؤ الكيلة، بإزالته التمييز بين القرّاء ومسلمي ما قبل الردة. وكان عمر قد استعمل أهل الردة ولكنه وضع خطة لإبعاد رؤسائهم عن مناصب

---

(١١) الطبري، ص ٢٩٠٨، البلاذري، الأنساب، ج ٥، ص ٤٠.

(١٢) الطبري، ص ٢٨٥٤–٦.

المسؤولية. أما عثمان فقد أغفل هذه الخطة وعيّن، بجهود سعيد بن العاص، رجلاً مثل الأشعث بن قيس قائداً لجبهة اذربيجان [١٣].

واذ وصلت الأمور الى هذا الحد فقد قرر القرّاء إعلان الحرب من أجل الحفاظ على كيانهم. وفي يومٍ ما من عام ٣٤/٦٥٥ التقى جمعهم بسعيد ابن العاص في الجرعة، وهي قرية صغيرة بالقرب من الكوفة، وكان سعيد عائداً من المدينة الى الكوفة فمنعوه من دخول الكوفة وردّوه الى عثمان واختاروا أبا موسى الأشعري أميراً عليهم. فلم يجد عثمان مندوحة من إقرار هذا الاختيار [١٤]، وأرسل أبا موسى عاملاً له على الكوفة.

ولهذا الاختيار دلالته الخاصة. فإن أبا موسى الأشعري نفسه هو الذي اختاره القرّاء بعدئذٍ وأجبروا علياً على قبوله حكماً في صفين.

ويعتبر حادث الجرعة مهماً لأنها المرة الأولى في تاريخ الاسلام التي تتحدى فيها القبائل سلطة أمير المؤمنين المتنامية. ومع ان الذين قاموا بهذا التحدي أقلية صغيرة ولكنها كانت أقلية متميزة كانت ادعاؤها الصاخب بالصلاح والصواب مساوياً لخطر قوتها المتزايد.

وكان النزاع على المال في مصر من عوامل الانتقاص من مركز عثمان فيها. لكن النزاع هناك لم ينشأ حول الأرض نفسها بل حول توزيع الغنائم، فرغبة من ابن أبي سرح في تجنيد اكبر عدد ممكن من القادمين الجدُد في حملاته فقد وعد هؤلاء بأنصبة كبيرة من الغنائم، في حين احتج قدامى الوافدين بقوة على ما لحقهم من الغبن إذ كانوا في الجهة الخاسرة من الميزان. وقد أشاروا بسخط كبير الى العرف القديم القاضي بتوزيع الحصص بالتساوي على الجميع [١٥].

ولم يكن لهذا المطلب أهمية بالغة، لأن الوالي يستطيع أن يبرر عمله بسوابق أخرى جرت في حياة النبي محمد ﷺ، واذ كانت سياسة الرسول (عليه السلام) في توزيع

---

(١٣) نفس المصدر، ص ٢٩٢٧.

(١٤) الطبري، ص ٢٩٢٩ – ٣٦. البلاذري–الأنساب، ج ٥، ص ٤٤–٧.

(١٥) الطبري، ص ٢٨١٤–١٥.

الغنائم تختلف باختلاف الأحوال والظروف فان القواعد التي وضعت لها بعدئذ كانت اجتهادات سياسية وليست تشريعات دينية.

وقد ثار النزاع ثانية في مصر حين اشتد واليها ابن أبي سرح في تطبيق اجراءاته المالية فأظهر كل الشدة والحزم في جباية الضرائب وجمعها وكل الحرص والتقتير في توزيعها. وكانت للوالي أسبابه المنطقية الوجيهة التي دفعته لانتهاج مثل هذه السياسة. فقد كان محتاجاً للمال لتجهيز الحملات العسكرية ولبناء أسطول بحري يزحزح به من سيادة الروم البحرية على البحر الأبيض المتوسط.

لكن العرب المهاجرين في مصر لم يكونوا ينظرون الى شيء غير ما يهدد مصالحهم الخاصة، ولعلهم خشوا، وهذا هو الأرجح، ان يؤدي تشديد قبضة الوالي على المصريين الى ثورتهم ضد العرب (١٦). وقد وصلت الشكوى الى عثمان، فبعث عمار بن ياسر ليستقصي أخبارها ويرجع بها اليه. ولكن سرعان ما تبين أن عمار ليس بالرجل الصالح لهذه المهمة، اذ لم تتوفر فيه الحيدة والموضوعية اللتان يجب أن يتوافرا في الرجل الحكم. فقد كان يرى الفضل كل الفضل لأي امرئ هو في سبق دخوله للاسلام واخلاصه له. وهو نفسه، وان صار لفترة ما أيام عمر بن الخطاب والياً على الكوفة، فلم يكن معروف النسب واضح الأصل، وهو وإن يكن عربياً فقد بدأ حياته سبياً ودخل الاسلام أول ظهوره وكان الفضل في منزلته وشهرته هو قدم إسلامه وما تحمّله وأبواه من عذاب واضطهاد في سبيل الدعوة، لهذا فلم يكن لعمار بد من أن يميل هواه الى القدامى من المسلمين وان يفقد تقريره الى أمير المؤمنين نفعه وجدواه، بل واكثر من هذا أن يعود عمار نفسه من مصر وهو المناوئ لحكم عثمان المحنق عليه (١٧)، والواقع أن بني أمية ظلوا – بعد مقتل عثمان – ينظرون الى عمار على أنه من كبار رؤوس المؤامرة على عثمان.

وقد أدى اندفاع عثمان الى توكيد سلطاته كأمير المؤمنين به الى خطأ فادح آخر، وكان الأمر يتعلق بالمال هنا أيضاً، وعلى وجه التأكيد بطريقة تقسيم خُمس المدينة.

---

(١٦) الطبري، ص ٢٨١٩ و٢٨٦٧ و٢٩٩٣ والبلاذري – الانساب، ج ٥، ص ٢٦. ابن عبدالحكيم – فتوح مصر، ص ١٩٠.

(١٧) الطبري، ص ٢٩٤٣ – ٤ والبلاذري – الانساب، ج ٥، ص ٥١.

ذلك أن أحكام القرآن والسنّة في هذه القضية تختلف – كما قلنا ذلك من قبل – باختلاف المفسرين من الجهات المختلفة ، وحتى في أيام الرسول ﷺ ، فقد أدّى تقسيم الفيء العائد من غزوة حنين الى بعض النقد والسخط [١٨] ، لهذا فليس من المستغرب على أبي بكر وعمر أن يتحليا بكل الحرص والدقة في هذا الأمر وأن لا يبيحا لنفسيهما حرية التصرّف إلا في خُمس هذا الخُمس فقط .

لكن عثمان كان أقل تحرجاً وأكثر حرية في التصرف بالمال كله ، فكان – بعد دفع العطاءات – يبيح لنفسه حرية التصرف في هذه الأموال بما يراه أكفل لتحقيق الصالح العام [١٩] .

واذ كان عثمان رجلاً ثرياً كريماً أفنى جل ماله في سبيل الدعوة الاسلامية فليس الى اتهامه في نزاهته من سبيل ، ولكنه منح أهله وذوي قرباه وآخرين غيرهم أموالاً كثيرة ففسح بتصرفه غير السليم هذا المجال لاتهامه بالمحسوبية [٢٠] وان كان ما يبدو لدينا منها هو في الواقع نوع من الرعاية السياسية لا غير. فمع أن مروان بن الحكم ، ابن عمه وأحد مستشاريه المقرّبين ، كان الهدف المفضل للاتهام بعدم النزاهة ، إلا أنه لم تشاهد عليه مظاهر الترف والغنى . ولربما كان «المسؤول السياسي» الذي يشتري لعثمان التأييد السياسي والولاء من كبار القوم [٢١] .

وقد هوجم عثمان نفسه من الناحية الدينية كما هوجم من الناحية الدنيوية . فرغبةً من عثمان في توحيد قراءة القرآن فقد ألغى القراءات المتعددة للقرآن واتخذ واحدة منها فقط قراءة رسمية واجبة الاتباع . وعلى ما في هذا القرار من حكمة وصواب فقد أثار معارضة عنيفة ، اكثر في الواقع مما كان يتوقع .

وكان منطق معارضيه ينصبّ على أن ليس لأمير المؤمنين من السلطة أو من الفقه بأحكام الدين اكثر مما لأي مسلم آخر ، وإذن فليس له أن يفرض على المسلمين قراءة

---

(١٨) الطبري ، ص ١٦٨٢ – ٣.

(١٩) الطبري ، ص ٢٩٥٥ والبلاذري – الانساب ، ج ٥ ، ص ٢٥.

(٢٠) البلاذري – الانساب ، ج ٥ ، ص ٧ و٨ و٣٨ و٣٩ و٥٨ وابن اعثم الكوفي ، أبو محمد أحمد ، كتاب الفتوح ، مخطوط في استانبول في مكتبة أحمد الثالث ، رقم ٢٩٥٦.

(٢١) البلاذري – الأنساب ، ج ١ ، ص ٢ آخر ٢٨.

واحدة دون غيرها، وبعبارة أخرى فقد كان اعتراض الناس على عثمان لأنه – في نظرهم – قد ادعى ومارس سلطة دينية لم تكن له أصلاً (٢٢).

وقد اضطرت الظروف عثمان الى ممارسة سلطات اكثر مما كان ينوي هو نفسه أن يأخذ لنفسه، ولكن نواياه الطيبة وجهوده المعقولة لضبط الامبراطورية أثارتا عليه معارضة فئات متعددة حتى اذا ما بلغ آخريات أيام حكمه كانت المعارضة من القوة والشمول بحيث دفعت اكثر المنتفعين منه الى التخلي عنه.

وكان آخر المطاف وصول مبعوث من بضع مئات من قبائل العراق ومثلها من مصر، جاءوا الى المدينة ليبسطوا ظلامتهم ويطلبوا الانصاف. وكان أهل المدينة قد تخلّوا عن حماية عثمان ونصرته وتركوه وجهاً لوجه مع ألدّ معارضيه الذين أحاطوا ببيته وحصروه وأهله فيه. وكان مجرد العجز عن تقدير المدى الذي يمكن أن تذهب اليه المعارضة أو تنتهي اليه الأحداث عاملاً كافياً لإفلات الأمور عن سيطرة الجماعة، ولهذا فبعد خمسين يوماً من الجدال العنيف والنقاش العقيم تسور المصريون دار عثمان واقتحموها وقتلوا الرجل الشيخ الذي تخلى عنه رفاقه المدنيون (٢٣).

وكان مقتل أمير المؤمنين أمراً لم يتوقعه أهل المدينة فكان صدمة عنيفة هزّتهم وأذهلتهم عن أمرهم خمسة أيام. وفي هذه الفترة برز علي ابن أبي طالب على أنه خلف عثمان. وكان علي، دون شك – المرشح الأبرز والأرجح، اذ رغم شيوع بعض الأسماء الأخرى فان أحداً من أصحاب تلك الأسماء لم يرشح نفسه صراحة.

وكانت المشكلة هي في إقناع علي بقبول المنصب، وكان بطبيعة الحال – متردداً في قبول تولّي الحكم في مثل هذه الظروف المتأزمة. ولكنه، في النهاية – اقتنع بالقبول منعاً لتردّي الوضع نحو الفوضى الشاملة (٢٤).

وكان من الممكن أن يسوء وضع علي لولا تأييد الأنصار المطلق له. وقد ظهرت قوته بوضوح كاف بالسهولة التي قضى فيها على ثورة طلحة والزبير في معركة الجمل. وكان

---

(٢٢) نفس المصدر، ص ٧٢. الطبري، ص ٢٩٥٢.

(٢٣) الطبري، ص ٢٩٤١ – ٣٠٥٠ والبلاذري – الانساب، ج ٥، ص ٥٩–١٠٥.

(٢٤) الطبري، ص ٣٠٧٣–٥.

الاثنان قريشيين ومن زعماء المهاجرين وكانا كلاهما عضوين في هيئة الشورى التي انتخبت عثمان. وكان موقفهما السياسي يتلخّص بوجوب استمرار الزعامة القريشية الصرفة للجماعة. وكانا ينظران دوماً الى السلطات المحدودة لأبي بكر وعمر على أنها خير ما يمكن عطاؤه. ومع أنهما اختارا – مع بقية أعضاء الشورى – عثمان، إلا أن توسعه في السلطات خيّب ظنهما فيه وبالتالي أفقده ثقتهما ونصرتهما. واذا كان الأمر كذلك مع عثمان، فلا بد أنهما يدركان الآن ان علياً أولى أن يقوم بتغيير جذري في ادارة الامبراطورية مبتدئاً بطبيعة الحال بمنصب أمير المؤمنين نفسه (٢٥).

واذ كان الأمر كذلك، فليس بالمستغرب أن يجدا بعض العون المالي من أهل مكة وتعاوناً من السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ وابنة أبي بكر في ثورتهما على عليّ (٢٦).

وكانت عائشة – بطبيعة الحال – ترى أن ما كان صالحاً لأبيها ولمرشحه وخليفته من بعده، يجب أن يبقى هو الصالح للجماعة على مرّ الأزمان. ولذلك قررت أن تعارض علياً.

وقد خرج الثوار الثلاثة الى البصرة على أمل أن يذكروا قبائلها بافضال أمير المؤمنين المقتول عثمان عليهم فيجمعوهم تحت رايتهم ضد علي. ولكن مما يجب أن يذكر بالفضل لأهل البصرة هو رفضهم التورط في هذا النزاع.

أما أهل الكوفة، وكانوا معارضين ألدّاء لسياسة عثمان فقد انضموا الى علي، وكان علي مدعوماً بالأنصار أيضاً، فظل يتابع الثوار حتى التقى بهم في معركة الجمل، وسرعان ما استطاعت قواته المتفوّقة أن تشتت شمل الثوار وتربح المعركة التي قتل فيها طلحة والزبير وأُعيدت عائشة مدحورة الى المدينة (٢٧).

---

(٢٥) الطبري، ص ٣٠٨١ وابن الأثير–الكامل، ج ٣، ص ١٦٩.

(٢٦) الطبري، ص ٣١٠٠–٣.

(٢٧) تتفق الروايات التي أوردها الطبري نقلاً عن سيف والمدائني في اكثر التفاصيل. وجميعها تميل الى المبالغة في هذه التفاصيل وبالتالي الى المبالغة في أهمية الحادث (الطبري، ص ٣٠٩١–٣٢٣٣) ولعل رواية ابن الأثير اكثر اتزاناً (ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ١٦٥–٢١٧) ومن الجهة الثانية يقدم ابن خياط رواية أكثر اختصاراً وأكثر دقة. تاريخ خليفة بن خياط. تحقيق الدكتور العمري. النجف ١٩٧٦، ج ١، ص ١٦٠–١٧٣.

ودخل علي البصرة فقوبل بالاستقبال والورود، وهنا أقدَمَ على عمل يعتبر ذا دلالة هامة على سياسته الجديدة وهو أنه قسَّمَ ما وُجد في بيت المال بين أنصاره بالتساوي [٢٨] وهذا لا يعني رفضه ما كان للمسلمين القدامى من منزلة ومقام، ولكنه مجرد إعطاءه قيمة متساوية لبلاء المسلمين المتأخرين، مرتدّين كانوا أم غير مرتدّين، في حروب الفتح وفي استقرار الامبراطورية.

والواقع أن كل الفئات التي كانت ترى نفسها مستضعفة أو مهضومة الحق قد تحلقت حول عليّ وانضمت اليه، ولهذا كان الأنصار معه بكل قوتهم وكذلك كان القرّاء الذين رأوا فيه أملهم الوحيد لاستعادة ما فقدوه من امتيازات وحقوق أيام عثمان.

وكانت هاتان الفئتان على شيء كثير من التماسك وحسن التنظيم. لكن المهاجرين الجدد للعراق فاقوهما عدداً، وكانت سياسة علي في قسمة الغنائم بالتساوي تستهوي هؤلاء المهاجرين، ورغم أن البعض منهم كان ممن انتفع كثيراً من سياسة عثمان، فانهم جميعاً أولوا علياً كامل ثقتهم مقدّرين له موقفه المشرف في الشورى من أجل التجديد المنتظر. ولذلك لم يكن من محض الصدف أبداً أن يكون بين أنصار علي الأشداء رجال من مشاهير قواد الردة السابقين من أمثال الأشعث بن قيس الى جانب رجال من أمثال عمار بن ياسر.

ولهذا صار لعلي حلف واسع هام ومؤثر من المصالح القائمة خلفه، وكان الخطر الوحيد في هذا الحلف أنه كان أوسع مما يجب. ولم يكن بين عناصر هذا الحلف الثلاثة أي مصلحة مشتركة تربط بينهم.

فلم يكن للأنصار مصلحة ما مع العراقيين كما وان إرضاء مطالب القرّاء يعني الاضرار بمصالح القادمين الجدد للعراق والعكس بالعكس. ولهذا فلا يمكن لمثل هذا الحلف الواسع القاعدة والذي يضم مثل هذه المصالح المتضاربة أن يدوم طويلاً، إن لم يكن من الغريب ظهوره للوجود أصلاً.

وكان السبب الأول في ظهوره للوجود هو شخصية علي العظيمة، فمواقفه السياسية كانت واضحة صريحة حاسمة، وكان بُعد نظره وصواب رأيه في طبائع الأشياء المتغيرة

---

(٢٨) الطبري، ص ٣٢٢٧، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ بيروت ١٩٦٠، ج ٢، ص ١٣٠.

بسرعة في الامبراطورية قد قادتاه الى الاعتقاد الثابت أن الأحكام العامة التي جاء بها القرآن الكريم وعمل بها الرسول محمد ﷺ وأبو بكر وعمر من بعده تحتاج الى تفسير جديد لتتفق مع المتطلبات المستجدّة للجماعة. واذا كان قد انقطع عن المسلمين وحي السماء بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فعليهم أن يعملوا برأيهم وحكمتهم على ضوء معرفتهم وعلمهم بالاسلام. واذا كان هذا حقاً للمسلم العادي فهو أحق وأولى لأمير المؤمنين وهو الزعيم القائد المسؤول عن جميع المسلمين.

وكان علي يطالب بالسلطة الدينية ليحلّ بها المشاكل السياسية. وهذا هو أصل نظرة علي والتي تمسّك بها أنصاره الشيعة من بعده، وأصبحت لها الصدارة في كل المذاهب الشيعية، وهي فكرة أمير المؤمنين – الامام الذي يستطيع بما أوتي من «العلم» والمعرفة أن يحقق لكل مسلم وللجماعة كلها العدالة والمساواة.

وكانت الأوضاع في العراق تحتاج الى وجود مثل هذا القائد «العالم» الذي يستطيع أن يفسر القرآن لما فيه صالح جميع المسلمين ويفنّد محاولات القرّاء لايجاد تأييد قرآني لما يدعونه من امتيازات.

ومهما يكن رأي المرء في شخص مثل علي اختلفت فيه الآراء فليس من تفسير مقنع لهذا الولاء والتفاني الذي نفثه في اتباعه إلا بعد نظره الخارق ومتانة خلقه المستقيم.

ومع ان البصرة رحّبت بعلي حين دخلها، فلم يكن له في الواقع فيها من المؤيدين الأقوياء إلا بضع مئات من القرّاء الذين زحفوا اليها بآخرة لينضموا الى أفراد قبائلهم هناك والذين انضم بعضهم الى قضية علي أيضاً. وقد انتقل هؤلاء البصريون، واكثرهم من تميم، مع علي الى معسكره الجديد خارج الكوفة [٢٩].

ومن الخطأ أن نعتبر ذهاب علي الى الكوفة قراراً نهائياً بنقل العاصمة من المدينة اليها. فهو إنما ذهب اليها ليوطّد سلطته ويقوّيها، ولم يكن علي، حتى الآن، راغباً في الاستقرار والبقاء في الكوفة كما يدل على ذلك اتخاذه معسكره خارج المدينة [٣٠].

وقد قام علي – في نفس الوقت – بأعمال أخرى تهدف الى تقوية سلطانه في أنحاء

(٢٩) نصر بن مزاحم: وقعة صفين. تحقيق أ.م. هارون. القاهرة ١٩٤٦، ص ٢٨–٣١.

(٣٠) نفس المصدر، ص ٥ و٨ و١٣٦ و١٤٧.

الامبراطورية الأخرى. فمع ان الوضع في مصر لم يكن قد استقرّ بعد، كما يدلّ على ذالك توقف شحن القمح الى المدينة – فقد قوبل عامل علي عليها دون سخط كبير[٣١].

ولكن النجاح لم يكن من حظ علي في سوريا، فمع انه أرسل اليها الوفود يسأل البيعة له فان أهل الشام رفضوا بيعته سواء أبقي معاوية في منصبه أم عزله عنه. ولكنهم من الجهة الثانية لم يختاروا أميراً للمؤمنين خاصاً بهم، وكانت حجتهم في ذلك أن معاوية هو ابن عم عثمان فهو محق في الامتناع عن بيعة علي حتى يتم التحقيق الصحيح في مقتل عثمان ثم الاقتصاص العادل من قاتليه.

وكان لمعاوية – دون شك – بعض الحق في المطالبة بالاقتصاص من قتلة عثمان، وما كان هذا وحده بالأمر الخطير، ولكن ما أضفى الخطورة والأهمية على موقف معاوية هو وجود قوة عسكرية كبيرة بين يديه في الشام يستطيع بها أن يضع مطالبه موضع التنفيذ. وهنا يكمن موضع القوة في موقف معاوية أما فكرة ولاء كل أهل الشام له ولاءً كاملاً مطلقاً بحيث يستطيع أن يدفع بشعب اقليم كامل للثورة من أجل الانتقام لمقتل شخص واحد لم تكن تربطهم به صلات وثقى، فهو أمر غير قابل للتصديق.

والأرجح أن الانتقام لمقتل عثمان كان مجرد «قميص» ديني فضفاض يخفي تحته خلافات سياسية واقعية. فكل الظروف السائدة تقودنا الى الاعتقاد أن الخلاف بين علي ومعاوية إنما هو حول الوضع في بلاد الشام. فقد رأى عمر وعثمان، حفاظاً منهما على الاستقرار والأمن في بلاد الشام تجاه خطر الروم – تجنيبها ويلات الهجرات الاعتباطية التي أربكت بلاد العراق. ومن الطبيعي أن يكون معاوية وأنصاره من أهل الشام على هذا الرأي أيضاً. ولكن علي كان يرى رأياً آخر مختلفاً إذ لم يرَ سبباً يدعو الى تمتّع بلاد الشام بهذا الوضع المتميز لا لشيء إلا لقيامها بواجبها في الدفاع عن حدودها، وخاصة وأن البيزنطيين قد قطعوا الأمل من سوريا وان العرب أنفسهم بدأوا الآن ينظرون بعين الطمع والاشتهاء الى بيزنطية نفسها. عدا عن أن لكل قطر حدوده مع الأعداء ولكل قطر حروبه الخاصة به فاذا عاملنا كل الأقطار معاملة القطر الشامي لم يعد هناك مكان لاستيعاب هؤلاء المهاجرين الجُدد الذين تفيض بهم جزيرة العرب بين الحين والآخر، ومن غير

---

(٣١) الطبري، ص ٢٥٧٧ و٣٢٣٨.

المعقول أن تطفح أرض العراق بأعداد غفيرة من هؤلاء المهاجرين غير المنضبطين في حين تبقى أرض الشام سالمة من هذا المد، بل على سوريا أن تشارك في الحلول العامة لمشاكل الجماعة الاسلامية ولو أدى ذلك الى ضياع امتيازاتها الغالية وهدم ما أجهد معاوية نفسه في بنائه خلال عهد عمله الطويل فيها [٣٢].

وقد استمرت أثر هذا مفاوضات طويلة ولكنها عقيمة بين علي ومعاوية، وكان السبب في تطويل أمد المفاوضات يعود إلى صعوبة معاوية في إقناع الزعماء الشاميين بضرورة الحرب مع علي [٣٣].

ولكن معاوية ربح الجولة في نهاية المطاف وسارت الأحداث بهدوء نحو الحرب، ففي حين عقد أهل الشام هدنة مع الروم كان ثمنها دفع جزية مهينة لهم، استجابت القبائل العربية بحماس لدعوة علي فحملوا السلاح معه الى ساحة القتال [٣٤].

لكن هذا الحماس تبخر في ساحة القتال، فقد التقى الجمعان في صفين عام ٦٥٧/٣٨ ونشبت أغرب معركة في التاريخ. فقد دامت المواجهة في صفين ثلاثة شهور، وهي فترة طويلة اذا ما قورنت بالساعات القصار التي انتهت بها معركة الجمل من قبل. ولم يكن أحد من الطرفين في صفين راغباً في القتال أو متحمساً له، وفيما عدا بعض مناوشات طفيفة فقد مضت الشهور الثلاثة بالمفاوضات التي لم تؤد الى نتيجةٍ ما، ولذلك فقد كانت المعارك تنشب بين المتفاوضين اكثر منها بين المتحاربين. وما ان اشتبك الطرفان بالقتال الشديد بآخرة، حتى توقف تماماً حين عمد أهل الشام الى رفع المصاحف على رؤوس الرماح إظهاراً من جديد لرغبتهم في المفاوضة والسلام.

وبعد انتهاء النقاش وافق الطرفان بحماس على التحكيم الذي هو سيّد الأحكام. وقد

---

(٣٢) يلاحظ أن عثمان ألحق أرض الجزيرة بولاية معاوية، ومع هذا فقد كان هناك بعض التمييز بين سوريا والجزيرة من ناحية الهجرة. ومع هذا فقد أبدت القبائل الساكنة في الجزيرة معاوية، خشية أن تسؤ أحوالهم اكثر إذا ما نجح علي وطبّق عليهم سياسته (أنظر ص ١٢٩ – ١٣٢ من هذا الكتاب).

(٣٣) مزاحم، وقعة صفين، ص ٤٠–٥٨.

(٣٤) نفس المصدر، ص ٤٢ و ٤٩.

رضي أكثر القرّاء بالتحكيم ولكن العامل الحاسم في قبول علي به كان موقف الأشعث بن قيس [٣٥] .

فبوصفه زعيم اكبر قطاع في جيش علي فقد كانت بيده موازين القوى ، وكان أتباعه يضمّون كل أهل الردة في الكوفة إضافة الى الوافدين الجدد الى العراق ، وهؤلاء الرجال الذين عادت عليهم سياسة عثمان بالنفع والفائدة كانوا أقل الناس حماساً للحرب بين جماعة علي . وقد بدأوا يدركون الآن وبعد ثلاثة شهور من المواجهات السلمية مع أهل الشام ان الحرب لا تحقق لهم أياً من أهدافهم . وما ان رأى الأشعث قلوب جماعته تميل عن القتال حتى اصبح القبول بالتحكيم أمراً لا ندحة عنه [٣٦] .

وقد اختير عمرو بن العاص فاتح مصر لتمثيل أهل الشام في التحكيم واختار أهل العراق – على كره من علي ورغم معارضته القوية – أبا موسى الأشعري لتمثيلهم في التحكيم .

ومن الصعب أن نتبين لأول وهلة أسباب اختيار أبي موسى وخاصة وأن علياً عارض فيه كل المعارضة . ويبدو أن القرّاء هم الذين أصرّوا على هذا الاختيار [٣٧] . وكان أبو موسى قد اشتغل منذ أول أيام الفتح في العراق قائداً أول الأمر ثم والياً على الكوفة ثم على البصرة بعد ذاك . وكان من معارضي عثمان أيضاً ، وكان تعيينه لإمارة الكوفة – كما رأينا ذلك من قبل – بإلحاح شديد من القرّاء بعد أن طردوا منها عامل عثمان عليها سعيد بن العاص [٣٨] .

وكانت مؤهلات أبي موسى هي ارتباطه السياسي الدائم مع القرّاء ومعرفته الوافية بفتح العراق وحكومته . وهذا هو بلا شك سبب اختياره للتحكيم .

أما عمرو بن العاص فهو أحد قواد الفتح السوري وفاتح مصر وأميرها . ولطول إقامته

---

(٣٥) نفس المصدر ، ص ٥٤٩ – ٥٠ و ٥٥٣ و ٥٦٠ و ٥٧١ و ٥٧٦ . الطبري ، ص ٣٣٣٠ و ٣٣٣٢ – ٣ .

(٣٦) مزاحم ، وقعة صفين ، ص ٢٣١ و ٢٥٥ .

(٣٧) نفس المصدر ، ص ٥٧٢ والطبري ، ص ٣٣٣٣ .

(٣٨) أنظر ص ١٠٩ من هذا الكتاب .

في فلسطين فانه يستطيع أن يدعي معرفة بأحوال بلاد الشام كمعرفة أبي موسى بأحوال بلاد العراق.

ولا تذكر مصادرنا بتفصيل ووضوح ما جرى بحثه بين الحكمين، والاشارات القليلة المتناثرة فيها حول الموضوع لا تشفي غليل الباحث. ولكن اكثر الأشياء بروزاً هو معرفة كلا الحكمين بالبلاد التي يمثلها معرفة شاملة دقيقة لا يبلغ شأوهما فيها أحد. وهذا يعني بأن أحد القضايا الأساسية في البحث كانت قضايا العلاقة بين سوريا والعراق وحلّ المشاكل الناجمة بينهما بسبب الفتوح. كما ان كون أبو موسى شديد الارتباط بالقرّاء تكشف لنا أن القرّاء قد قرروا تحويل المفاوضات بين سورية والعراق الى صالحهم، بل الواقع انهم أرادوا أن يكونوا طرفاً ثالثاً في النزاع.

وعلى كل حال، فلما وضع جدول أعمال مؤتمر التحكيم أصبح واضحاً لاكثرية القرّاء، وبشكل مؤلم، أن السوريين والعراقيين غير راغبين مطلقاً في إعادة امتيازاتهم لهم. وفي هذه اللحظة بالذات ظهر الانهيار المفاجئ والنهائي لحلف علي.

فالقرّاء الذين حملوا علياً على قبول التحكيم والذين فرضوا عليه مرشحهم أبا موسى ممثلاً له بالتحكيم، عادوا الآن فغيّروا رأيهم ورفضوا فكرة التحكيم نهائياً وقرروا أن يتصرّفوا حسبمَا يشاؤون [٣٩] وخرجوا من جيش علي وذهبوا الى المناطق التي كانوا يعتبرونها أملاكهم الخاصة، على أمل أن يستعيدوا سابق سلطانهم ومراكزهم المنهارة [٤٠]. وقد أصبح هؤلاء القرّاء السابقون يعرفون الآن باسم «الخوارج» [٤١]. وهنا يجب التمييز بدقة بينهم وبين مَن سيليهم من الخوارج وفوق هذا كله يجب ألا ينظر اليهم على أنهم خارجون عن الاسلام.

وقد استطاع علي أن ينقذ الوضع جزئياً إذ التقاهم في النهروان قبل أن يتفرّقوا الى بلدانهم فاستطاع أن يقنع البعض منهم بخطأ قرارهم، فمن اقتنع منهم عاد الى الكوفة ومَن

(٣٩) مزاحم، وقعة صفين، ص ٥٨٧-٩٠. الطبري، ص ٣٣٣٨-٩.

(٤٠) الطبري، ص ٣٣٦٤-٥ و ٣٣٨٠.

(٤١) الطبري، ص ٣٣٣٠ ومزاحم، وقعة صفين، ص ٥٦٠-٥٧٢ وابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٦٤.

أصرّ على رأيه فقد اضطر على قتاله. وقد قاتلهم علي حتى قضى على اكثرهم وتفرّق الباقون منهم وفرّوا الى أريافهم.

وبالنسبة الى هذا الجيل وما بعده فقد ظل الخوارج يحاربون حربهم اليائسة وكانت فئات صغيرة منهم قد يصل عددها الى حدود الثلاثين نفراً من أفراد قبائل مختلفة، تقيم نفسها في مختلف الأنحاء من الأرياف كسلطة تجمع الضرائب وتوزّع الرسوم فيمّا بينهم. وقد انتخبت إحدى هذه الجماعات لها أميراً للمؤمنين لم تكن له أية سلطة من أي نوع كانت.

وقد كانت هذه الجمهوريات الصغيرة، والعنيفة والشديدة البأس، تفتقر دوماً الى تأييد السكان المحليين لها، ومع ذلك فقد كان اعتقادهم بحقوقهم المقدسة اعتقاداً حماسياً وعاطفياً فظلوا قرنين من الزمان يحاربون أعداءهم قبل أن ينهاروا نهائياً تحت أعباء الجهد والفشل [٤٢].

وقد رجع علي الى الكوفة ينتظر فيها نتائج التحكيم، لكن موقفه كان ينهار بسرعة مرعبة. فالحكمان لم يريا ما يستدعي العجلة فلم يجتمعا إلا بعد اكثر من عام. وقد حضرا الاجتماع ومع كل منهما حاشيته التي تبلغ الأربعمائة شخص. والواقع أن ما قرره الحكمان ليس مهماً لأن الأحداث نفسها سبق وحسمت الموضوع. فان نتائج صفين قد أضرّت بموقف علي كل الاضرار [٤٣]، لأن مجرد قبوله، وهو أمير المؤمنين - بالتحكيم هو مأساة بحد ذاته، ليس فيه من الزكانة وبُعد النظر شيء كثير، وإنما فيه إسقاط لما يدّعيه من الحق في السلطة الدينية في كل الأمور التي تهم الجماعة. وكانت هذه أوجع الضربات التي وجهت اليه، ثم تبعها تمزق حلف أنصاره وانهياره وكان القرّاء أول من خرج عليه من بين هؤلاء الأحلاف. فمن لم يستسلم أو يقتل منهم أصبح عدوه اللدود. واذ اندحر القرّاء في النهروان لم يبقَ للمهاجرين الجُدد، وهم العنصر الثاني في حلف علي، ما يغريهم بالحرب مع علي وخاصة وان أهل الشام كانوا على استعداد للمصالحة.

---

(٤٢) الطبري، ج ١، ص ٣٤١٨-٢٩، وج ٢، ص ١٧ و ٢٠ و ١٢٧ وابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٩٠ و ٣٠٨ و ٣١٣ و ٣١٤.

(٤٣) ابن خياط - تاريخ، ج ١، ص ١٧٤.

وقد حاول علي أن يشد قبضته على القبائل بإعادة تنظيم التجمع القبلي في الكوفة وذلك بإبدال رجال مثل الأشعث بغيره من ذوي السابقة في الاسلام والذين أخلصوا الى علي. وعلى هذا عيّن حجر بن عدي، وهو رئيس من رؤساء القرّاء ممن لم يخرجوا على علي، رئيساً لبني كنده وحلفائها بدل الأشعث بن قيس(٤٤).

وكانت هذه خطوة يأس غير موفقة ولعلها ساعدت على الاسراع في انفراط القبائل من حول علي.

ومع ذلك فقد حاول علي جاهداً أن ينظّم جيشاً جديداً، ولكنه فشل في هذا لأن الحلف الذي كان سند حكمه أول مجيئه الى الحكم قد مزقته تناقضاته فتبدد شذر مذر والى غير رجعة.

ولم يبقَ معه الآن إلا الأنصار وبقية من القرّاء وبضع بطون من العرب وكان حربهم مع جيوش الشام لا أهمية له. فلذلك فان الهدنة غير الرسمية وغير السهلة انتهت بصورة طبيعية الى نوع من التعايش السلمي حتى اغتيل علي ابن أبي طالب عام ٤٠/٦٦١. وقد خلفه ابنه الاكبر الحسن ولكنه سرعان ما تنازل عن الحكم وقد تبدد حلف علي وسقطت مصر بيد معاوية بفضل عمرو بن العاص. وأصبحت قوة معاوية الآن أمراً لا يمكن مقاومته. وقد استطاع معاوية أن يقنع الحسن بالتنازل له عن حقه في الخلافة مقابل مبلغ من المال يؤمن له عيشاً رغداً في المدينة طيلة حياته.

واذ اغتيل علي وتنازل الحسن فقد سقطت إمارة المؤمنين في أحضان معاوية واعترف به حاكماً جديداً على الجماعة الاسلامية من جميع الفئات باستثناء الخوارج.

وكان نظام المدينة قد أفلس، وزال ادعاء قريش في الحكم، واعتبرت خلافة علي نوعاً من السقوط المؤسي، وصار على معاوية الآن أن يبتكر أنماطاً جديدة للحكم يدير بها هذه الامبراطورية الواسعة.

(٤٤) الطبري، ج ١، ص ٣٣٧١ و٣٣٨٥ و٣٤٤٧.

الفصل الخامس

معاوية والحرب الأهلية الثانية

كان معاوية رجلاً حليماً ، والحلم خير ما يوصف به طبع معاوية وأسلوبه في الحكم والقيادة . فقد اشتهر بهدوء أعصابه وصواب أحكامه مهما يبلغ ضغط العمل عليه . وكان لا يتخذ قراراً إلا بعد رويّة وطول تفكير وتقليب للأمر على كل وجوهه ، وكان يتجنّب – ما أمكنه ذلك – التلويح بالقوة كحل لما يستعصي من المشاكل ، وإنما كان يدرس المشكلة من جميع أوجهها ويستقصي – بعمق وتفهّم – العوامل التي كوّنتها أو أدّت اليها وبتغيير بسيط ، ولكنه متقن ومدروس ، لأحد هذه العوامل أو لترتيب ورودها يستطيع أن يصل الى حل وسط يرضي الأطراف المعنية ولو الى حين.

لذلك كان معاوية سريعاً في تقديم الحلول وطرح الخيارات ، وكان يعامل أعداءه المدحورين بكل كرم وسماحة خلق يصون لهم ماء وجههم ويحفظ لهم كرامتهم ويضمن له محبتهم وولاءهم.

وكان ذهنه ذهناً سياسياً عملياً مطبوعاً على الروية وضبط النفس ، وزعيم مثل هذا هو بالضبط ما تحتاجه الأمة في هذه المرحلة من تاريخها . وقد نجح معاوية ، طيلة حياته على الأقل – فيمَا كان يحاوله من إقامة دولة آمنة وطيدة الأركان ، أما انهيارها بعد ذهابه فهو دليل على دقة المشاكل وتشابكها في تلك الفترة من الزمان . فالمرء في غير حاجة للمبالغة والتهويل حين يصف قلق الأوضاع وتضعضعها عند وفاة علي . فقد كانت الامبراطورية قد خرجت لتوّها من حرب أهلية منهكة خلقت عدداً من المشاكل الجديدة اكثر مما حلّته من المشاكل القديمة . ولذلك فلم يكن بالامكان قيام أي حل شامل دائم طالما كانت أهداف الجماعات السياسية المتعددة متباينة فيمَا بينها وغير قابلة للوفاق.

ولكن حلم معاوية كان يسع كل شيء ، وادراكاً منه لصعوبة تحقيق أهداف أية فئة

من فئات الجماعة الاسلامية تحقيقاً كاملاً شاملاً فانه بدأ يستغلّ الرغبة العامة عند الجميع بالحياة السلمية لتكون حجر الزاوية في سياسة الوفاق التي انتهجها متجنباً اللجوء الى القوة والعنف. وهو وان يكن قد أصبح الآن «أمير المؤمنين» إلا أنه كان يتصرف مع الزعماء الآخرين تصرف الندّ الاكبر بين أنداد متساوين في المركز والحقوق ليس غير، واذ رأى بأُمّ عينيه المصير الأليم لنظام حكم علي فقد تجنب بكل حذر وانتباه الادعاء بأية سلطة دينية، ورغم ان حكمه كان يبدو في ظاهر الأمر مماثلاً لحكم أبي بكر وعمر، إلا أنه كان يختلف ويتميز عن حكمها بوجود جيش أهل الشام بين يديه والذي كان يضفي على مناوراته السياسية قوة الالزام. ولذلك فقد كان قادراً على أن ينفذ، بنجاح، سياسته في الارضاء والوفاق وأن يقوي سلطة حكومته المركزية.

ولم يكن معاوية، في أول أمره، راغباً في تغيير أي من الأوضاع القائمة، فقد كان يحترم جميع القوى العاملة في الساحة السياسية قاصراً تدخله على دور الحكم الذي يحفظ التوازن بين هذه القوى.

قد اعتمد القريشيين للتعيين في المناصب الهامة في الدولة مفضلاً أن يكسب مكانتهم وسمعتهم لصالحه بدل أن يكونوا ضده.

وفي نفس الوقت استطاع بمرونته السياسية أن يبعد نفسه عن القريشيين المتطرفين الذين شاركوا في ثورة طلحة والزبير. وكان في نفس الوقت أيضاً حريصاً على احترام قوة التجمعات القبلية المتعددة، وكان تصرفه مع أنصار علي تصرف الحليم الذي قدر فعفا، فحفظ لهم كرامتهم، وكسب تأييدهم[1].

وقد وجد معاوية، انه لكي يضمن لنفسه تأييد القبائل العربية ذات النزعة الاستقلالية القوية والمنتشرة في أنحاء الامبراطورية، سواء منها ما كان معه أم ضده — في حربه ضد علي، فلا بدّ له من أن يمنحها شيئاً من الحكم الذاتي. ولذلك فقد كانت سياسته أن يؤكد على سلطة الحكومة حين يجد ذلك مجدياً فاذا ما مانعت القبائل في ذلك استجاب لها راضياً وأعطاها ما يرضيها.

---

(١) الطبري، ج ٢، ص ٧-٨ وابن اعثم - فتوح، ج ١، ص ٩٩ ب-١٠٠آ.

وللحفاظ على هذا التوازن الدقيق بين الحرص على استقلالية القبائل من جهة وعلى توطيد سلطة الحكومة المركزية من جهة ثانية ، احتاج معاوية الى أدق المهارة السياسية والى حسن اختيار عماله في الأقطار.

وقد ساعده على النجاح في خطته هذه أيضاً ظهور موجة جديدة من حروب الفتوح والتوسع على جميع الجبهات حيث وجهت الثروات الجديدة والمغانم الكثيرة أنظار القبائل العربية صوب بلاد الأعداء. وفي نفس الوقت ساعدت حروب الفتوح هذه على إغناء بيت المال بالثروات بعد أن تركته الحروب الأهلية خواء خالي الوفاض ، وبذلك توفر للحكومة ما هي بأمسّ الحاجة اليه من المال والوقت لوضع سياستها.

وقد أُعيدت ولاية مصر ثانية الى يدي عمرو بن العاص القديرتين المخلصتين ، حيث قاد منها العرب في حملات الى شمال افريقيا عادت عليهم بنصر سهل ومغانم وفيرة أرضت كل الأطراف المعنية. والظاهر أن رضى القبائل العربية كان تاماً وشاملاً بحيث مكّن عمراً من إرسال الفائض من واردات مصر الى بيت المال في دمشق.

ويجب النص هنا ، انه فيما عدا عطاء رؤساء القبائل والبالغ ٢٠٠ درهماً في العام لكل رئيس ، فان مصادر الأخبار لا تذكر شيئاً عن أي عطاء آخر في مصر ، واكثر من هذا فيبدو أن ابن العاص لم يكن مثل ابن أبي سرح عامل عثمان ، مهتماً بالعمليات الحربية لذلك فقد أدى إهماله لها الى توفير آخر في النفقات. وبهذا وذاك تم التغلب الآن على الأزمة المالية التي نشأت بعد الفتح ، حتى ان عمراً استطاع ، بعد دفع جميع النفقات ، أن يرسل الى معاوية في دمشق الشام مبلغ ستمائة ألف درهم [٢] . وبعد وفاة عمرو بن العاص عام ٤٣ /٦٦٣ استمر خلفاؤه على ولاية مصر على هذا المنوال كما استمر نجاحهم في شمال أفريقيا.

وفي بلاد الشام نفسها كانت القبائل راضية بانتصاراتها وبحفاظها على مركزها المتميّز تحت ظل معاوية. وكان بعض أفراد هذه القبائل قد طلب ، أو ربما حاز ، قبل صفين

(٢) الكندي – الولاة ، ص ٣٢–٣ ، ابن عبد الحكيم – فتوح مصر ، ص ١٩٣ – ٤ والمقريزي – الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣١.

بعض الأراضي [٣] . أما بعد الحرب فقد عادوا جميعهم الى ديارهم في أنحاء بلاد الشام ليستأنفوا حياتهم العادية وأعمالهم القديمة.

ومع ان هذه القبائل ، كانت عماد قوة معاوية وقاعدتها ، فانه أبقاهم – طيلة حياته وبكل حكمة وحرص – داخل سوريا وتجنّب استخدامهم خارجها.

وعلى انه ، ولربما كان هذا لمصلحتهم ، كان يرسل هذا الجيش في صيف كل عام الى حدود الروم ليغير على بلادهم ويتوغل في أعماقها ويعود منها بالمغانم والمكاسب الوفيرة والثمينة. وكانت هذه الصوائف في أول الأمر محدودة صغيرة النطاق ، إلا أن ضعف المقاومة الرومية شجع العرب على توسيع هذه العمليات العسكرية فأخذت بعض هذه الحملات الصيفية تطول وتمتد الى الشتاء وتستغرقه كله. وكان الأسطول العربي يشترك بعض الاحيان في مساندة هذه الحملات. وكان العرب قد احتلوا جزيرة رودس عام ٥٢/٦٧٢ ثم جزيرة كريت عام ٥٤/٦٧٤ ثم استطاعوا الحصول على قاعدة بحرية في بحر مرمرة اتخذتها الجيوش العربية مقراً شتوياً لها ومنها كانت تنتشر في الربيع الى بلاد الروم حتى تصل الى القسطنطينية نفسها ، وظل الحال على هذا المنوال سبع سنين (٥٤–٦٠/٦٧٤–٨٠) أي حتى وفاة معاوية [٤] .

ولم نسمع بعطاء منظم كان يدفع للعرب إلا في الحملات البحرية الطويلة الأمد ، مثل احتلال رودس [٥] . ونحن نعرف أن المواطنين السوريين والمصريين الذين كانوا يعملون ربابنة أو جدّافين أو ملاحين في هذه الأساطيل كانوا يتقاضون أجوراً معينة عن عملهم طيلة مدة الحملة. ولهذا فمن المنطقي أن نفترض أن العرب ، وهم القوة المقاتلة الفعلية ، كانوا يعوّضون أيضاً عما يتركونه وراءهم من وسائل الرزق والمعيشة.

أما بقية العرب في سوريا الذين يقتصر اشتراكهم على الصوائف ، أي حملات

---

(٣) ابن أعثم – فتوح ، ج ١ ، ص ١١٢ – آ و ب. وهي الرواية الكاملة لما ذكره مزاحم ، وقعة صفين ، ص ٤٩٥–٥.

(٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦ و٢٧ و٦٧ و٨١–٨٧ و١١١ و١٥٧ و١٦٣ والبلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٦.

(٥) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥٧.

الصيف فقط ، فلعلهم كانوا يكتفون بما يصيبهم من الغنائم. وعلى كل حال ، فان نظام العطاء المنتظم لم يكن معروفاً عند عرب بلاد الشام في هذه الفترة.

وكانت بلاد الجزيرة ، أو ما بين النهرين ، تشكل مشكلة لمعاوية. إذ لم تكن في الأصل جزء من بلاد الشام ، لكن عثمان أضافها اليه(٦) ولم يكن هذا قراراً صائباً لاختلاف التركيب القبلي في هذه المنطقة عنه في بقية بلاد الشام.

ولكي نفهم أسباب هذا الاختلاف يجب علينا أن نعود الى أيام الفتح الأولى.

فأول جيش أرسله أبوبكر كان عدده محدوداً بسبعة آلاف شخص من أهل مكة والمدينة وما جاورهما ، وكانت غالبيتهم من البطون القيسية في الحجاز وفي شبه الجزيرة العربية. وكان هؤلاء هم أبطال أجنادين ، وكانوا الطبقة الأكثر امتيازاً في جيش أبي عبيدة في اليرموك(٧) ، ولهذا فلما أراد أبو عبيدة أن يوزع جيشه على بلاد الشام ليستكمل فتح أجزائها كافة ، عهد من باب الاكرام والإيثار ، الى هؤلاء المحاربين القيسيين بمهمة فتح بلاد الجزيرة الغنية بثرواتها.

ومع ان هذه المنطقة تعتبر الخط الأساسي من خطوط الدفاع البيزنطية الشرقية ، وهي لذلك محكمة التحصين ، فقد قدّر للقيسيين عزلها وبالتالي فتحها بسرعة ويسر(٨) .

ونتيجة للحروب الساسانية الرومية ، والفتوحات العربية فان أرض الجزيرة الواسعة الثرية كانت قليلة السكان مما ترك مساحات كبيرة من أراضيها الزراعية الخصبة خالية مهجورة ، فأسرع القيسيون الفاتحون الى تملّك هذه الأراضي ، لا يدفعون عنها إلا العُشر(٩) .

وبعبارة أخرى فان بضعة الآلاف هؤلاء اعتبروا جميع المقاطعة ملكهم الخاص. وبهذا الزعم مدوا سيطرتهم عليها ، وظلوا خلال خلافة عمر يحكمون بلاد الجزيرة هذه كمقاطعة مستقلة.

---

(٦) البلاذري – فتوح ، ص ١٧٨.

(٧) أنظر ما تقدم ص ٨٤ من هذا الكتاب.

(٨) البلاذري – فتوح ، ص ١٧٢.

(٩) البلاذري – فتوح ، ص ١٧٥ و١٧٧.

ومع التسليم بما أداه هؤلاء القيسيون من خدمات بارزة الى بلاد الشام إذ حموا لها جناحها الشرقي من احتمال أي هجوم بيزنطي على الفرات ، فانهم في الوقت نفسه قد انتفعوا كثيراً من غزواتهم في أرمينيا ، ولذلك فقد كانوا يأملون أن يعاملوا معاملة العرب في بلاد الشام وخاصة فيما يتعلق بمنع الهجرات الجديدة الى الجزيرة أو على الأقل ضبطها أُسوة بما هو جارٍ في بلاد الشام. ولكن بسبب قلة السكان في الجزيرة مع وفرة الغنى والأراضي فيها فانّ هذا المطلب لم يكن منطقياً ولا عملياً. وكان الضغط بطلب الهجرة أيام عثمان قد اشتد كثيراً مما اضطره أن يخفف منه بفتح باب الهجرة الى الجزيرة ، ثم قرر بعد ذلك إلحاقها بولاية معاوية في الشام بهدف خلخلة وحدة وتماسك هؤلاء الفاتحين الأوائل هناك.

وقد استمر معاوية في العمل على التقليل من مركز هذه الجماعة المتميزة ، حتى اضطر هؤلاء القيسيين على قبول مهاجرين جدد من ربيعة ومضربين ظهرانيهم. ولكن في سبيل تخفيف وقع هذا القرار عليهم فقد رتب أن يكون نزول هؤلاء الوافدين الجدُد في الأراضي المهجورة الخالية من السكان والمتوافرة بكثرة في بلاد الجزيرة[10].

ومن الواضح أن هؤلاء الوافدين الجدُد قد استبعدوا عن الغارات المربحة في أرمينيا ، وقد استقرّ بعضهم في نقاط استراتيجية على تقاطع الطرق العسكرية أو عند مداخل المضايق الجبلية ليحموا الجزيرة من هجمات الروم المفاجئة. وكانت «ملطية» على الفرات واحدة من أشهر هذه المسالح أو الرابطات ، أي النقاط أو الحاميات العسكرية التي أُقيمت هناك[11].

وهناك نسمع ثانية بالعطاء المنظم يدفع الى هذه القبائل بالذات التي عهد اليها بمهام عسكرية دائمة[12].

وقد نفّذت هذه الترتيبات في الجزيرة – كما هو سمة طبع معاوية وأسلوب عمله – بالتدريج وعلى مدى أمد طويل. ويبدو أن سياسته التوفيقية هذه قد أرضت جميع الأطراف المعنية كما هو واضح من اجماعهم على نصرته في حربه ضد علي.

---

(١٠) البلاذري ، ص ١٧٨.

(١١) نفس المصدر ص ١٨٥.

(١٢) نفس المصدر ص ١٧٨.

ولربما ظن القيسيون ان الانضمام الى معاوية هو أهون الشرّين بالنسبة لهم ، ولكن مما له دلالة واضحة في هذا الصدد اننا لن نسمع في صفين بقيس تخاصم كلباً أو مضر تخاصم اليمن ، ولم نرَ هذه الخصومات تذر قرنها من جديد في بلاد الشام والجزيرة إلا بعد وفاة معاوية .

ويبدو أن معاوية قد فرض من جديد على عرب الجزيرة قبول وجبات جديدة أخرى من المهاجرين عند إعادة تنظيم الكوفة والبصرة مما سنأتي على ذكره بعد قليل [١٣] .

وقد احتملت قيس هذه الاجراءات في حياة معاوية ، ولكنه ما إن توفي حتى بدأت قيس تكشف عن سخطها وتذمرها .

وكان مما أسخط القيسيين أنهم وحدهم ، ودون القبائل اليمَانية في بلاد الشام ، قد أفردوا بهذه المعاملة الظالمة التي اعتبروها ضربة لا تغتفر لكرامتهم ومقامهم ورفاههم . وما الانفجار المدوّي الذي حدث بعدوفاة معاوية بين قيس واليمن إلا دليل دقة الوضع وقلقه في الجزيرة ودليلاً على صعوبة مهمة معاوية في إيجاد الحلول التوفيقية لمثل هذه المشكلة المعقّدة الحساسة .

* * *

وكان العراق هو أصعب الأقطار دون شك أو جدال . وكان على معاوية أن يستخدم كل ما في جعبته من الحلم والدهاء ليحمل القبائل العربية هناك على القبول بسياسته .

ولم يشأ أول الأمر الإقدام على تغيير ما في أوضاع البلاد وإنما اكتفى بالعمل على إعادة تلك الأوضاع الى ما كانت عليه قبل وقوع الحرب الأهلية .

وقد عيّن لإمارة الكوفة المغيرة بن شعبة ، المعروف بدهائه السياسي وبخبرته الطويلة بمشاكل الكوفة ، فحاول خلال ولايته لها (٤١ — ٥٠ / ٦٦١ — ٦٧٠) أن يأتلف قلوب أهليها في حين كان معاوية يحاول بالمال أن يكسب نصرة رؤسائها له .

---

(١٣) الطبري ، ج ١ ، ص ٢٦٧٣ — ٤ وج ٢ ، ص ١٢٧ و١٤٢ ، وابن حزم ، علي بن محمد ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٥٦ .

أما البصرة فقد أُعيد الى ولايتها عام ٤١ – ٦٦١ القائد الهام عبد الله بن عامر الذي بدأ ولايته في الحال بتجييش الجيوش وإرسالها من جديد الى المشرق. وكانت حملات ابن عامر على أيام عثمان قد حققت فتح الممتلكات الساسانية الشرقية، فاستسلمت للعرب مدنها وبلدانها الواحدة بعد الأخرى، وعقد دهاقينها، أي حكامها المحليون، اتفاقات صلح مع الفاتحين كانت تقضي بأن تدفع كل مدينة أو منطقة فريضة للعرب مبلغاً محدوداً من المال كل عام.

ومما يجب أن يلاحظ أن العرب لم يحاولوا التدخّل في أمور تقدير الضرائب وجمعها، وإنما تركوا هذين الأمرين الى الدهاقين الذين كان من واجبهم أيضاً أن يسلموا للعرب مبالغ الجزية أو الفريضة التي تنص عليها اتفاقات الصلح بين الطرفين.

وكانت هذه الاتفاقات – في الواقع – هي أساس العلاقات بين العرب الحاكمين وأبناء البلاد المحكومين، وظلت كذلك طيلة العهد الأموي.

وكان فتح مرو عام ٣١/٦٥١ قد وضع العرب أمام الحدود الساسانية القديمة حيث أدركوا أن أي تقدّم آخر نحو الشرق سيؤدي الى توريطهم بحروب متواصلة مع جيوش الامارات الهيطلية القديمة. ولذا فقد رأوا أن الاصوب أن يلمّوا شتات قواتهم ويحصّنوا مراكزهم في خراسان قبل الاقدام على أية خطوة جديدة في ذلك الاتجاه.

ولم تكن هناك – لحد الآن – أية خطة لاستقرار القبائل العربية في خراسان بصورة دائمة. وكانت سياسة العرب في ذلك الوقت أن يرسلوا كل عام حملة من البصرة لتغزو البلاد التي لم يتصالح أهلها مع العرب بعد ثم يعودوا الى أهليهم في البصرة عند انتهاء الحملة في الخريف تاركين في خراسان حامية عربية تتألف من أربعة آلاف مقاتل للحفاظ على المنطقة حتى عودتهم اليها. وكانت هذه الحاميات العربية تعسكر عادة في القرى الواقعة في واحة مرو، حيث «يوسع أهل مرو للمسلمين في منازلهم»، كما تقضي بذلك معاهدة الصلح بين الطرفين[١٤].

وكانت سجستان من أملاك الساسانيين قد فتحت عام ٣٢/٦٥٢، وعسكرت قوة

(١٤) م. ع. شعبان: الثورة العباسية، الترجمة العربية، ص ٦٢–٦٥.

عربية في حاضرتها الكبرى زارنج ، وفي نفس الوقت كانت تجري في كرمان تطورات هامة ذات دلالة خاصة. ففي عام ٦٥٠/٣٠ فتح ابن عامر، وهو في طريقه الى خراسان ، قسماً من أرض كرمان وترك بعضاً من جيشه فيها لاستكمال فتح بقية أجزائها.

وكان جيشه قادراً بطبيعة الحال على إتمام هذه المهمة لولا أن سكان البلاد الذين غلبوا على أمرهم جلوا عن البلاد تاركين أرضهم ودورهم خلاء مهجورة ، فاقطع العرب الفاتحون أنفسهم هذه الأراضي والدور واستقروا فيها يعمّرونها ويؤدّون العشر عنها (١٥) .

وخلال أعوام الفتنة ، توقفت الحملات على خراسان وقامت فيها بعض الانتفاضات التي هددت مركز العرب هناك ، لكن الحامية العربية في مرو استطاعت أن تقمع حركات التمرّد هذه وان تحتفظ بمواقع العرب في خراسان.

ولكن الأمر لم يكن كذلك في زارنج في سجستان ، اذ أخرجت منها الحامية العربية وعادت البلدة الى حكم أهلها.

واذ وضعت الآن تبعة إعادة السلطة العربية الى المشرق على عاتق ابن عامر ثانية ، فقد جهز حملة كبيرة عام ٦٦١/٤١ ووجّهها الى سجستان فكان أول عمل لها إعادة احتلال زرنج ، فما ان تمّ لها ذلك حتى بدأت فتح جبهة جديدة مع زنبيل ملك زابولستان حيث دحره العرب في أول مواجهة بينهما واحتلوا كابل بعد حصار دام بضعة أشهر.

وقد ثبت أن هذا المجهود لا طائل تحته اذ ظلت زابولستان مصدر مقاومة للحكم العربي مدة قرنين من الزمان. فقد كانت بلادهم الجبلية الوعرة اكثر ملائمة لحركاتهم ومناوراتهم منها للنشاط العربي الذي لم يعتد على الحروب في الجبال. والواقع أن الجبال كانت دوماً العائق المانع في طريق الجيوش العربية في كل مكان. لكن الأمر الظريف أن نجد أن ابن عامر يعلق على جبهة سجستان آمالاً كباراً ويفضلها على جبهة خراسان. وهذا هو التفسير الوحيد لجموده الواضح عن العمل في جبهة خراسان. اذ اكتفى منها بتغيير جند الحامية في مرو بين الحين والآخر دون أن يكلف نفسه بدء الحرب مع الخراسانيين من جديد. ويبدو وكأنه يواجه بعض الصعوبة في التعامل مع القبائل العربية في البصرة نفسها ذلك لأن أعداداً كبيرة من المهاجرين الجدد وصلت البصرة وسبَّبَ وصولها توتراً

(١٥) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٩٢.

بين المجموعات القبلية المتعددة المستقرة هناك من قبل (١٦) . واذ أزعجت هذه الأخبار معاوية فقد نحى عبدالله بن عامر عن ولاية البصرة عام ٤٤/٦٦٤ ليحلّ محله الوالي الشهير زياد بن أبيه.

وكان زياد بن أبيه –كما يوحي بذلك اسمه– إبناً غير شرعي، وليس له مكانة قبلية مُعترف بها، ولكنه أبرز منذ صباه كفاءة وقدرة على تدوير الأمور فتحتا له مدارج الرقي والتقدّم في حكومة العراق. وكان من أنصار علي وظل معه حتى النهاية، إلا أن معاوية وقد شهد كفاءته استدرجه الى صفّه وكان ثمن ذلك اعتراف معاوية – على أساس من دليل واهٍ – بزياد أخاً له من أبيه أبي سفيان فصار يدعى زياد بن أبي سفيان. ثم عيّنه أخوه والياً له على البصرة والتي تشمل ولايتها خراسان وسجستان.

وقد انتهج زياد –شأن سلفه ابن عامر– سياسة التوسع في الفتوح، ولكن بينما اختار ابن عامر مقاطعة سجستان، وهي أوعر المناطق وأصعبها، ميداناً لفتوحه، اختار خلفه زياد خراسان ميداناً لحملاته.

ولم يكن أهل البصرة – على العموم – براغبين في السير للحرب في جبهات بعيدة وهم، بعد، أقل رغبة للقتال في مناطق أقلّ مكسباً من غيرها، مثل سجستان، لذلك وفي مثل هذه الظروف فان اختيار زياد بلاد خراسان كان أقرب الى تحقيق الرغبة العامة عند الجميع.

واختار زياد الحكم بن عمرو الغفاري قائداً للحملة على خراسان، وهو من صحابة الرسول عليه السلام، وقد هدف زياد من اختياره هذا أن يضفي على الحملة مغنى خاصاً. لكن الحكم تعثّر في صعوبات جمّة عند جمع الجند لحملته ولم يستطع أن يؤمّن لنفسه العدد الكافي إلا بعد سنتين ولما وصل بعد ذلك الى خراسان عام ٤٧/٦٦٧ زحف شرقاً ضد الامارات الهيطلية في كوزجان وغار جستان، واستطاع رغم عنف المقاومة وضراوتها، أن يؤمن السيطرة العربية في هذه البقاع الجديدة.

وليس في مصادرنا خبر يقين عما اذا كان الحكم قد استمر في حروب أخرى أم انه

(١٦) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، الترجمة العربية، ص ٧١.

توفي عام ٤٧ /٦٦٧ أو ٥٠ /٦٧٠ ، ولكن اليقين أن صحابياً آخر خلفه على قيادة الجيش وهو غالب بن فضالة (أو عبدالله) الليثي الذي استمر ينفّذ سياسة زياد ويقود حملاته في المشرق.

ويبدو أن الحملة التي توجهت الى خراسان عام ٤٧ /٦٦٧ لم تعد الى البصرة في الخريف التالي كما هو المعتاد. وإنما ظلت في خراسان مما قد يحملنا على الظن بأن أفرادها لم يكونوا ذوي صلات وثقى مع البصرة، أو بعبارة أخرى، فلعل هذه الحملة قد جنّدت من المهاجرين الجُدد الذين كانوا قد وصلوا الى البصرة حديثاً ولم تضرب جذورهم فيها بعد [١٧].

وفي هذه الفترة كان زياد منهمكاً في البصرة في إعادة التنظيم الاداري للمدينة، الأمر الذي سيكون له أبعد الآثار في مستقبل الأمور.

وقد سنحت الفرصة لزياد أن يطبق هذه الاصلاحات الادارية على الكوفة أيضاً. اذ انها ضمت الى ولايته بعد وفاة عاملها المغيرة بن شعبة عام ٥٠ /٦٧٠، وبهذا، وللمرة الأولى أصبح والٍ واحد مسؤولاً عن حكم وادارة نصف الامبراطورية تقريباً، ويحظى بتأييد مطلق من أمير المؤمنين.

وقد هيأت هذه الظروف لزياد الفرصة للقيام بإصلاح شامل للتنظيم الحكومي في ولايته الواسعة الشاسعة الكثيرة الاضطرابات المعقّدة المشاكل المتعددة.

وكان النظام الذي أُقيم في البصرة والكوفة أيام عمر قد فقد مقوماته بسبب تدفق الهجرة المستمر وغير المنظم على هذين المصرين. وكانت الوحدة الرئيسية في هذا التنظيم هي «العرافة» وهي مجموعة صغيرة من أبناء القبائل جمعوا مع بعضهم البعض لغرض توزيع الواردات، وحيث ان مقدار هذا العطاء يختلف باختلاف تاريخ وصول المستحق له الى المقرّ الذي يسكنه، فلم يكن من الضروري في ذلك الوقت أن يتفق تكوين العرافات مع التقسيمات القبلية. إذ يجوز أن تحتوي العرافة الواحدة على أفراد من قبائل شتى اتفق وصولهم الى البلد في وقت واحد أو متقارب.

---

(١٧) نفس المصدر ص ٧٢-٧٦.

وكان هذا وضعاً غير طبيعي ، فالقبيلة ما زالت – والى حد كبير – هي الوحدة الأساسية للمجتمع العربي كما يظهر ذلك واضحاً من ترتيبات إسكان أفراد القبائل . واذا لم يتيسر في أيام الاستقرار الأولى عدد كاف من قبيلةٍ ما لتكوّن لنفسها عرافتها الخاصة بها ، فان تدفق المهاجرين الجدد بعد ذلك وانضمامهم الى أبناء عمومتهم من المهاجرين القدامى قد عمل ولا شك على تصحيح الميزان .

وقد أحسّ علي بهذا الوضع الجديد وحاول اصلاحه فلم يسعفه الوقت ولا كثرة المشاكل . أما الآن فان لزياد القدرة والوقت الكافي ليعالج هذه المشكلة علاجاً جذرياً شاملاً ، وقد بدأ خطته بالقضاء على الفساد والمخالفات فأسقط من سجل الديوان أسماء المتوفّين والخوارج . ثم أعاد توزيع العطاء بشكل واقعي يضمن للفرد حاجاته الاجتماعية .

وقد جعل كل قبيلة وحدة ادارية قائمة بذاتها ، ثم قسّمها الى عرافات على رأس كل منها عريف ، لا تقتصر مسؤوليته على استلام العطاء وتوزيعه على أفراد عرافته فحسب ، بل وتتضمن تبعته أيضاً عن حفظ الأمن والانضباط بينهم أيضاً .

وللأغراض الأبعد أثراً فقد جمع زياد القبائل المتقاربة نسباً في مجموعات كبيرة متساوية في الحجم جعل عددها خمساً في البصرة وأربعاً في الكوفة ، وكانت الحكومة تعيّن رئيساً لكل مجموعة من هذه المجموعات وتضمن له اعتراف الجماعة به كما تضمن له تنفيذ سلطته عليها .

ولأن القبائل داخل المجموعة الواحدة ، ومهما تقاربت نسباً فيما بينها ، فان مصالحها الخاصة مختلفة متضاربة ، فان الوحدة والانسجام لم يكونا من طابع هذه المجموعات قط . وكان من الممكن تحريك إحدى الجماعات ضد الأخرى داخل المجموعة الواحدة . وكانت سلطات رؤسائها تخضع الى سلطة الوالي . وهكذا فان تنظيمات زياد الجديدة إنما استهدفت في الواقع زيادة سلطة الحكومة المركزية ونشر الاستقرار والأمان في البصرة والكوفة [١٨] .

وعلى كل حال فقد نتج عن هذا التنظيم ظهور عدد كبير من أفراد القبائل الذين لا مكان لهم في هذه المجموعات الكبيرة وبالتالي لم تذكر أسماؤهم في الديوان في كل من

---

(١٨) نفس المصدر ص ٧١.

البصرة والكوفة. وكان حل زياد لهذه المشكلة بسيطاً وجذرياً في آن واحد. فقد أمر أن ينقل خمسون ألف رجل منهم مع عائلاتهم من البصرة والكوفة الى خراسان ليستقرّوا هناك على وجه الدوام.

ولعل ما شجع زياداً على اتخاذ هذا القرار هو ما يعلمه عن بقاء رجال حملة عام ٤٧/ ٦٦٧ في خراسان وعدم عودتهم منها. وكان يأمل أن يستطيع إقناع هؤلاء المرحلين الجدد بالاستيطان الدائم هناك أيضاً. ولعل بعضاً من عوائل جنود حملة عام ٤٧/٦٦٧ كانوا من ضمن الخمسين ألف عائلة التي أُرسلت الى خراسان عام ٥١/ ٦٧١.

وكان هدف زياد من هذا الإجراء الحفاظ على البلاد التي سبق فتحها وتأمين الجند اللازم لحروب التوسع القادمة هناك. وكان الوالي على خراسان آنذاك هو الربيع بن زياد الحارثي وهو من قدامى المحاربين في خراسان، وفي أيام ولايته ٥١-٥٣/ ٦٧١-٦٧٣ وولاية ابنه من بعده والتي استمرت لبضعة شهور فقط امتد سلطان العرب حتى شواطئ نهر سيحون.

ويجب أن نذكر هنا أن الخمسين ألف عائلة قد سكنت قرى واحة مرو منتفعة كل الانتفاع من نصوص معاهدة الصلح مع أهل مرو التي تضطرهم على «استضافة العرب في دورهم»[19]. وهكذا كانت خراسان، التي أصبحت الآن جزء لا يتجزأ من الامبراطورية العربية الحل والمنفذ لمشكلة زيادة تدفق المهاجرين الجدد الى العراق.

وقد أراد معاوية ان يزيد من سلطة الحكومة المركزية ومن حقها في واردات الامبراطورية عامة. فلجأ الى إحياء سنة قديمة لرسول الله ﷺ وهي اختيار أشياء معينة من المغانم لنفسه والتي تسمى الصفايا[20] ولذلك فقد أوعز الى الحكم أن يرسل الى بيت المال في دمشق كل ما يجمع في خراسان من «البيضاء والصفراء» أي من الفضة

---

(١٩) نفس المصدر ص ٧٢-٧٨.

(٢٠) الصفي من الغنيمة ما اختاره الرئيس من المغنم واصطفاه لنفسه قبل القسمة من فرس أو سيف أو غيره. وهو الصفية أيضاً وجمعه صفايا. أما الصوافي، فهي الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا إرث لها وواحدتها صافية. ومنه قيل للضِياع التي يستخلصها السلطان لنفسه أو خاصته «الصوافي».

لسن العرب لابن منظور (مادة ص ف أ). - المترجم -

والذهب. ولكن الحكم ومن حوله لم يكونوا مستعدين للقبول بمثل هذا التدخل من قبل حكومة الشام، لذلك فقد رفضوا بكل جرأة ووضوح إرسال كل ما يطلب منهم ما عدا الخُمس الشرعي. وعلى طريقته الخاصة، فقد تقبّل معاوية هذا القرار بالسكوت والتسليم في الوقت القائم آنذاك على الأقل[٢١].

وقد جرّ تطبيق هذا المبدأ في العراق الى نتائج أخطر وأشد تعقيداً. وهنا كان موضوع البحث هو الأراضي التي هجرها أهلها الساسانيون ثم حازها القراء على أنها ملكهم الخاص ثم جاء معاوية فاستصفاها لنفسه (أي جعلها من الصوافي)، وأمر أن يرسل وارد ها الى بيت المال في الشام[٢٢].

وأدرك القراء على الفور أن هذا التدبير معناه الإنكار التام لكل حق يدعونه على هذه الأراضي أو على إيرادها، فهاجوا وماجوا وبدأ هياجهم يهدد السلام، القلق أصلاً، في العراق.

ولم يكن في يد معاوية ما يستطيع أن يفعله مع خصوم عنيدين شديدي المراس مثل القراء – الخوارج، الذين لا يكلّون أو يملّون من حرب أو قتال في سبيل ما يعتقدون انه الحق. وليس التشريد بناجع معهم فطالما شرّدوا ونفوا عن أراضيهم ولكنهم سرعان ما يعودون فيجتمعوا من جديد في أي مكان آخر ويعتبرونه جمهوريتهم الجديدة ويستأنفون القتال منه. وعلى كل حال فقد أمكن السيطرة على هذه الحركة وانتفى خطرها[٢٣].

لكن ما أخطأ معاوية في حسابه كل الخطأ هو في تصرفه تجاه القدامى من القرّاء الذين كانوا يعيشون في الكوفة والبصرة بأمن وسلام. فقد ظن أن عدم الالتفات الى اعتقادهم العميق بأحقية مطاليبهم سيدفعهم الى الاستقرار هادئين كأي من أفراد القبائل الأخرى تحت ظل تنظيم زياد الجديد. ولكن بدلاً من الاستقرار والهدوء بدأوا التمرد والهياج في الكوفة الى حد هدّد سلطة الحكومة المركزية وأمن المدينة على حد سواء.

وبعد عدد من الانذارات من الحكومة بقرب إقدامها على اجراءات حاسمة ضدهم

---

(٢١) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، الترجمة العربية، ص ٦٨ – ٧٠.

(٢٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٣ – ٤.

(٢٣) أحسن الروايات في هذا الموضوع رواية الكامل لابن الأثير، ج٣، ص ٣٤٤ – ٧ و٣٥٢–٣.

استطاع زياد إلقاء القبض على رؤساء القراء وأرسل بهم الى الشام حيث نفذ أمر معاوية بالقتل على سبعة منهم. وكان بين المقتولين حجر بن عدي الكندي من رؤساء اليمانية الذي حارب أهل الردة مع أبي بكر وأسهم في جُلّ معارك الفتوح في العراق والشام وكـان من أنصار علي الأشدّاء وظل كذلك حتى أسلم الروح. وكان حجر هذا هو رئيس كندة المنافس للأشعث بن قيس رئيس المرتدّين من أهل اليمن. وتشير مصادرنا على أن حجراً والستة الذين قتلوا معه كانوا القادة المثاليين للقراء[٢٤] وان مقتلهم كان خطأ جسيماً أقدم عليه معاوية ولم يمنعه حلمه عن إنفاذه، وفي هذا الدلالة على عظم الخطر الذي كان يمثله حجر وجماعته على أمن الكوفة واستقرارهـا. وكانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ الاسلام التي يبيح فيها أمير المؤمنين لنفسه حق الحكم بالاعدام على زميل له مسلم مثله، وكان هذا أول حكم بالاعدام لأسباب سياسية ينفَّذ في الاسلام. وقد كان للحكم أثره ولا شك ولكنه بالنسبة الى معاوية يبقى عملاً أخرق طائشاً ومع أن الهدوء ساد مدينتَي الكوفة والبصرة إلا أن أحكام الاعدام هذه أضفت على الخلافة سمة الملوكية وجعلت القبائل العربية قلقة بعد اليوم على استقلالها.

وقد ضاعف معاوية خطأه حين ظهر بمظهر المستبدّ ثانية عند أخذ البيعة لابنه يزيد. وكان يرى، ولربما كان على حق، أن استمرار النظام واستقراره يعتمدان على هدوء الطريقة التي يتمّ فيها اختيار خلف للحاكم. ولذلك فقد قرر أن يحذو حذو أبي بكر فيسمي مرشحه للحكم بعده. ولو كان هناك مرشح واحد وحسب، لهان الأمر ومرَّ بسلام دون أن تظهر رغبة معاوية في التحكم والقهر، ولكن كان هناك اكثر من مرشح واحد، سواء بالنسبة للعائلة الأموية نفسها أم بالنسبة للجند السوري أم بالنسبة للامبراطورية عامة.

وكان أحد المرشحين مروان بن الحكم الذي يؤهله لخلافة معاوية كونه زعيم البيت الأموي وأكبر أعضائه سناً. إلا أن مروان كان يقضي جلّ وقته خارج بلاد الشام فلا يدري معاوية إن كان ترشيحه يحظى بتأييد الجند السوري أم لا.

ومن هنا ظهر ابنه يزيد المرشح الثاني والأوفر نصيباً، فهو ابن معاوية. وأمه سورية

---

(٢٤) الطبري، ج ٢، ص ١١١ – ١٥٥ والطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٦، طبعة لايدن، ص ١٥١ – ٤.

من بني كلب وقد نشأ وعاش في بلاد الشام وبين أهل الشام ولذلك فقد صمم معاوية على الحصول على البيعة لابنه يزيد. وفي هذا حسم للأمر رغم ما يحمله في ثناياه من اتهام بجعل الحكم وراثياً. فقد كان معاوية يراهن على بدعة جديدة وهو لا يدرك هذا لأنه عمل جهده أن يكون رهانه ناجحاً رابحاً، فأمر بأخذ البيعة لابنه أثناء حياته هو ليرهب المترددين والرافضين(٢٥).

من الصعب أن لا يتعاطف المرء مع دوافع معاوية، إلا أن إقدام رجل حذر «حليم» مثله يعتمد في سياسته على الدهاء والاقناع والاغراء على عمل تعسفي مبتدع مثل هذا يدلنا على مقدار الوهن في نظام حكمه. فقد حقق معاوية السلام والاستقرار المؤقتين ولكنه تجنب حل المشاكل الرئيسية.

فما تزال القبائل العربية قوية مستقلة وقد زادت اصلاحات زياد الوضع في العراق سوء بتوكيدها وتثبيتها الكيان القبلي واعتمادها القبيلة الوحدة الاجتماعية الأساسية للجماعة.

وقد ظل معاوية يحاول أن يقيم نظاماً لا يستند على العنف والقهر والإرهاب، ولكن مثل هذا النظام يحتاج الى مهارات سياسية ودبلوماسية على مستوى عالٍ والى حد كبير من ضبط النفس ونكران الذات لدى الحكام وهو ما لم يتيسر حتى عند معاوية نفسه في بعض الأحيان.

وقد كشف عهد خلفائه من بعده هذه الحقيقة بصورة جليّة واضحة. فما ان لفظ معاوية أنفاسه الأخيرة حتى بدأ ملكه الذي سعى في لمِّ شتاته كل هذه السنين الطوال يتشتت ويتبعثر.

وكان أول تحدٍّ واجهه النظام على يد الحسين بن علي بن أبي طالب. فقد رأى الحسين أن الوقت قد حان للوصول الى الحكم وكان واثقاً من شيعة أبيه في الكوفة والبصرة والتفافهم حوله. فأغذَّ السير نحو الكوفة وليس معه إلا بضع أنفار من صحبه وأقاربه ونساء عائلته. وكان الحسين مخطئاً في كل تصوراته. فقد استطاع الأمويون أن يقضوا على

---

(٢٥) الطبري، ج ٢، ص ١٧٣-٧.

الحسين وجماعته في كربلاء قبل وصوله الى الكوفة. وكانت قوة بوليسية بسيطة كافية لقمع هذه الثورة الشيعية الأولى. ولكن رغم أن الحركة انتهت بفشل مأساوي كبير فانها على المدى البعيد كانت من أنفع الأشياء للحركة الشيعية إذ أعطتها شهداءها الأوائل وسرعان ما أصبح الثأر للشهيد المظلوم قتيل كربلاء وصحبه الشهداء الأبرار شعار الدعوة الشيعية وعلم ثورتها ونداء دعوتها.

وقد أدت هذه الثورة الى احياء فكرة «آل البيت» أي زعامة جماعة معينة أو بيت معين في القبيلة للقبيلة كلها، وهذه الفكرة، بحدّ ذاتها، قديمة في تقاليد العرب. فقد كان هناك دوماً وفي كل قبيلة، بيت، يشتهر بالشجاعة والكرَم والحلم فتدين له القبيلة بالرئاسة والطاعة. ولم يكن بيت هاشم، جد النبي ﷺ مُعترفاً له بالزعامة المطلقة في قريش، ولكن ما ان اختار الله رسوله ﷺ من هذا البيت حتى لم يبقَ شك في زعامته لا لقريش وحدها فحسب بل وللعرب أجمعين.

وقد ساعدت خلافة علي، ومن بعده ابنه الحسن، مهما قصرت مدتهما وضعف حكمهما، على ترسيخ هذه الصورة في أذهان الناس وقد شجع بنو أُمية أنفسهم، وعن غير قصد منهم طبعاً، هذه الفكرة حين ادعوا أنهم أصبحوا «بيتاً» لنجاح معاوية الشهير وحلمه الواسع ولتنازل الحسن ابن علي عن حقوقه لمعاوية(٢٦).

لكن هذا منطق خاطئ – لأن هذا الادعاء يرتد على الأمويين أنفسهم، اذ اننا لو أخذنا بفكرة البيت فلن يستطيع بيت أمية أن يقف على قدم المساواة مع بيت هاشم كما لا يصحّ الاستناد في حق بني أمية على تنازل الحسن لهم عن حقه، لأن هذا التنازل في حدّ ذاته يثبت أولاً الحق لعلي وبيته – بيت هاشم – ثم يثبت هذا الحق لمن يدعيه من ذرية علي من غير الحسن لأن تنازل الحسن عن حقه قاصر عليه ولا يلزم غيره، وخير دليل على ذلك الآن هو الحسين الابن الثاني لعلي الذي نهض للادعاء بحقه فمات شهيداً من أجله. وكان لهذه الثورة القصيرة الأمد العاطفية المظهر عقابيل كثيرة وخطيرة إذ أنها وضعت اللمسات الأخيرة لأسطورة بطولية ظلت تستقطب حولها المستضعفين والمضطهدين على مرّ العصور.

---

(٢٦) ابن الأعثم، فتوح، ص ١١٧ب–١١٨ب. الطبري، ج ٢، ص ٣٨٠.

واكثر منها خطراً حالاً كانت ثورة ابن الزبير في الحجاز. فكما قلنا من قبل، فان معاوية لم يكن مرتبطاً كل الارتباط بالمتطرفين المكيين الذين كانوا وراء ثورة طلحة والزبير قبل عشرين عاماً. وقد ظلت هذه الجماعة في مكة متحدة متراصة ولم يُقضَ عليها. وكانت لا تثق بمعاوية ولا تأمن جانبه إذ أنه استطاع أن يصل الى الحكم ويبقى فيه بمساعدة جند أهل الشام له. ولهذا فلا تستطيع قريش أن تدّعي أن لها فضلاً عليه أو يداً في هذا النظام، وهي لا تتوقع منه – وهي على صواب في هذا الرأي – أن يخدمها أو يحقق لها مصالحها. ولهذا فقد حاولت قريش محاولتها الأخيرة للوصول الى الحكم ولم تجد من تختاره لزعامتها – ولهذا دلالته – إلا عبدالله ابن الزبير الذي قاد أبوه قبل عشرين سنة ولنفس الأسباب ثورة مماثلة ضد علي بن أبي طالب.

وقد كانت هذه الثورة تهديداً خطيراً للحكم الأموي، وزاد من خطورتها موت يزيد بن معاوية المفاجئ وانتقال المُلك من بعده الى ابنه معاوية. مما اضطر جند أهل الشام المحاصر بمكة الى الانسحاب بعد ان كاد حصاره أن يؤتي بثماره.

وقد انتقلت وراثة الحكم الى معاوية بن يزيد البالغ من العمر تسعة عشر عاماً فقط، وكان زاهداً في الحكم رافضاً له ولعل رفضه هذا قد بلغ أوضح صوره حين وافته المنيّة بعد أسابيع قليلة فقط من تولّيه الحكم.

ولم يكن أهل الشام، في أول أمرهم – يعرفون وجهتهم في هذا المضطرب السياسي العنيف. وكان القيسيون في الجزيرة – وهي الآن قسم من بلاد الشام – قد حدّدوا موقفهم بصورة واضحة، فهم لم يغفروا بعد لمعاوية فتحه أبواب «بلادهم» لهجرات متتابعة دافقة ولهذا لم يجدوا ما يدفعهم الى تأييد دعوى «بيته» في الحكم. وقد أسرعوا فدعوا لعبدالله بن الزبير على أمل أن يحفظ لهم استقلالهم في مقاطعتهم النائية. واكثر من هذا فقد حصل ابن الزبير على تأييد كبير من الحجاز، الموطن الأول لهذه القبائل القيسية الساكنة الآن في بلاد الجزيرة[٢٧].

أما بقية أهل الشام فقد انقسموا على أنفسهم فغالبهم رضوا بابن الزبير الذي لم يحاول

---

(٢٧) البلاذري، الأنساب، ج ٥، ص ١٣٢ و١٣٣ و١٣٦، والطبري، ج ٢، ص ٤٦٨ و٤٧١ – ٤٧٤ و٤٨٢ و٤٨٣.

أن يغيّر في الأوضاع القائمة هناك. ولكن من جهة ثانية - لم يبلغ تاييدهم له حد القتال من أجله.

وكان البعض من بني كلب يريدون أن تستمر إمارة المؤمنين في «بيت معاوية» ولكن ما من أحد من ذريته قد بلغ من العمر ما يؤهله لإشغال هذا المنصب، عدا عن هذا فليس لبني كلب من القوة ما يستطيعون بها أن يفرضوا مرشحهم على بقية إخوانهم السوريين [٢٨].

وقد مالت قبائل كندة والسكون في مقاطعة الاردن الى ابن الزبير أول الأمر، ثم اكتشفوا أن الأمويين هم وحدهم القادرون على ضمان وحدة بلاد الشام ثم الحفاظ على امتيازاتهم القائمة فيها فمالوا بولائهم اليهم [٢٩].

وهنا برز مروان بن الحكم مرشح تسوية. فمع أن معاوية قد تعدّاه لصالح ابنه يزيد. فان مروان ما يزال هو شيخ بني أمية وعميد بيتهم. ويبدو أنه وعد قبائل السكون أن يمنحها أراضي أكبر في البلقاء في الاردن [٣٠] فالتفت حوله وسرعان ما نودي به أميراً للمؤمنين والتفّ حوله السوريون.

وكانت مهمته الأولى أن يضمن قاعدته وأن يعيد الى حظيرة ولائه قبائل قيس في الجزيرة. وقد حسمت معركة مرج راهط [٣١] الأمر لصالح مروان، ومنها سار ضد المقاطعات الأخرى المؤيدة لابن الزبير، وكانت مصر هدفه الأول والأسهل.

---

(٢٨) البلاذري - نساب ، ج ٥، ص ١٢٨ و١٢٩ و١٣٣ و١٣٤ والطبري، ج٢، ص ٤٦٨ و٤٧٠-٧١.

(٢٩) البلاذري - الأنساب، ج ٤، ص ٥١ و٥٢ و٥٥ وج ٥، ص ١٢٨ و١٣٤ و١٤٩ والطبري، ج ٢، ص ٤٥١-٢.

(٣٠) البلاذري - الانساب، ج ٥، ص ١٤٩ والطبري، ج ٢، ص ٤٨٧.

(٣١) اتحدت بعد اختلاف، كلمة اليمنية من بني كلب على مبايعة مروان ابن الحكم واجتمعت قيس بقيادة الضحاك بن قيس الفهري في مرج راهط فبايعت عبدالله بن الزبير. فسار مروان الى الضحاك وقتله وهزم قومه في مرج راهط فاذكت هذه الموقعة من جديد نار العصبية بين قيس واليمن ليس في الشام وحدها كما كانت من قبل بل في سائر الأقطار الاسلامية وخاصة في خراسان (المترجم).

وقد استطاع مروان من دون صعوبة تذكر إقناع المصريين بالتخلي عن بيعة ابن الزبير وبالامتناع عن إرسال شحنات القمح للحجاز[٣٢].

وكانت هذه كل انجازات مروان بن الحكم قبل وفاته بعد تسعة أشهر من تولّيه الحكم تاركاً مهمة اكمال القتال ضد ابن الزبير على عاتق ابنه وخلفه عبد الملك والذي بدأ يستعد للمعركة الكبرى الحاسمة.

واذ حرم ابن الزبير، شأنه شأن علي من قبل، من بلاد الشام ومصر ومواردهما واذ لم تكن معه مقاطعة ذات قوة عسكرية موحّدة، لم يجد ابن الزبير ندحة دون الاعتماد على العراق في نصرته.

وقد سارعت البصرة الى الاعتراف به، وكان اكثر رؤساء الكوفة ميّالين الى نصرته طلباً للاستقرار السياسي، إن لم يكن لشيء آخر. عدا عن هذا فان النقطة الوحيدة التي يتفق معه الكوفيون حولها هي كراهيتهم العميقة لبني أمية. فقد تغلغلت بين صفوف أهل الكوفة العقيدة الشيعية ومدّت جذورها بينهم فبدأوا يدركون الآن ما كانت تعنيه عدالة علي لهم من خير ونفع[٣٣] ولهذا لم ترَ غالبيتهم سبباً لنصرة أي سلطان خارجي آخر.

واستغلالاً للعواطف الشيعية هذه فقد أعلن القرّاء القدامى في الكوفة ندمهم على عدم نصرتهم للحسين بن علي فأطلق عليهم اسم «التوابين». وكان هؤلاء يعارضون كلاً من عبد الملك وابن الزبير إلا أنهم يرون في الأول – عبد الملك – عدوهم الألدّ والأخطر ولذلك فقد زحفوا على الشام في محاولة للاطاحة به.

ولكنهم بالغوا كثيراً في مقدار قوتهم وبخسوا قوة عبد الملك قدرها فكانت النتيجة نصراً سريعاً حقّقه جند أهل الشام قضى عليهم جميعاً إلا نفر قليل منهم عاد الى الكوفة ساخطاً هائجاً[٣٤].

---

(٣٢) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٤٨ – ٩. الكندي، الولاة، ص ٤٢–٨ وابن أعثم، فتوح، ج ٢، ص ٥٢ آ و ب.

(٣٣) نفس المصدر ص ٢٢١.

(٣٤) نفس المصدر ص ٢٠٤–٢١٣ والطبري، ج ٢، ص ٤٩٧–٥٠٩ و٥٣٨–٥٧٦.

وكان الجو – في مثل هذه الظروف – مهيئاً لظهور أية شخصية على مسرح الأحداث اذا ما توفرت لها الكفاءة والجرأة. وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي هو هذه الشخصية هذه المرة.

وكان المختار من عائلة بارزة ارتبط تاريخها بالعراق منذ زمن طويل. فقد قاد أبوه أول حملة عسكرية على العراق واستشهد في معركة الجسر، وقد تولى عمّه ولاية المدينة أيام علي وابنه الحسن، وكان المختار نفسه كثيراً ما ينوب عنه فيها.

ومع انه كان على معرفة جيدة بكل الفئات في الكوفة وكان يملك أرضاً في السواد فانه كان يفضل الإقامة في بيت عائلته في الطائف. وقد أراد تأييد ابن الزبير وانما بشروط معينة وجد ابن الزبير نفسه من القوة بحيث يستطيع أن يستغني عنه فرفضه وشروطه. ولذلك قرر المختار أن يبدأ هو العمل بنفسه ولنفسه.

ومصادرنا شديدة العداء له فلا تذكر من أخباره الشيء الكثير أو الشيء الجميل. ولكنه كما يبدو كان رجلاً داهية قديراً وان يكن طموحاً انتهازياً. فغير المختار من السياسيين قد يظنون أن الحركة الشيعية قد استنفذت أغراضها وانتهت بعد القضاء على التوابين، أما المختار فكان أذكى وأدهى من ذلك فسرعان ما نفذ الى لب القضية وكشف عن جوهر قوتها وهي صلاحها لاستقطاب كل الساخطين والناقمين. لذلك فقد تبنّى القضية الشيعية وأسس لنفسه ما يُعرف بـ «شرطة الخميس» وهم لباب أنصار علي في الكوفة والذين لم يكن عددهم ليزيد عن الاثني عشر ألف رجل من أبناء القبائل[٣٥].

وهكذا أعلن المختار ثورته للثأر لدم الحسين من قتلته وقد أعلن ثورته هذه باسم محمد بن الحنفية وهو ابن علي بن أبي طالب من زوجة له من قبيلة حنيفة.

ونحن لا نعلم ردّة فعل محمد بن الحنفية لهذا الشرف الذي ألقاه المختار من غير توقّع على كتفيه. فمن المحتمل انه لم يستشر في الأمر أو انه استشير وقبل بالثورة بشكل غامض مبهم.

ومهما تكن حقيقة الحال، فلم يكن للأمر أهمية ما، إذ أن المختار أعلن محمداً على أنه

---

(٣٥) الطبري، ج ٢، ص ٦١٠–٦١٧ والبلاذري، الأنساب، ج ٥، ص ٢٤٩ و٢٥٣ و٢٦٠.

المهدي، وكانت هذه حركة بارعة من المختار فكانت المثال الأول لتجسيم فكرة أمير المؤمنين – الإمام، التي ظلت مبدأ أساسياً في صلب العقيدة الشيعية.

واضافة الى هذا فقد قرر المختار أن يتولى هو الشؤون الدينية كمعاون أو «وزير» للإمام، حتى تنجح الثورة فيسلمها اليه. وهذه بدورها سابقة هامة أخرى في الثورة الشيعية سوف يأخذ بها زعماء بني العباس بعد سنين.

وكانت ثورة المختار – أول الأمر – ناجحة من الناحية العاطفية. فقد كسبت لها صبغتها الشيعية نصرة البقية الباقية من التوّابين وفئات الشيعة الأخرى بقيادة ابراهيم بن الأشتر، وكان أبوه من أنصار علي المخلصين الذي ظل وفياً له حتى النهاية. واستطاع المختار أن يكسب الى جانبه أيضاً القادمين الجدد الذين تضعضع ولاؤهم للزعماء الأمويين.

ونتيجة تحالف هذه القوى وجد المختار نفسه من القوة بحيث طرد من الكوفة عامل ابن الزبير عليها ونصب نفسه «وزيراً للإمام» فيها. وقد عمل المختار على إحاطة أعماله بحملة دعائية واسعة النطاق فكان يحدّث أصحابه بأسلوب بلاغي مؤثر ببعض تنبؤاته، التي يحدث أن يتحقق بعضها فعلاً، واتخذ من كرسي قديم كان يملكه علي بن أبي طالب «تابوت العهد» للشيعة.

ومما يجب التأكيد عليه انه لم يطلب – كما هو الشائع عنه – نصرة الموالي، أي المسلمين من غير العرب، لقضيته، رغم اننا نسمع بوجود ٢٣٠٠ من الموالي في جيشه. فمع احتمال المبالغة في هذا الرقم فهو عدد صغير اذا ما قورن بعدد مناصريه من العرب وتظهر عدم أهميتهم عندما يلاحظ انهم جنّدوا على وجه السرعة كقوات طوارئ لحفظ الأمن في الكوفة حين كان جمهور مؤيديه في الأرياف خارجها يقوم بحملة الدعاية والتبشير.

واذن فقد كان اللجوء الى الموالي اجراء طارئاً، وقد أثبت الموالي أنفسهم انهم عنصر لا يعتمد عليه البتة في القتال. إلا ان النقطة الجديرة بالاهتمام في هذا الخصوص هو أن نعرف أن هناك أعداداً من العاطلين عن العمل من المواطنين العراقيين والذين جذبتهم الكوفة اليها والذين سيصبحون مشكلة خطيرة في المستقبل القريب.

ولم يكن نظام المختار – في الواقع – إلا نظاماً غوغائياً استغل اضطراب الأوضاع

ولذلك فقد كان أضعف من أن يتصدى لعبد الملك أو ابن الزبير أو يصمد أمام أي منهما. وحتى على المستوى الكوفي فقد كان نظام المختار قلقاً غير ثابت، ولأنه كان النظام الذي استقطب الساخطين والمتمردين، فان الاشراف ورؤساء القبائل في الكوفة مالوا في هواهم الى جانب ابن الزبير كوسيلة وحيدة لإعادة توطيد سلطتهم، وقد انسحبوا الى البصرة والتحقوا بالمكيين وجيش ابن الزبير فيها، ثم عادوا زاحفين على الكوفة.

وقد انكشف أمر المختار وهجره أصحابه حتى ابن الأشتر وانهارت وزارته، ثم لقي حتفه مع مائتين من أنصاره المتعصبين[٣٦].

ولم تكن، على كل حال، هذه خاتمة الفوضى أو الاضطراب التي خلّفها الانهيار المؤقت لسلطة بني أمية، بل كان ما تلاها أسوأ منها أثراً بكثير، وكان مجرد تكرار لحروب الردة وان نظر اليها على أنها ثورة من ثورات الخوارج.

وتسمي مصادرنا هؤلاء «الخوارج الجدد» بالازارقة أو النجدية نسبة الى إسمي اثنين من زعمائهم هما نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر، وكلاهما من بني حنيفه. ورغم وجود زعماء آخرين من حنيفة نفسها ومن غيرها من القبائل أيضاً، فمن الخطأ وصف الحركة بالحنفية والأولى اتباع ما سارت عليه مصادرنا بتسميتها.

وكانت حنيفه تسكن أواسط شبه الجزيرة العربية وكانت من أكبر القبائل وأقواها شكيمة وأشدها شعوراً بالاستقلال وحرصاً عليه اذ لم يذكر عنها أنها في تاريخها كله رضت يوماً ما بالخضوع لسلطان غيرها أبداً.

وقد اشتهر اسم حنيفة في حروب الردة أيام أبي بكر، وان لم ترتد هي في الواقع لأنها لم تعتنق الاسلام أصلاً[٣٧].

وقد جاءت الآن حنيفه، وبعد خمسين عاماً، تعرض على ابن الزبير نصرتها له وهي تهدف من وراء ذلك الى التخلص من نير التسلط السوري. لكن ابن الزبير ردّ على عرضها هذا، كما ردّ على عرض المختار من قبل بالرفض لأنه رأى أن ثمن نصرتها له، وهو تحقيق المزيد من الاستقلال لنفسها ثمن غالٍ بالنسبة له وكان دافع ابن الزبير في رفضه

(٣٦) أحسن وأكمل مصدر عن هذه الفترة هو كتاب الأنساب للبلاذري، ج ٥، ص ٢١٤-٧٣.
(٣٧) أنظر ما تقدّم ص ٣٥ و ٤٧ من هذا الكتاب.

هذا هو الخوف من أن يؤدي قبوله بهذه العروض المشروطة ومنحه الامتيازات الى أصحابها بموجبها ، الى إقامة سابقة ثابتة يستند عليها رفاقه الآخرون في المطالبة بامتيازات مماثلة ، وكان مدفوعاً أيضاً بثقته بقوته بحيث ظن انه يستطيع أن يستغني عن أمثال هذه العروض وما يترتب عليها من عواقب . ولكنه جانب الصواب في مسلكه هذا ، فليس من الحكمة في شيء معاملة قبيلة كبيرة قوية مثل حنيفة معاملة رجل فرد مثل المختار . ولهذا لم تجد حنيفه المدلة بعزتها والتي آلمها رفض ابن الزبير لها من سبيل إلا العمل على الإطاحة بالنظامين المكي والسوري على حد سواء. وأن يبدأوا بالخروج على ابن الزبير في العراق (٣٨) .

وقد دفعهم هذا الى التحالف مع أبناء عمومة لهم من بين الخوارج وخططوا للاشتراك معهم في هجوم مركّز ضد البصرة . وبسبب هذا الحلف –لا غير– تصف مصادرنا هذه الثورة على انها ثورة خوارج في حين أن لا شيء في الواقع أبعد من هذا عن الحقيقة . إذ لم يكن لثورة حنيفة هذه أي ارتباط بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية التي سبّبت ثورة القرّاء – الخوارج – ضد علي .

وهذه التي تدّعي اليوم «ثورة خارجية» ما هي في حقيقة أمرها إلا ثورة عارمة في شبه جزيرة العرب نفسها تقودها قبيلة عربية كبيرة هناك ذات عراقة وتقاليد في حب الاستقلال والنفور من التبعية . وقد ارتبطت هذه القبيلة بتحالف مع بعض بنيها من بين الخوارج وفي ما يتعلق بغزو العراق فقط . ولم يكن حلفها هذا حلفاً عقائدياً وإنما كان حلفاً بين ندّين لكل منهما استقلاله الذي يسعى للحفاظ عليه وكل ما يجمعهم في هذه المرحلة بالذات مصالحها المتقاربة الهادفة لحماية هذا الاستقلال .

وكان هذا الحلف ضرورياً ونافعاً للطرفين على حد سواء إذ كانا بقوتهما وضعفهما ومواردهما يكمل أحدهما الآخر . فلا شك أن الخوارج كانوا يستطيعون أن يجمعوا الكثير من المال والثروة من أي منطقة قد يسيطرون عليها في فارس أو خراسان كما كان في مقدور حنيفة أن تجمع أي عدد تشاء من الجند سواء من بين صفوفها أو صفوف قبائل الجزيرة العربية الأخرى التي تستطيع حنيفة أن تضمها اليها بسهولة .

---

(٣٨) الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٠١–٢ و٥١٣–١٧ وأنساب الأشراف للبلاذري ، ج ٤ ، ص٤٧ .

وكانت مساكن حنيفه في أواسط شبه الجزيرة العربية في موقع ممتاز تستطيع منه قطع خطوط مواصلات ابن الزبير مع العراق قطعاً نهائياً. واكثر من هذا أهمية فان سيطرتها على اليمامة، وهي البديل الممتاز عن مصر لتجهيز الحجاز بالقمح، يهدد بقطع إمداد القمح عن ابن الزبير وقد ازدادت أهمية هذا الأمر بعد انقطاع شحنات القمح المصري عن الحجاز (٣٩).

وقد أخذت حنيفة تمدّ سيطرتها شرقاً نحو سواحل الخليج الفارسي واستطاعت بعد مقاومة ضئيلة أن تثبت أقدامها في البحرين حيث انضم الكثير من بني تميم وبني عبد قيس هناك الى ثورة حنيفة (٤٠).

ولكن أزد عمان تصدّوا لحنيفة بمقاومة عنيفة حين أرادت أن تمدّ نفوذها الى عمان. وقد قدر في الأخير لهؤلاء الازديين أنفسهم القضاء على هذه الثورة ولكن بعد أن امتدت كثيراً وعبرت الى ساحل الخليج الثاني (٤١).

فقد عبرت أعداد غفيرة من بني حنيفه وتميم وعبد قيس الخليج ليلتحقوا بأبناء عمومة لهم من بين الخوارج هناك وليشاركوهم في هجومهم الكاسح على البصرة (٤٢). وسرعان ما سيطر هؤلاء على الأراضي الزراعية الواسعة في فارس والأهواز فجرّدوا البصرة من مصادر إيرادها وضمنوا لأنفسهم قواعد آمنة للهجوم منها على البصرة.

وقد استطاع هؤلاء الخوارج الجدد «أن يثيروا قبائل أخرى في شرق جزيرة العرب وأواسطها وأن يضموها اليهم فازدادوا بذلك عدداً وقوة وثراء وفي الوقت نفسه امتناعاً عن الضبط والسيطرة. وامعاناً في الفوضى والانقسام.

وقد خلقت هذه الموجات الجديدة من القبائل المهاجرة والمعادية موجة ذعر كبيرة في البصرة. ولكن لحسن حظهم وحظ ابن الزبير معاً فان القبائل الأخرى في شبه الجزيرة

---

(٣٩) البلاذري، أنساب الاشراف، ج ١١، ص ١٣٩.

(٤٠) نفس المصدر ص ٨١ و١٢٨ و١٣١-٣.

(٤١) نفس المصدر ص ١٣٥ وابن حزم، جمهرة الأنساب، ص ٣٨٢.

(٤٢) البلاذري، أنساب، ج ١١، ص ٨٦ و٩٣ و١٣٥ و١٤٨ والطبري، ج ٢، ص ٥١٧، ٥٢٠ و٥٨٨. تاريخ ابن خياط، ج ١، ص ٥٢، وتاريخ الاسلام، لمحمد بن أحمد الذهبي، ج ٢، ص ٣٦٠.

شُجعت على منافسة انتصارات هؤلاء المهاجرين، وجاء هذا في الغالب من ناحية أزد عمان الذين كانوا بطبيعة الحال حلفاء طبيعيين لأبناء عمومتهم الأزد البصريين.

وما ان التقت هاتان الفئتان حتى اتفقتا على القبول بالمهلب بن أبي صفره قائداً لهما في حملة ضد الخوارج بشرط ان «له ولمن خفّ معه من قومه أو غيرهم ما غلب عليه من الأرض ثلاث سنين» على الأقل(٤٣).

وكانت هذه صفقة مربحة جداً اذ ما لبث المهلب وقومه أن حققوا النصر تلو النصر ضد «الخوارج الجدد» حتى قضوا عليهم واضطر من نجا منهم الى الفرار الى الأراضي القاحلة في سجستان أو كرمان حيث ظلوا بعيدين – بما فيه الكفاية – عن قبضة الحكومة المركزية وعن أن يكونوا مصدر الازعاج للآخرين(٤٤).

لكن هذه الصفقة أفادت بني أمية اكثر مما أفادت ابن الزبير، ذلك لأن المهلب وجيشه لم يجدوا كبير صعوبة في تغيير ولائهم الى الأمويين فاستمروا في حروبهم وانتصاراتهم وانما تحت راية دمشق(٤٥).

وفي خلال هذا كله، وجّه السوريون، وللمرة الأولى، كل قواهم ضد ابن الزبير، فمزقوا جيشه في العراق وأعادوا العراق الى بني أمية. وأرسلت حملات بحرية من مصر الى مختلف موانئ الجزيرة العربية(٤٦). وهوجمت مكة نفسها وقتل فيها ابن الزبير.

وهكذا صفا الجو لعبد الملك بن مروان واعترف به أميراً للمؤمنين من الجماعة الاسلامية بكاملها بعد أن استطاع أن يقضي على ادعاء ابن عمه سعيد بن العاص بأحقيته بالعرش على أساس انه كبير بني أمية. إذ انتهت دعواه بإلقاء القبض عليه وقتله بأمر من عبد الملك(٤٧).

---

(٤٣) انساب الأشراف للبلاذري، ج ١١، ص ١٠٣. الطبري، ج ٢، ص ٥٨٤ و٥٨٧ و٥٩٠ و٥٩١. والكامل لأبي العباس محمد المبرد، ج ٢، ص ٧٢٧–٨.

(٤٤) عن تركيب جيش ابن المهلب، أنظر الثورة العباسية للدكتور شعبان، الترجمة العربية، ص ١٠٥–١١٠.

(٤٥) الطبري، ج ٢، ص ٨٢١–٢.

(٤٦) الكندي، الولاة، ص ٥١.

(٤٧) انساب الأشراف، البلاذري، ج ٤، ص ١٣٨–١٤٦.

وكانت احدى النتـائج التي تمخّضت عنها الحرب الأهلية الثانية هو التوسع التدريجي في نظام العطاء للسوريين، فلما هُدد يزيد بن معاوية بالاضطراب في العراق وبثورة ابن الزبير بالحجاز وجد نفسه مجبراً الى استدعاء حامية قبرص الى سوريا (٤٨) وكانوا – في الواقع – الجيش المتفرغ الوحيد الذي تدفع له عطاءات منتظمة لقاء خدماته.

وقد دفع للجيوش التي ذهبت لحصار ابن الزبير في مكة مبلغ ماية دينار لكل فرد مقابل القيام بهذه المهمة الاستثنائية (٤٩) ووعد مروان بعض قبائل سوريا أن يقطعهم فيها بعض الأراضي مقابل نصرتهم له لتوطيد ملكه (٥٠) ولدينا أخبار قليلة عن عطاءات كانت تتراوح بين ٢٠٠ – ٢٠٠٠ درهم دفعت بالجزيرة الى بعض الرؤساء مقابل مهات خاصة كانوا يكلفون بها (٥١). ولكن، وحتى وفاة مروان، لم ترد إشارة الى عطاء يدفع على نطاق كبير وبصورة منتظمة في سوريا أو الجزيرة أو مصر كما كان الحال في العراق.

وقد طلب رؤساء هذه القبائل أعلى العطاء وأغلاه مقابل مساعدتهم خارج سوريا. وقد اتسعت هذه الممارسة أيام عبدالملك بن مروان فصارت تدفع إما تقديراً أو تشجيعاً للقيام بعمل معين (٥٢).

وكما سنرى بعد قليل، فقد تكررت هذه المناسبات في تلك الأيام، وكانت خدمات السوريين تطلب باستمرار في جميع أنحاء الامبراطورية، لذلك فما إن قارب عهد عبدالملك على الانتهاء حتى كان لجميع السوريين عطاء منتظم في بيت المال.

* * *

---

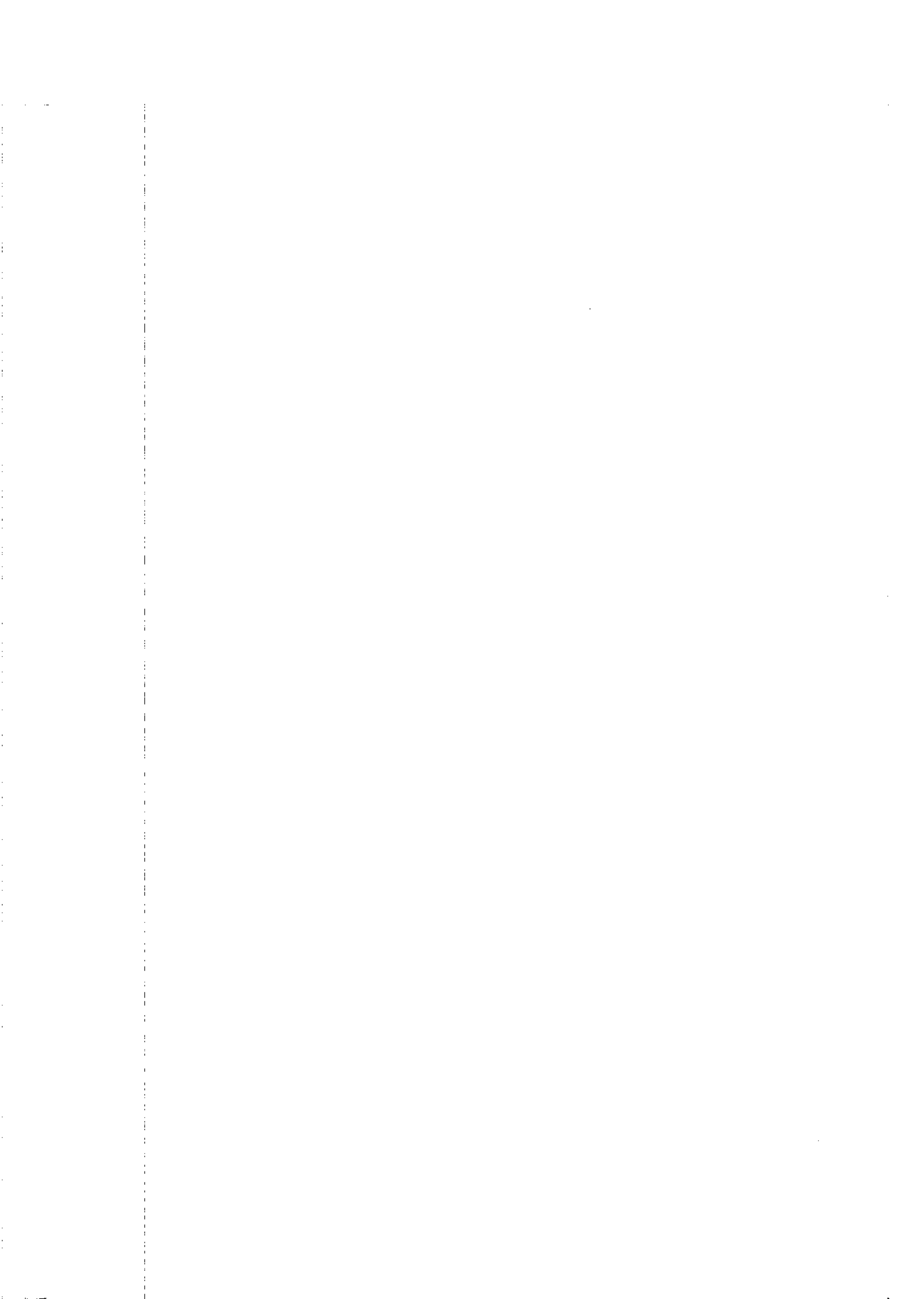
(٤٨) البلاذري، فتوح، ص ١٥٣.

(٤٩) الطبري، ج ٢، ص ٤٠٧. والبلاذري، أنساب، ج ٤، ص ٣٣.

(٥٠) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٤٩، والطبري، ج ٢، ص ٤٧٨–.

(٥١) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٣٦، والطبري، ج ٢، ص ٤٢٢–٨.

(٥٢) الطبري، ج ٢، ص ٨٩٣ والبلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٣٦٨ وج ١١، ص ٥٨ والمسعودي، مروج الذهب، ج ٥، ص ٢٠٠.



الفصل السادس

عهد الحجاج

لم يكن لعبد الملك بن مروان حين تولى الحكم عام ٦٥/٦٧٥ اهداف سياسية واضحة إلا إعادة الاستقرار الى ربوع الامبراطورية. وهو ما كان السمة البارزة لعهد معاوية، وعن طريق انتهاج سياسته الحذرة نفسها. وهذا القرار يخدم بطبيعة الحال مصالح أهل الشام فلا عجب بعدئذٍ اذا ما منحوا عبد الملك وأباه من قبله تأييدهم الكامل.

ومع ان هذا الأسلوب قد حقق الاستقرار الكامل في بلاد الشام، وهي قاعدة الحكومة المركزية ومركز قوتها. فانه لم يحلّ المشاكل المستعصية في بقية انحاء الامبراطورية. ولعل عبد الملك قد أدرك أن الحرب الأهلية الثانية قد أظهرت فشل هذا الاسلوب، ولكنه كان مدركاً أيضاً للأخطار الكامنة وراء القيام بأية تغييرات جذرية، وخاصة في حالة عدم الاستقرار هذه التي تسود الامبراطورية. وعليه فقد قرر أن يسير بحكمه بكل روية وحذر متجنباً إجراء أي تغيير أساسي محاولاً أن يعالج الأوضاع المستجدة بسياسة واقعية فعّالة فكانت طريقته في الحكم طريقة الحاكم الذي لا يرى سبباً للخروج عن السياسات الموروثة في ملكه ما لم تتطلب منه ذلك الأحداث أو تفرضها عليه فرضاً.

ولا خلاف في أن عبد الملك كان حاكماً قديراً ولكنه كان يفتقر — على ما يبدو — الى ملكة التصور وبُعد النظر اللازمين لوضع سياسة بعيدة الأمد على قواعد منتظمة، وكان يتصرف بقوة ولكنها، في أغلب الأحيان، القوة التي تفرضها عليه الأحداث وليست مما يريدها هو، ومثل هذه التصرفات كانت تثير معارضة قوية قد يضطره إسكاتها الى اللجوء الى مزيد من القوة والقمع، وبالنتيجة فان الاجراءات التي قصد بها أن تكون مؤقتة وطارئة تجمعت وتحولت الى سياسة جامدة وأصبح الحكم التعسفي هو السمة المميزة

للنصف الثاني من عهد عبد الملك الذي دام عشرين عاماً. والأدهى من ذلك أن هذه السياسة أصبحت – باستثناء مدة خمس سنين فقط – الانجيل السياسي للخمسين سنة التالية وهي كل ما تبقّى من حكم بني أمية.

ومن الأسباب التي عملت على إبقاء السياسة التي ننسبها الى عبد الملك ومساعده الأمين الحجاج موضع العمل كل هذه المدة الطويلة هي أن تغييراً أساسياً حدث في السياسة شمل العراق أيضاً – وهو كما نعرف اكثر البلاد تعقيداً وأصعبها قياداً.

وقد كان لعبد الملك في النصف الأول من عهده من القضايا الملحّة ما شغلته دوّاماتها السياسية عن أي شيء آخر.

فلم يكن منافسه أمير المؤمنين الآخر في مكة، قد انتهى بعد، وانما احتاج إلى ثمانية أعوام أخرى قبل أن يستأصل ابن الزبير وحركته ويعيد مكة والمدينة لسلطته.

وما ان انتهى من هذه المشكلة حتى كان عليه أن يدير وجهه شطر شمال أفريقيا حيث استغل البربر هناك ظروف الحرب الأهلية في بلاد العرب فثاروا على العرب في محاولة لتحرير بلادهم منهم. وفي عام ٧٤/٦٩٤ تدفّق جند أهل الشام على شمال افريقيا فاخضعوا البربر ودفعوا الجبهة العربية الى الأمام حتى مدينة «طنجة». وكان من أثر هذا النجاح الكبير أن دخل أغلب البربر الاسلام وان جند اثنا عشر ألفاً منهم في الجيش، والواقع أن فتح اسبانيا بعدئذ كان من صنعهم اكثر مما هو من صنع العرب[1].

وحتى لو ان عبد الملك أراد أن يفكر في مشاكل العراق ويخطط لها لما كان – خلال السنوات العشر الأولى من حكمه – في وضع يسمح له في أن يضع أفكاره وخططه تلك موضع التنفيذ، رغم مسيس الحاجة الى العمل السريع هناك. ومع أن بلاد الشام هي عمود الحكم المرواني وقاعدته فان العراق هو القطر المسيطر الفعّال على اتجاهات السياسة الداخلية، بمعنى أن مشاكله تشغل بال كل حاكم ووقته، ومصالحه تؤثر في كل قرار سياسي للدولة. فلم يكن العراق اكثر الأقطار المفتوحة تمرّداً وفتناً واضطراباً فحسب بل انه كان أيضاً اكثرها عرباً، إذ يبلغ عدد هؤلاء العرب في العراق ثلاثة أضعاف عددهم

(١) ابن خلدون، كتاب العبر، القاهرة ١٢٨٤هـ، ج ٦، ص١٠٩ وابن عبد الحكيم، فتوح مصر، ص ٢٠١. ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٠٢.

في بلاد الشام على أضعف التقديرات . واننا لنعلم أن الحملات العربية على بلاد الشام لم تزد في عددها عن الثلاثين ألف نفر في حين أننا نشاهد أن زياداً والحجاج – كل في وقت يختلف عن الآخر – قد نقلا من العراق الى خراسان مثل هذا العدد من العرب تخفيفاً عن العراق من الهجرات العربية المتدفّقة عليه (٢) .

وقد عهد عبد الملك في أول أمره بولاية العراق الى أخيه بشر بن مروان . ويبدو أن بشراً لم يعمل شيئاً ذا بال إذ لم يكن والياً حازماً ، ولعل هذا هو السرّ في تعيين عبد الملك له لهذا المنصب فلم يكن عبد الملك يريد للعراق في هذه الفترة والياً نشطاً حازماً ولهذا وذاك ظلت الأحوال في العراق على عهد بشر ، وكما كان متوقعاً لها ، غير مرضية أبداً ، وكانت المشكلة الرئيسة في العراق هو فتور أهل الكوفة عن تأييد النظام المرواني وعن نصرتهم لأهل البصرة في محاربة الخوارج الجدد العابثين في منطقتهم نفسها ، وقد لا يستغرب المرء انعدام مصلحة الكوفيين في الدفاع عن البصرة ، ولكن الغريب أن البصريين أنفسهم لم يساعدوا المهلب وجيشه على استعادة أراضي البصرة من أيدي الخوارج الجدد . ومما زاد في سوء الأمر انهم استكثروا على جيش المهلب ما وُعد به من حصة في الأرض مقابل تحريرها من أيدي الخوارج وأصحابهم (٣) ذلك لأن أبناء القبائل كانوا يعتقدون أنهم يستحقون انصباءهم في العطاء لاعلى خدمتهم في الجيش وانما لمجرد كونهم عرباً .

وكان الخطر الاكبر هو في امتناع أبناء القبائل هؤلاء عن الاسهام في الحملات السنوية ، واذ بدا يتسع نطاق هذا الامتناع ويكثر حتى اكتسبت القضية أبعاداً خطرة جداً وبدأت العقوبات على المتخلّفين تزداد وتكثر بدورها أيضاً . وكانت العقوبة أيام عمر وعثمان التعزير العام بالطريقة المعتادة وهي رمي عمامة الرجل الى الأرض . أما في عهد ابن الزبير فكانت العقوبة حلق لحية المخالف وشعر رأسه . أما بشر فقد اتخذ عقوبات أشد إذ كان المخالف يُصلَب إلى حائط ويُعذب عذاباً شديداً لما دون الموت (٤) . وعلى ما في هذه العقوبات من قسوة وصرامة فانها لم تنفع في حل الاشكال وظل الخارجيون الجدد مستمرّين في حروبهم حتى نهاية عهد بشر .

---

(٢) البلاذري . أنساب ، ج ٥ ، ص ١٦٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١١ ، ص ١٠٣ والطبري ، ج ٢ ، ص ٨٥٤ و٨٥٧ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٨ ، والبلاذري ، أنساب ، ج ١١ ، ص ٢٧٠ .

وكان عام ٧٥/٦٩٥ نقطة التحول في عهد عبد الملك فقد تمّ فيه القضاء على ابن الزبير ودحر البربر وبذلك تهيأ له الوقت والقوة للانصراف الى معالجة شؤون العراق. وبعد وفاة أخيه الضعيف بشر عيّن عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي والياً جديداً على العراق. وكان الحجاج آنذاك ما يزال شاباً في مستهلّ الثلاثينات من عمره وقد كشف عن قابلياته الادارية والعسكرية اثناء الحرب الأهلية، فهو الذي حاصر ابن الزبير وقضى عليه وأعاد الحجاز – حين تولى أمرها – الى حظيرة عبد الملك وطاعته. وكان الحجاج هو الاختيار الطبيعي لولاية العراق وخاصة وان عبد الملك لم يشأ تشويه سمعة عائلته بإرسال أحد أفرادها لولاية العراق.

ولم تكن عند الحجاج أو عبد الملك فكرة واضحة أول الأمر عما يجب عمله في العراق، وإنما اتفقا بصورة عامة على أن يستبدل بحكم بشر السلبي حكماً اكثر قوة وحزماً. وكان هذا الهدف البسيط الغامض هو الأساس الذي انبثقت منه جميع التغييرات السياسية في العراق.

وقد قضى الحجاج سنيّه الثلاث الأولى جاهداً للسيطرة على الوضع. وهذه المرحلة تعني في العراق، وعلى الغالب، قمع عدد من الثورات والانتفاضات. وكان هدف الحجاج الأول دفع القبائل الى الالتحاق في الحملة ضد الخوارج الجدد. وكان أسلوب الحجاج هنا، وكما عرف عنه بعد ذلك أيضاً بسيطاً لا ابالياً. فمن يتخلّف عن الخروج الى الحرب فجزاؤه قطع الرأس مهما كانت أعذاره. وكانت النتيجة مشجعة ومستغربة للمهلب. فقد تدفق عليه – لمحاربة الخوارج الجدد – أهل الكوفة والبصرة وكان بينهم بعض القرّاء القدامى أيضاً[٥]. ولهذا فقد غدت الحملة صعبة شيئاً ما، فلم يكن من السهل على المهلب إحلال الوفاق بين أهل العراق والأزد العمانيين في جيشه. ولكن الحملة حققت على كل حال هدفها وهو طرد الخوارج ثانية من الأهواز وفارس الى كرمان والشرق. وفي هذه المرحلة انحلّ الائتلاف وارتاح المهلب إذ ترك مع جيشه فقط لتعقيب الجيوش المهزومة[٦].

---

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣١٦ والكامل للمبرد، ج ٢، ص ٦٧٠، والطبري، ج ٢، ص ٨٧٦.
(٦) الطبري، ج ٢، ص ٨٧٧–٨.

وكان هناك بعض الايرانيين البارزين ممن دخلوا الاسلام وممن حاربوا مع المهلب ضد الخوارج ، ومن أشهر هؤلاء فيروز بن حصين وكان من اكبر الأغنياء وملاكي الأراضي في العراق (٧) وكان من مصلحة هذه الطبقة تأمين الأمن والاستقرار في المنطقة. ولكن هذا لا يصحّ على السكان المحليين في كرمان ، الملاذ الأخير للقوى الخارجية الجديدة.

وكان تاريخ كرمان تاريخاً غير اعتيادي. فانها – كما سبق أن ذكرنا من قبل – استسلمت أجزاء لجيوش عبدالله بن عامر في حملته الأولى الى خراسان عام ٣١ / ٦٥١. ومصادرنا واضحة بصورة غير اعتيادية حول تفاصيل استيطان العرب في تلك البلاد. فالغالبية من أهل البلاد هجروها ورحلوا عنها تاركين خلفهم أراضيهم ولذلك فان القلة القليلة من العرب التي قررت الاستيطان والاستقرار في كرمان توزعوا هذه الأراضي فيمَا بينهم وزرعوها ودفعوا العُشر عنها (٨). ولا تشير مصادرنا بعد هذا الى أي خلاف او اضطراب حدث في كرمان مما نستنتج معه أن هؤلاء العرب قد اندمجوا وبسرعة غير عادية مع السكان المحليين. ومن المحتمل أيضاً أن كثيرين من هؤلاء السكان الأصليين قد اعتنقوا الاسلام نتيجة اتصالهم الوثيق مع العرب وكان الجميع يدفعون أعشارهم ورسومهم ولأنه لم يكن هناك كرماني عربي مسجل في الديوان وخاصة بعد تنظيمَات زياد فان الايراد كان يذهب الى البصرة.

ولم يعكر – أول الأمر – وصول الخوارج الجدد صفو هذا البلد الآمن ، فقد أنشأ هؤلاء ، كعادتهم في كل مكان ، جمهورية مستقلة في كرمان وبايعوا لهم أميراً للمؤمنين وواصلوا توزيع الإيراد فيمَا بينهم. وقد عادت هذه الأعمال بالنفع على أهل كرمان ، فأولاً وقبل كل شيء كانت معاملة الخوارج لهم تتسم باللين ، كما هو طبع الخوارج تجاه أهل البلاد المفتوحة موالي كانوا أم غير مسلمين. وانتفع الكرمانيون عرباً وغير عرب من وجود الخوارج بينهم لفصم علاقتهم بالبصرة التي لم تكن إلا علاقة دافع الضريبة بجابيها. ولكن الآن وقد غدت كرمان جمهورية للخوارج الجدد فان ايرادها سيظل فيها بل – وهو الأهم – انه سينفق فيها.

---

(٧) نفس المصدر ، ص ١٠١٩ – ٢٠ والكامل للمبرد ، ج ٢ ، ص ٦٥٤.

(٨) أنظر ما تقدم ص ١٣١ من هذا الكتاب.

وهذا الأمر يعود بالفائدة على الجميع ولكنه لا يمكن أن يدوم طويلاً. فقد كان المهلب يقترب بسرعة فائقة وبقوة كبيرة من كرمان، وقد بدأ أهل البلد يدركون الأخطار الجسيمة التي سيتعرضون اليها عند وصول المهلب بلدهم بسبب إيوائهم هؤلاء الثوار والتعاون معهم ضده ولذلك وكسباً لودّ الفاتح، القادم اليهم دون شك بعد حين جد قريب، فقد انتظم أهل كرمان، الموالي منهم والعرب وغير العرب، تحت قيادة أحد الموالي واسمه عبد ربه وثاروا ضد الخوارج الجدد واضطروهم الى الجلاء عن المدينة الى جبال قزوين[٩] حيث أفناهم هناك عن آخرهم جند أهل الشام الذي كان قد وصلوا العراق حديثاً[١٠].

أما كرمان فقد عادت الى حظيرة البصرة وتحرر العراق نهائياً من الخوارج الجدد وحركتهم، فهذه الحركة التي نشأت أول أمرها من تحالف حنيفة وقبائل أخرى مع بقايا القرّاء — الخوارج قد انتهت الآن الى غير رجعة. وقد كان ابن الأثير واثقاً من هذا إلا أن المؤرخين المعاصرين ما زالوا مع الأسف يتخبطون حول أي فئة من الخوارج كان يعنى ابن الأثير[١١].

وكان عبد الملك أقلّ توفيقاً في القضاء على مصدر المتاعب في أواسط شبه جزيرة العرب وشرقها. فهو لم ينجح إلا في قطع صلة الثوار بالبحر وبالتالي عن رفاقهم من القبائل العربية عبر الخليج[١٢] واذ أرهقهم القتال الطويل فقد ركنوا الى الراحة والهدوء، وما تزال جيوب منهم حتى اليوم في عمان.

ولم تكن هذه، بأي حال من الأحوال نهاية متاعب الحجاج. فقد كانت البصرة تعاني عجزاً مالياً واضحاً بسبب فقدانها اكثر ايرادها، وهذا ما برّر للحجاج إقدامه على إلغاء الزيادة البالغة ١٠٠ درهم في العطاء والتي فرضها ابن الزبير بغية تشجيع أهل البصرة وإثارة حماسهم[١٣] واجراء الحجاج وان كان سليماً من الناحية الاقتصادية إلا أن من التسرّع الإقدام عليه ما لم يكن هو في مركز قوي يؤهله لذلك.

(٩) الكامل للمبرد، ج ٢، ص ٦٥٧ و٦٨٦، والطبري، ج ٢، ص ١٠٠٧.
(١٠) الطبري، ج ٢، ١٠١٨–٢١.
(١١) الكامل، لابن الأثير، ج ٤، ص ٣٥٩.
(١٢) الطبري، ج ٢، ص ٨٥٢–٣.
(١٣) الطبري، ج ٢، ص ٨٧٤، والبلاذري، أنساب، ج ٤، ص ٢٧١.

وهذه المشكلة ازدادت تعقيداً برغبة الحجاج في تقوية مركزه في العراق.

وقد أدرك الآن جلياً، انه مهما تكن صرامة الاجراءات التي تتخذ ضد القبائل العربية في العراق، فليس بالإمكان الاعتماد عليها في تكوين جيش قوي يكون ركيزة الدولة في تنفيذ خططها لذلك بدأ بتكوين نواة ما يمكن أن ندعوه بالجيش النظامي.

والمشكلة هنا هي في إيجاد العدد الكافي من أبناء القبائل الذين يرضون بالانتماء مجدداً الى مثل هذا الجيش وخاصة بعد أن خفض الحجاج العطاء الى ٣٠٠ درهم في العام فقط [١٤].

ومع هذا، فلا بد أن هناك، وخاصة بعد قمع حركات الخوارج الجدد، الكثيرين ممن لا عمل لهم والذين يمكن استدراجهم للانخراط في هذا الجيش الجديد، كما ولا بد أن هناك بعض الشباب في الكوفة والبصرة ممن يرغب في دخول هذا الجيش اذا ما وجد التشجيع الكافي. وقد تعاونت عبقرية الحجاج في اكتشاف الكفاءات الشابة مع حاجته الى الجيش للسيطرة على أرض العراق فأوجدتا الحل المطلوب. فقد جمع حوله شباباً من أمثال قتيبة بن مسلم، وعيّنهم عمالاً في مختلف انحاء العراق وغربي ايران [١٥]. وعلى مرّ الأيام فقد أثبتت هذه التعيينات أو ما يسمى مدرسة الحجاج للولاة، انها تدريب ثمين في فن الحكم.

فقد أثبت هؤلاء الولاة الشباب، وفي مدى قصير، نجاحهم في تشجيع القبائل للانخراط بالجيش الجديد والالتحاق بهؤلاء العمال الجدد في مناطقهم [١٦]. ويجب أن نلاحظ أن هذا المشروع كان في طور التشكيل ولم يكن من المفروض أن يصطحب هؤلاء العمال معهم اعداداً كبيرة من الجنود. وكان اكبر عدد وصله المجندون الجدد هو ٣٠٠٠ وقد عسكرت هذه القوة في الري للحفاظ على الطريق الرئيسي الى خراسان [١٧]، وهي

---

(١٤) البلاذري، أنساب، ج ١١، ص ٢٧٣.

(١٥) الطبري، ج ٢، ص ٩٦٢، ٩٧٩-٨٠.

(١٦) نفس المصدر، ص ٨٩٠ و٨٩٩ و٩٤٨.

(١٧) نفس المصدر، ص ٩٩٦.

كما يجب أن نلاحظ ، في مكان قريب يمكن للحجاج استدعاؤها وقت الحاجة ليستخدمها في العراق.

وكان البصريون أول من تضرر بقرار الحجاج بإلغاء زيادة المائة درهم في العطاء والتي منحها ابن الزبير وقد نظروا الى هذا الاجراء على انه وسيلة لتمكين الحجاج من جمع جيش جديد سيستخدمه آخر الأمر ضد مصالحهم، ولذلك فقد سارعوا الى الثورة.

وقد استطاع الحجاج بالكاد أن يربح هذه الجولة وماكان ليستطيع ذلك لولا المعونة غير المتوقعة من أنصاره المخلصين له أمثال قتيبة بن مسلم[18] وما كان تصرف الحجاج سليماً في هذا الأمر حتى انه تعرض لتأنيب عبد الملك له فلم يكن أمامه الآن أن يترك الأمر بسرعة مع الحفاظ على سمعته ما أمكنه ذلك.

وكان من حسن حظ الحجاج انه تخلص من هذه الحركة بسرعة وسهولة إذ سرعان ما نشبت بعدها على الفور حركة اكبر واخطر بين العبيد العاملين في الحقول قرب البصرة. وليست لدينا معلومات عن أحوال عمل هؤلاء العبيد ولا عن الظروف التي جاءت بهم ووضعتهم هناك ومع هذا فإن مجرد وجودهم هناك يشير الى سعة حركة استصلاح الأراضي في الأهوار في تلك الفترة. ولا بدّ أن أحوال عيشهم وعملهم كانت على جانب كبير من البؤس والتعاسة دفعتهم الى استغلال أول فرصة للثورة. وكان زعيمهم يدعى رباح ويُلقّب بلقب فخم هو «شيري زنج» أي أسد الزنوج، ولا بدّ أن عدد هؤلاء الزنوج الثائرين كان قليلاً لأن أهل البصرة استطاعوا أن يضعوا حداً لهذه الثورة بكل سهولة. ولكن من الممتع أن نجد في هذه الحركة ارهاصاً لثورة زنجية اكبر واخطر ستحدث بعد قرنين من الزمان وفي نفس هذا المكان وهي التي عرفت بالتاريخ بثورة الزنج[19].

وأهم من هذه الثورة واكثر خطراً في نتائجها الآنية كانت ثورة «خارجية» أخرى في منطقة الموصل.

---

(١٨) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣١١، والطبري، ج ٢، ص ٨٧٣-٤.

(١٩) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣١٤ و١٥.

وأسباب هذه الثورة كما هو الحال في مثيلاتها عامة معقّدة متشابكة ولكنها في الأساس كانت في نفوس القرّاء – الخوارج الذين فرّوا من الكوفة واستقروا في منطقة الموصل. وكان عبد الملك قد قرر أن يعيد تنظيم المنطقة وتقوية سلطته فيها. وكان لقراره هذا أسباب عدّة منها أن هذه المنطقة كانت جزء من أرض الكوفة، لكنها لم تكن ذات أهمية كبرى من حيث الايراد فقد كان سكانها نصارى بني تغلب بن وائل، وبسبب وقوفهم في وجه البيزنطيين فقد أعفوا من الجزية وضريبة الأرض التي يدفعها المسيحيون عادة واقتصرت الجباية منهم على أن يدفعوا ضعف الصدقة التي يدفعها المسلمون [٢٠]، وكانت بلادهم بلاداً زراعية إلا أن مهنتهم الأساسية كانت تربية الماشية ورعيها في المروج الفسيحة الممتدة في تلك البلاد. وكان القيسيون النازلون في أرض الجزيرة المجاورة للموصل قد استغلوا الحرب الأهلية الثانية فتسللوا يريدون الاستيلاء على أراضي الموصل [٢١] وهذا أدى بطبيعة الحال الى الاقتتال بين الطرفين وهو أمر في غاية الخطورة في منطقة الحدود هذه. وقد تحرك الروم فعلاً للعمل في المنطقة وبات الوضع يهدد بأخطر النتائج ويتطلب عملاً سريعاً حاسماً. وقد أسرع عبد الملك الى التدخل الحاسم فدفع خطر الروم بصلح مهين إذ صالح ملكهم على أن يؤدي اليه «في كل جمعة ألف دينار» خوفاً منه على المسلمين ثم أنذر بني قيس أنه سيتدخل في القتال ضدّهم مع بني تغلب الأمر الذي أنطق لسان الأخطل شاعر تغلب بالمديح الوافر لعبد الملك [٢٢]. وكذلك قرر ضم الموصل الى مقاطعة الجزيرة التي أنشأها حديثاً بحيث يستطيع الوالي أن يحسم أي نزاع من هذا القبيل في المستقبل. ولم يعترض أحد من أهل الكوفة على هذا القرار وكاد الأمر أن يمرّ بسلام لولا بعض القرّاء الخوارج المقيمين في الموصل.

وكان هؤلاء بعضاً من القلة القليلة من الخوارج الناجية من معركة النهروان وكانوا قد فرّوا وانتهى بهم المطاف الى الموصل. ومع احتفاظهم بروابطهم مع أصحابهم في الكوفة فان معاوية شاء أن يتركهم لأنفسهم [٢٣] ولعله لم يجد لهم أهمية تذكر، أو لعله وجدهم

---

(٢٠) البلاذري، فتوح، ص ١٨١–٣.

(٢١) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٣١٣ و٣١٤ و٣١٧.

(٢٢) نفس المصدر، ص ٣٢٤، والطبري، ج ٢، ص ٧٩٦.

(٢٣) الطبري، ج ٢، ص ١٢٧ و١٤٢.

في مقامهم بمنطقة الحدود الخطرة هذه اكثر نفعاً للدولة. لكن عبد الملك لم يقدّرهم حق قدرهم ولم يظن فيهم القدرة على الأذى فأفقدتهم تنظيمَاته الجديدة ماكانوا يتمتعون به من حرية العمل والاستقلال وأصبحوا في وضع اليائس فقرروا إعلان الثورة.

وابتدأت الثورة في مائة وعشرين شخصاً من بطون وقبائل مختلفة بقيادة صالح بن مسرح التميمي ثم تولى قيادتهم بعد وفاته شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني [٢٤] وكان شبيب قد وُلد في نهاية عام ٢٥ - ٦٤٦ وكانت أُمه جارية يونانية غنمها أبوه في إحدى غزواته في بلاد الروم [٢٥] وكان أبوه أحد القرّاء شأن صالح بن سرح. وقد كتب صالح الى شبيب وكان في الكوفة، يدعوه للخروج الى «جهاد الظالمين» [٢٦].

وكان شبيب فناناً متمرساً بحرب العصابات وخبيراً ذا نزعة فائقة في التمثيل. وكذلك كانت زوجه غزالة التي صاحبته في كل غزواته. وقد استطاعا أن يعملا المعجزات مع قلّة العدد وشحّة المورد، فلم يزد عدد أنصارهما في أي وقت من الأوقات عن الثمانماية شخص وكانوا في اكثر الأوقات أقل من هذا بكثير. وقد روى أن شبيباً استطاع بـ ١٨١ شخصاً أن يدحر قوة من أهل الكوفة تعدادها ٦٠٠٠ شخص لم يكن قائدها أحداً غير ابن الأشعث نفسه وكانت ميزة شبيب هي خفة حركته وكفاءته العسكرية الواسعة فظل يدحر ما يرسله الحجاج من حملات أهل الكوفة الواحدة بعد الأخرى.

وكانت ميزة شبيب الأخرى هي شعبيته، فقد كان كثير من أهل الكوفة يتعاطفون معه لأنه يمثل في الحقيقة مصالحهم ويدافع عنها، وبالاضافة الى هذا وذاك كان شبيب يتمتع بروح الظرف والمرح التي زادت في شعبيته وخاصة بالمقارنة بين مرحه وتجهّم الحجاج وعبوسه. وقد تمكن من دخول الكوفة مرتين والحجاج فيها، ومن القيام بأعمال يقصد بها الاستهزاء بالحجاج والنكاية به، وقد دخلت زوجه غزالة مرة مسجد الكوفة وصلت فيه ركعتين قرأت فيهمَا البقرة وآل عمران (وهما من أطول السور في القرآن الكريم) وفاء لنذر لها واستخفافاً واستهانة بالحجاج وتسلية للآخرين.

---

(٢٤) نفس المصدر، ص ٨٨٧.

(٢٥) نفس المصدر، ص ٩٧٧.

(٢٦) ابن حزم، الجمهرة، ص ٢٣٧، والطبري، ص ٨٨٥.

لكن للأمر جانبه الجاد أيضاً فما من سلاح أمضى من السخرية للاجهاز على ما تبقى من سلطتي الحجاج وعبد الملك المهتزتين، ومع ان ثورة البصرة قد انتهت فان أمر إلغاء زيادة العطاء قد ألحقت أكبر الضرر بسمعة الحجاج وها هي الآن فئة قليلة العدد تضيف السخرية والاستهانة به الى مهانة اندحاره لتضحك الناس عليه وتقضي على ما تبقى له من هيبة ومقام.

وكان شبيب قد بدأ فعلاً محادثات سرية مع وجوه أهل الكوفة مثل ابن الأشعث بل وحتى مع مطرف بن المغيرة وهو قريب الحجاج وعامله على المدائن وابن المغيرة بن شعبة، وكان الشك لا يرقى الى ولاء كل من ابن الأشعث ومطرف لبني أمية وللحجاج. وبهذا أصبح الوضع لا يُطاق ولم يكن أمام عبد الملك والحجاج إلا أن يرسلا ستة آلاف من جند أهل الشام الى العراق وكما أنهت هذه القوة حملات أهل الكوفة الواهنة المتطاولة فانها وضعت أيضاً حداً لثورة شبيب أثر قتله في ساحة المعركة [٢٧].

ولكن لم تلبث أن نشب في الحال ثورة خارجية أخرى، وكانت هذه اكثر الانتفاضات غرابة اذ كانت بقيادة واحد من أهم قواد «مدرسة الحجاج» وعامله على المدائن وهو مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي نفسه. ولم يشترك القرّاء بهذه الحركة، ومع ان مطرفاً حاول إقناع شبيب بالتحالف معه إلا أنه لم يكن بين الاثنين أي سبب مشترك [٢٨].

وكان مطرف دقيقاً وواضحاً في أهدافه وهي معارضة سياسة الحجاج وعبد الملك في استخدام جيش أهل الشام في العراق وفي الاتجاه المتزايد نحو توسيع صلاحيات أمير المؤمنين. فهو يريد عودة نظام المدينة تحت زعامة قريشية مع منح المقاطعات مزيداً من الاستقلال الذاتي [٢٩] وكان وجه الخطر في هذه الثورة هو في محاولة مطرف إثارة الجند العراقي ضد الحجاج. وكاد أن ينجح في مسعاه بدليل مسارعة الحجاج الى استدعاء

---

(٢٧) إظهاراً لأهمية هذه الأحداث فقد روى الطبري تفاصيلها في قرابة المائة صفحة من كتابه. أنظر الطبري، ج ٢، ص ٨٨٠-٩٧٠.

(٢٨) الطبري، ج ٢، ص ٩٨٣-٧.

(٢٩) نفس المصدر، ص ٩٨٤ و٩٨٨ و٩٩٥.

جيش الشام وقمع الحركة[30] وقد أسرع هؤلاء فسحقوا الثورة بما عرف عنهم من قوة وكفاءة ثم عادوا الى الكوفة ونزلوا جبراً في بيوت سكانها[31] . وكان جيش الشام جيشاً محتلاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وقد تمّ أخيراً للحجاج السيطرة على الوضع وقد كافأه عبد الملك على نجاحه هذا فأضاف ولاية المشرق الى ولاية العراق.

ونحن الآن في عام ٧٩/٦٩٨ وقد بدأت سمات الحجاج الايجابية تبرز للعيان. وقد شهدت السنوات الثلاث التالية فترة انتقالية بين سلسلة الثورات المتكررة في السنين الأولى لولايته وبين ظهور سياسته كاملة بعد دحره ثورة ابن الأشعث عام ٨٢/٧٠١. ولا يمكن الإنكار أن الأمور والسياسات ما تزال في مدّ وجزر، فلم يتقرر بعد مثلاً، وهذا أهم موضوع، ما اذا كان جيش الشام سيتخذ قاعدة ثابتة في العراق أم لا. وكما رأينا من قبل فلم يكن أصلاً من المنوي ولا من الممكن استعمال جيش الشام في العراق وحتى الستة آلاف نفر الذين أُرسلوا لدحر شبيب فقد طلبوا أولاً ثم أرسلوا بعد تردد واحجام كبيرين وكان المؤمل سحبهم في أول فرصة سانحة.

والآن وقد ساد السلام المنطقة فالحجاج يستطيع أن ينصرف بتفكيره الى النتائج الاجتماعية والاقتصادية للحرب الأهلية الثانية ولسلسلة الثورات المتعاقبة. وكانت ويلات هذه الحروب والفتن قد دفعت الفلاحين الى ترك أراضيهم إما حباً بالسلامة أو تجنباً للضرائب الباهظة التي أصبح صعباً على المكلفين أداؤها للأضرار الجسيمة التي سببتها الحروب في أساليب الري الدقيقة والحيوية، أو للسببين معاً. وقد خلق تدفق الفلاحين الى المدن مشكلة اجتماعية كبرى لعدم وجود محلات كافية لهم. ومشكلة اقتصادية حيث أن الهبوط في الانتاج الزراعي معناه انخفاض في حصيلة الضرائب. وكان حل الحجاج، كما هو دائماً، بسيطاً ومنطقياً وهو الأمر الى جميع الفلاحين بالعودة الى اراضيهم[32] .

وقد دخل بعض هؤلاء الفلاحين في الاسلام وأصبح لهم – نظرياً على الأقل – الحق في أن يذهبوا أنّى يشاؤون وأن يعاملوا في كل شيء معاملة العرب المسلمين، لكن

---

(٣٠) نفس المصدر، ص ٩٨٩ و٩٩٣ و٩٩٦.

(٣١) نفس المصدر، ص ١٠٦٩ والكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٣٧٦ و٣٨٥.

(٣٢) الطبري، ج ٢، ص ١١٢٢–٣، والبلاذري، أنساب، ج ١١، ص ٣٣٦–٧.

الحجاج لم يكن بالرجل الذي تشغله المسائل الفقهية عن مقتضيات الصالح العام ولذلك فانه مضى في تنفيذ أمره متجاهلاً صيحات الاحتجاج والاستنكار.

أما بالنسبة للعرب فقد وجد الحجاج أن ما أظهروه من بأس وقدرة عسكرية يفوق كثيراً ما كان يرغب في رؤيته منهم، لذلك لجأ الى تقليد قديم وقرر التخلص منهم بتفريقهم في الأرض.

وقد تخلص أولاً من جيش المهلب الذي كان ما يزال في كرمان إذ عيّن المهلب نائباً له في خراسان ليصحبه جيشه اليها(٣٣). ثم جهز الحجاج عام ٦٨ /٦٩٧ جيشاً من أهل الكوفة والعراق وأرسله الى سجستان في الجنوب الشرقي لفتح جبهة جديدة ضد زنبيل ملك زابولستان. وكما حدث من قبل، ولأن أبناء القبائل هؤلاء لم يعتادوا على الحرب في المناطق الجبلية الوعرة فقد كانت النتيجة كارثة شاملة إذ أُبيد الجيش بكامله إبادة تامة ومات قائده هماً وكمداً.

لكن هذه التجربة لم تكن لتوقف الحجاج عند حدّه بل على العكس من ذلك فانها قد أوحت له بأن يعيد خطة التهجير العام التي جرّبها زياد بن أبيه منذ ثلاثين سنة خلت واذ قرر أن يصيب عصفورين بحجر واحد فقد شجع كل العناصر القلقة والباعثة للاضطراب على الالتحاق بهذه الحملة، وقد خطط أن يكون عدد الحملة أربعين ألف شخص وأن يخفي بدقة وعناية حقيقتها وهي أنها ليست مجرد حملة عسكرية وانما هي هجرة اجبارية عامة. ولم يدخر وسعاً ولا نفقة في إخراج جيش الطواويس هذا بالمخرج الحسن فجهّزه بأحسن السلاح وأظهره بأحسن مظهر، ولم يكن يدعى بجيش الطواويس بسبب مظهره البراق فحسب بل لأنه كان يضم بين دفّتيه أبرز قواد العرب وأشهر شجعانهم في العراق وأكثرهم إدلالاً بأحسابهم وأنسابهم وعلى رأسهم محمد بن الأشعث حفيد الأشعث بن قيس بطل حروب الردة وبطل فتوح العراق والى جانبه أيضاً الرؤساء العرب الذين كان لهم الفضل في فتح العراق أمثال عامر بن واثلة الصحابي المعروف كما ضم كثيراً من القرّاء الذين كانوا في صفين(٣٤).

---

(٣٣) الطبري، ج ١، ص ١٠٣٣.

(٣٤) نفس المصدر، ص ١٠٦٥ و١٠٧٦–٧ و١٠٨٦ وابن أعثم، فتوح، ج ٢، ص ١٠٧ ب و١٠٨ أ. وتاريخ ابن خياط، ج ١، ص ٢٨٢ و٢٨٨، تاريخ الاسلام للذهبي، ج ٢، ص ٢٧٦ وج ٣، ص ٨٢ و٣٨٢.

وقد وصل الجيش الى سجستان عام ٦٩٩/٧٩ ومنها تقدم منتصراً شرقاً الى زابولستان ورغم ما أحرزه من انتصارات فلم يكن من السهل عليه الاستمرار في الحرب في هذه البلاد الغريبة الوعرة ، وبدأ الجيش يكلّ ويتململ ، وهنا كشف الحجاج عن نواياه وأمر الجيش أن يواصل التقدّم الى قلب زابولستان بصرف النظر عن فصول السنة أو المدة التي يقتضيها التقدّم. وأحسّ الجيش بالخديعة. فالحجاج لم يكشف لهم عن حقيقة هذه الحملة وانهم لن يعودوا في الخريف والشتاء الى ديارهم بعد حملة الصيف والربيع كما هي العادة. ولو كان الأمر مجرد أمر تجميد البعوث أي إبقاء الحملة أطول مدة ممكنة لهان الخطب. أما فرض الهجرة فأمر فوق أن يطاق. ولذلك تمرد الجيش وعاد الى العراق مغيضاً حانقاً ووجدوا في طريق عودتهم تأييداً كبيراً ، وذلك أن أهل الكوفة طردوا ضيوفهم غير المرغوب فيهم ، وهم جيش الاحتلال الشامي واستولوا على بيت المال ووزعوا المال بينهم بالتساوي فأخذ كل واحد منهم ٢٠٠ درهم فعوّضوا عن أنفسهم لكونهم غير مسجلين في الديوان. وقد حاول أهل الكوفة أن يفصلوا بين ثورتهم وثورة جيش الطواويس ولكنهم في النهاية اضطروا الى العمل معاً وانضم اليهم أهل البصرة الذين ثاروا بالحجاج وأخرجوه من بلدتهم.

وقد عسكر الحجاج خارج البصرة يرسل النداء تلو الآخر يطلب المدد من عبد الملك وهو يكاد أن يفقد مركزه أمام الثوار.

ولم يضيّع عبد الملك وقتاً وأرسل له في الحال كل سوري يمكن أن تقع عليه يده ولم يكن ينتظر لينتظموا في كتائب وفصائل بل كان يرسل كل منهم كما هو حال ما يصل اليه بجماعات قد تصل الى حد الخمسين أو المائة. وفي الأخير استطاع عبد الملك أن يرسل كتيبتين كبيرتين من أهل الشام بقيادة ولده عبدالله وأخيه محمد. وقد دحر هذا الجيش جيش الثورة حال ما التقيا في ساحة القتال عام ٧٠١/٨٢ وفرّ محمد بن الأشعث قائد الثورة الى سجستان حيث مات هناك بعد سنتين (٧٠٤/٨٥) ، في حين تفرّق بقية أتباعه في المشرق.

وبعد هذه الثورة لم يكن أمام الحجاج وعبد الملك من خيار إلا فرض احتلال سوري دائم على العراق. ولأن الكوفة والبصرة فقدتا صفتهما العسكرية فقد بنيت مدينة حامية

جديدة هي واسط لتضم جيش أهل الشام ومن فضّل من قبائل العراق الانضمام الى جيش العراق أو المقاتلة [٣٥] .

وبعد هذا الحادث لم يواجه الحجاج ثورة جادة طيلة الأربعة عشر عاماً المتبقية من حكمه في العراق . ولم يحدث شيء هام طيلة الخمس سنوات المتبقية من حكم عبد الملك . فلذلك علينا الآن أن نلخص التطور السياسي الذي ارتبط بعهده . وأوجز وصف له هو تركيز الحكومة بيد «أمير المؤمنين المطلق الحكم» وهنا وفي هذه الفترة بالذات يمكن الكلام بصورة صحيحة عن الحكومة المركزية لوجود نوع من الجهاز الاداري الذي يدير شؤون الامبراطورية .

ومن المبالغة أن نتكلم عن مثل هذه الأشياء كما كانت في ظل حكم المدينة . ولو أن عثمان قد قام ببعض الأعمال في هذا الاتجاه ، ولكن وابتداء من معاوية فان هناك دلائل واضحة على تطور مثل هذه المؤسسات . ومما لا شك فيه فقد كان للحكومة المركزية في دمشق بعض السيطرة على المقاطعات على الأقل ، من خلال العمال او معاوني الولاة الذين أحسن معاوية اختيارهم . ولكنها كانت سيطرة رخوة تعتمد أساساً على الحفاظ على ميزان القوى الدقيق . وكانت سياسة معاوية تستند على التأييد الصلب للسوريين أنفسهم ولكن مما ساعده أيضاً انه ورث عن الروم نظاماً ادارياً فعالاً في الشام ، في حين لم يكن لأهل المدينة مثل هذه الميزات . وقد حاول معاوية أن يطور هذا النظام على نطاق الامبراطورية كلها [٣٦] . ولم يكن هذا أمراً سهلاً إذ لم يكن هناك عدد كاف من العرب المدربين تدريباً جيداً لتولّي الوظائف المعقدة في هذه الأجهزة . وعلى كل فقد كان من الممكن أن تتناسق سياسات حكومات المقاطعات في مصر والعراق مع سياسات الحكومة المركزية .

ومن المؤكد أن تعيين زياد بن أبي سفيان الذي تمرّس بشؤون العراق كوالٍ لتلك المقاطعة كان خطوة ذات دلالة في هذا الاتجاه . ففي عهد معاوية كانت الحكومة المركزية لا تعنى وتؤثر إلا في المستويات العليا للسياسات العامة دون أن تمارس سلطة مباشرة على المقاطعات بل وتمتنع عن مثل هذا العمل .

---

(٣٥) لزيادة التفاصيل أنظر الدكتور شعبان ، الثورة العباسية ، الترجمة العربية ، ص ١٢٥–١٢٨ .

(٣٦) الطبري ، ج ٢ ، ص ٨٣٧ .

ومع أن حكومة معاوية أثبتت عدم كفاءتها فان عبد الملك لم يكن له من خيار أول الأمر إلا اتّباع نفس السياسة. ولعله أمل أن تتطور الادارة القائمة بمضي الأيام الى حكومة امبراطورية شاملة، أولاً عن طريق تقوية الادارة الاقليمية ومن ثم في دمجها جميعاً في حكومة مركزية واحدة.

وقد تطورت الادارة السورية بصورة جيدة وتمّت السيطرة عليها [٣٧]. وكانت في العراق مشاكل كثيرة تتطلب الحل قبل التفكير بإدخال أي تجديد.

وكانت مصر حيث يسود السلم والهدوء المقاطعة المثالية لوضع مثل هذه الخطة موضع التنفيذ وكان واليها عبد العزيز بن مروان أخ عبد الملك نفسه. وقد استطاع خلال مدة ولايته الطويلة (٦٥–٨٥/٦٨٥–٧٠٥) أن يدخل بهدوء ونجاح تغييرات أساسية في تنظيم تلك المقاطعة. فقد كان العرب جميعهم ومنذ أيام الفتح الأولى، يعسكرون في المدينة الحامية الفسطاط مع وجود حاميات دورية في الاسكندرية وخربيته. ومع فتح شمالي أفريقيا أصبح هذا النظام أقل لزوماً، لذلك فقد حلّت، تحت ظل النظام الجديد – حامية الفسطاط وانتشر العرب في مختلف أنحاء مصر. وخاصة على طوال سواحل البحر الأبيض المتوسط [٣٨].

وعلى هذا فقد ضمنت سلامة هذا الاقليم من الهجمات البيزنطية واستطاع العرب – في نفس الوقت – أن يراقبوا بدقة نشاط الموظفين المصريين [٣٩] واكثر من هذا فقد بدأ العطاء ونظم أمره لجميع القبائل العربية في جميع أنحاء مصر. وكان معدل العطاء هو ٢٥ دينار بالاضافة الى بعض المواد الغذائية التي توزع عليهم [٤٠]. ومن الواضح أن عدد العرب المقيمين في مصر حتى ذلك التاريخ كان يتراوح بين الثلاثين الى الأربعين ألف رجل [٤١] وقد نقلت هذه القبائل من الحياة الصعبة الضيقة في مدن الحاميات وأصبحوا الآن جيش احتلال بالمعنى الصحيح مسؤولاً عن سلامة المقاطعة واستقرارها مقابل ما

---

(٣٧) نفس المصدر، ج ١، ص ٨٣٧–٨.

(٣٨) وقد بدأ الوالي بنفسه فنقل مقره من الفسطاط الى حلوان، الكندي، الولاة والقضاة، ص ٤٩.

(٣٩) نفس المصدر، ص ٣٩ و٩٤.

(٤٠) نفس المصدر، ص ٤٥ و٤٩ و٥٠.

(٤١) نفس المصدر، ص ٤٢.

يدفع لهم من عطاء عن هذه الخدمات. وأصبح رؤساؤهم بطبيعة الحال مسؤولين عن حسن الادارة كل في منطقته وهكذا انتشر الحكم العربي بصورة فعّالة في جميع أنحاء الاقليم المصري.

أما العراق فقد عرقل انعدام وجود القوة الموثوق بها فيه جهود الحجاج لتأسيس نظام مشابه، ولو على نطاق أضيق. فقد كانت مساحته اكبر من مصر. وكان مصراه الكوفة والبصرة أوسع وأكثر تطوراً من الفسطاط التي لم تكن قد خرجت بعد من كونها مدينة حامية من مدن الحاميات في المنطقة.

وقد أقنعت ثورة المطرف بن المغيرة الحجاج بخطر الاعتماد على قوات من أهل البلد للسيطرة على البلد نفسه، فقد فشلت هذه التجربة ولم يبقَ له من خيار إلا استدعاء الجند السوري، لإنقاذ الوضع، واذ جاء الجند السوري واحتل العراق فقد تهيأت الفرصة للحجاج لأن يشدد قبضته على ادارة المقاطعة والأراضي التابعة والمجاورة لها، وان يعيد ثانية تعيين العمال في مختلف أنحائها. وقد قصد هؤلاء العمال مراكزهم هذه المرة بسلطات مطلقة يؤيدها والٍ قوي مطلق الصلاحيات ويسندها عند الحاجة جند أهل الشام.

وكان الوالي نفسه تحت سيطرة عبدالملك التامة وينفذ بكل دقة واخلاص أوامره الصريحة وهكذا كانت سلسلة القيادة تبدأ من أمير المؤمنين الذي بدأت صلاحياته وسلطاته تزداد يوماً بعد يوم ومنه تنتقل الى مستوى ولاة الأقاليم ثم العمال. وكان هذا هو واقع الحال في كل أنحاء الامبراطورية.

وفي دمشق كانت الادارة الوليدة التي خلقها معاوية تتسع تدريجياً لتعالج وتتعاون مع نشاط الاعضاء المتعددين لهذا النظام الامبراطوري الجديد. وعلى هذا فقد وسّع ديوان الخاتم الذي أسّسه معاوية ليصبح ديواناً شاملاً لجميع محفوظات الدولة في دمشق [٤٢] وعلى نفس النمط توسعت ادارات الأقاليم ولو انها ظلت أساساً تحت سيطرة الولاة أنفسهم. ولم يكن الوقت قد حان بعد لدمج ادارات الاقاليم بادارة الحكومة المركزية وان بدأت بالفعل محاولات لتوحيد الدوائر في الاقاليم نفسها. ويتضح لنا هذا جلياً من ظاهرة ترجمة الوثائق الرسمية أوكتابتها باللغة العربية وكانت حتى ذلك الوقت

---

(٤٢) الطبري، ج ٢، ص ٢٨٥–٦، ومروج الذهب للمسعودي، ص ٢٣٩.

تكتب بالقبطية أو اليونانية أو الفارسية وقد ساعد هذا بالطبع على تقوية قبضة ولاة الاقاليم على الادارات المحلية وعلى فتح باب الوظائف أمام العرب. وعلى هذا النمط وفي الوقت نفسه استطاعت الحكومة المركزية أن تؤمن لها الضبط الكافي على اقتصاديات البلاد باصدارها، وللمرة الأولى، نقوداً عربية موحّدة لتحلّ محلّ الدرهم الساساني الفضي والدينار الرومي الذهبي وكانا هما كل النقود الموجودة في التداول، وما كانت النقود العربية الجديدة التي تصدر بين الحين والآخر إلا تقليداً لهذه النقود لولا تميزها بالكتابة الاسلامية.

وكان صواب هذا العمل من الوضوح على جانب كبير إذ ليس من المنطق أو المفيد الاستمرار في الاعتماد على نقد العدو في اقتصاديات البلاد. وقد نجحت النقود الجديدة في هدفها، وخصوصاً تلك التي صُكّت أيام الحجاج. إذ كان الذهب والفضة فيها أقل مما في النقود الرومية والساسانية [٤٣] ولذلك وطبقاً للمبدأ القائل ان العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة فان النقود العربية طردت النقود الرومية والساسانية من التداول وحلت محلها وهذا بالذات هو ما كان يهدف اليه عبد الملك.

ولكن الأهم من هذا كله في تنفيذ سياسة عبد الملك هو التركيب الفعلي للقوى المؤثرة بالنظام أو ما يمكن تسميتها أعمدة النظام أو أركانه وكانت تتكوّن من جند الشام والمقاتلة والولاة وبني مروان.

وبسبب الظروف السائدة فقد غدى الجيش الشامي أهم هذه الأركان وأقواها وقد تحول بالتدريج من قوة عسكرية محلية صغيرة تقتصر مهمتها على حدود بلادها الى جيش امبراطوري يضبط الامبراطورية جمعاء.

فبدلاً من اقتصاره على الصوائف أي مغازي الصيف على حدود الروم في شمال سوريا، كما اعتاد أن يفعل ذلك من قبل، فقد أصبح على هذا الجيش الآن أن يذهب حتى أقصى الشمال الافريقي ليقمع ثورات البربر هناك. واكثر من هذا مطلباً وأقل مكسباً هو الحاجة الى إبقاء حامية منه في العراق لضمان السيطرة على ذلك القطر. ومن الطبيعي أن تؤدي هذه الفعاليات الى ترك آثار عميقة على ما اعتاده أفراد هذا الجيش من أساليب

---

(٤٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٦٦ و٤٨٨.

العيش وبالتالي أن يثابوا على ذلك كله خير الثواب . ولم يكن أمام عبد الملك من خيار إلا أن يجزل لهم العطاء ويعممه عليه فيشمله كل فرد من أفراد هذا الجيش مقابل خدماتهم التي لا تعوّض . وهكذا أصبح الجند السوري هو الجيش النظامي الذي يقف على أهبة الاستعداد لمواجهة كل أمر طارئ وإن لم يعني ذلك أن يكون جيشاً متفرّغاً .

وكانت الحامية في واسط تتألف لا من السوريين المقيمين إقامة دائمة هناك فحسب ، وانما أيضاً من السوريين الذين يرسلون اليها على أساس دوري . ويجب أن نذكر هنا انه رغم أن الجزيرة قد أصبحت الآن ولاية مستقلة فان القبائل العربية الموجودة فيها والتي تؤيد عبد الملك ظلت تعامل من جميع النواحي وجميع الأغراض وكأنهم جزء من الجيش السوري ، وكان العطاء يمنح لمن يقبل منهم الخدمة العسكرية . وفي الواقع فقد شجع بعض العرب العراقيين على الانتقال الى الموصل والانخراط في الجيش هناك (٤٤) مما يدل على أن بعض عرب الجزيرة لم يكونوا متحمسين جداً للانخراط بالجيش .

أما المقاتلة ومعظمهم من قبائل العراق وشرق شبه الجزيرة التي تؤيد النظام وسياسته التوسعية ومن كانوا يمنحون مقابل نصرتهم وولائهم العطاء العادي وحصة من الغنائم . واكثر من هذا أهمية انهم كانوا يمنحون النصيب الأكبر في حكم البلاد عن طريق تعيين رؤسائهم وقادتهم عمالاً في مختلف الأنحاء . وهذا كما لا حاجة للقول قد هيأ لهؤلاء الرؤساء سبُل البروز السياسي والربح الشخصي عن طريق «الهدايا» التي جرى العرف على تقديمها للحكام العرب اتباعاً لتقليد ساساني قديم (٤٥) وهكذا تحول المقاتلة الى طبقة معينة ذات امتيازات وأصبحوا الى حدٍ ما نسخة مروانية جديدة محترمة من طبقة القرّاء .

أما ركنا الولاة وبني مروان فطالما كانا يختلطان ويتداخلان ، ذلك لأن كثيراً من بني مروان كانوا ولاة وعمالاً . ولنبدأ بالحديث عن الولاة العاديين أولاً . ففي نهاية هذا القرن كان جميع الولاة من تلامذة مدرسة الحجاج وأصحابه فهو الذي يختارهم ويتولى تدريبهم بنفسه ، فالشاب الكفء السعيد الحظ الذي تلمحه عين الحجاج وتلتقطه يداه تنفتح أمامه أبواب المستقبل اللامع المضمون إذ ان عبد الملك يثق ثقة تامة في قدرة الحجاج على اكتشاف الكفاءات وانتقائها وعلى هذا فما إن حلّ عام ٨٦/٧٠٥ حتى

(٤٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ٨٩٣ وتاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٤٥) ابن عبد الحكم ، أبو محمد عبدالله ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ١٦٦ .

كان الحجاج يتمتع برصيد ضخم من كفاءات تلامذته ومن تأييد دمشق له. وكان أكثر هؤلاء شهرة وقدرة هو قتيبة بن مسلم الذي كان في ذلك الحين مندفعاً في نشر سياسة الحكومة التوسعية في أواسط آسيا بحماس عظيم ونجاح أعظم.

وكانت أغلب الولايات الأخرى في أيدي أبناء بني مروان، وان كانوا على العموم يعطون الولايات السهلة ادارتها، القليلة مشاكلها تجنباً لاحتمال الفشل لأبناء عائلة يهمها الحفاظ على سمعتها وسمعة أبنائها.

أما الأقاليم الأخرى كالأقاليم الشرقية حيث كان احتمال الفشل فيها جد كبير كإقليم العراق وهو أخطر الأقاليم وأصعبها مراساً فقد عهد بها — كما رأينا — الى الحجاج وتلامذة مدرسته حيث ستضاف أمجادهم الى أمجاد العائلة الحاكمة في حالة نجاحهم ويتحملون وحدهم وزر أخطائهم في حالة الفشل.

وبالاختصار فاننا نجد عند عبد الملك في أخريات عهده نوعاً من بيروقراطية متطورة وولاة يستطيع الاعتماد عليهم والوثوق بهم.

وأهمية بني مروان في إقامة النظام أمر يستحق الاهتمام. ولعله لوحظ اننا كنا خلال هذا الفصل كله نطلق لفظ المروانيين أو بني مروان بدلاً من بني أمية أو الأمويين. والفرق بين الاثنين بيِّن وهامّ.

فقد انتهى آل أبي سفيان عند معاوية بن يزيد، ومن ثم تولى الحكم بعده مروان بن الحكم وذريته من بعده. وليس الفرق بين البيتين مجرد فرق في النسب العائلي فحسب، بل ان الفرق بينهما فرق سياسي يتجلى في السياسة السفيانية الحذرة والسياسة المروانية العنيفة.

وإضافة الى ذلك فقد كان بنو مروان كوحدة عائلية ذوي أهمية خاصة، فقد كان أهم ما يميز السياسة المروانية تأكيدها على الحقوق الجماعية للعائلة الحاكمة، وعلى العكس من بني سفيان فقد عمل المروانيون بكل جَدّ وحماس على زيادة عدد أفرادهم مما ساعدهم على الاحتفاظ بالملك والبقاء فيه. فقد استغلوا ضخامة عدد أفراد عوائلهم لخلق ما يمكن أن يسمى حكماً عائلياً جماعياً. وقد احتفظ أمير المؤمنين بسلطته المطلقة نظرياً ولكن كان عليه من الناحية العملية أن يشارك عائلته سلطاته هذه. ذلك لأن ولاء جيش أهل الشام ينصرف اليها كمجموعة اكثر مما ينصرف الى أي فرد معين من أفرادها.

ولذلك فقد كان اختيار أمير المؤمنين لا يتمّ إلا بموافقة العائلة عليه ، وحين يتولى مرشحها الحكم فعليه أن ينظر دائماً بعين الاكرام والانعام إلى أولئك الذين جاءوا به وانتخبوه وأن لا ينساهم عند المشورة والوظيفة.

وقد سبق أن وصفنا أسلوب التوظيف وعلينا أن نضيف هنا أن تعيين المروانيين ولاة على الأقاليم كان له – بالاضافة الى أشياء أخرى – نفع تمرين أفراد هذه الأسرة على شؤون الحكم وتهيئتهم لقيادة الدولة في المستقبل.

هذا هو تركيب القوى في النظام ، أو هذه أركان القوى فيه – ، وكلها كما رأينا قد وضعت لخدمة أمير المؤمنين الذي وإن لم يدع بأية سلطة دينية لنفسه فان ضغط الظروف وواقعية السياسة قد وضعتاه في موضع الحاكم الزمني المطلق.

وقد أصبحت هذه القوى أخريات أيام عبد الملك مؤثرة فعّالة كما يدل على ذلك ما شهده عهد ابنه وخلفه الوليد من هدوء واستقرار.

فقد خلف الوليد أباه عبد الملك في الحكم وخلف الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك. وكان حكم الوليد ٨٦– ٩٦/ ٧٠٥–٧١٥ مجرد استمرار هادئ لحكم أبيه.

فقد ظل الحجاج رجل الامبراطورية ، بل وازداد كما هو المتوقع نفوذاً وهيمنة. وظلت السياسة التي رسمها الحجاج وعبد الملك متبعة سائدة وكل ما ميّز عهد الوليد عن عهد أبيه هو الاستقرار الشامل الذي شهدته سنوات حكمه والذي شمل الامبراطورية في كل أنحائها مما هيأ للوليد الوقت للانصراف الى تحقيق المزيد من الشق الداخلي من سياسة الحجاج – عبد الملك.

وقد استمر جمع من بني مروان أو من تلامذة الحجاج في حكم الامبراطورية فقد كان وليّ العهد نفسه سليمان والياً في فلسطين يتدرّب على شؤون الحكم في حين اشتهر أخوه مسلمة بحملاته الموفّقة على حدود أرض الروم ، وكان ابن عمهما عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة للسبع سنوات التالية ، وان كان تاريخ عمر في هذه الفترة يكشف لنا المدى البعيد الذي بلغته قوة الحجاج ونفوذه بحيث لم يعد بنو مروان أنفسهم في مأمن منه على مراكزهم ، اذ اننا نجد أن عمر بن عبد العزيز نُحّيَ عن ولاية المدينة عام ٩٣/ ٧١٢ ليحلّ محله أحد أتباع الحجاج لا لسبب من عدم القدرة والكفاءة وإنما لأنه جرُأً على

الجهر بمعارضة سياسة الحجاج الى حد الترحيب في المدينة بأعداء الحجاج من زعماء المعارضة من أهل العراق وإيوائهم وحمايتهم (٤٦).

واستمرت كذلك في عهد الوليد حروب الفتوح على أوسع نطاقها في شمال أفريقيا وفي أواسط آسيا، بل فتح الحجاج جبهة جديدة في الهند في وادي نهر السند في القسم الذي يعرف اليوم باسم بلوجستان.

وكان الأعظم أثراً والأبلغ دلالة من كل ما تقدّم هي سياسة الوليد الاجتماعية والاقتصادية فقد تميزت فترة حكمه بازدياد إنفاق الحكومة على المشاريع العامة بأنواعها كافة وبشكل واضح لم يعهد من قبل وطبقاً لما كان يبدو وكأنه سياسة إنمائية مستنيرة.

ولم يكن هذا في واقع الحال أمراً جديداً صرفاً. فقد سبق لعبد الملك أن بدأ شيئاً من هذا القبيل فأبدى بعض الاهتمام بإنشاء البنايات العامة الضخمة فهو الذي بنى قبة الصخرة ولكنه لم يبلغ في ذلك مبلغ ابنه الوليد.

وكذلك فقد أنفق الحجاج نفسه أموالاً طائلة على إصلاح نظام الري في العراق وصيانته في القسم الجنوبي من البلاد، واستمر يعمل ذلك فترة طويلة من الزمان — وكانت مبررات الحجاج لعمله هذا واضحة جليّة فقد كان يريد أن يعيد للوجود نظاماً زراعياً متقناً كان مصدر الخيرات للبلاد ثم دمّرته ويلات الحروب الطويلة وأن يعمل على تحسينه وتوسيعه وبالتالي أن يخلق مجالات عمل للأيدي العاملة التي سرّحت من الجيش في البصرة والكوفة.

فقد أورث عبد الملك عهد ابنه الوليد أمرين هامين هما الثروة العظيمة التي تجمعت من الفتوحات الجديدة وما كان في الواقع نظاماً نقدياً متزعزعاً.

وفي نفس الوقت كانت مدن الامبراطورية تنمو وتتسع بسرعة تفوق سرعة نمو التجارة والصناعة التي يجب فيها أن توفر فرص عمل كافية للاعداد المتزايدة في المدن الجديدة السريعة النماء. وكان النظام سخياً في اقطاع الأراضي وهبات المال الى أفراد

(٤٦) الطبري، ج ٢، ص ١٢٥٤.

الأسرة الحاكمة والى الرؤساء العرب والى الشعراء، وقد شملت هباته هذه حتى أعداءه التاريخيين من أبناء بيت رسول الله ﷺ.

وبالاختصار فقد كانت هناك كل بذور القلق الاجتماعي، لذلك فقد استعمل الوليد بعضاً من ثروة بيت المال الوفيرة لإصلاح أحوال المدن ودخول أفرادها. فبدأ ببناء المساجد الفخمة وأهمها الجامع الأموي في دمشق وبناء المستشفيات والطرق. ومع ان بعض هذه المباني كانت ذات نفع عام فانها بُنيت بإسراف كبير ربما كان متعمّداً لايجاد أعمال أو موارد دخل للعاطلين من أبناء المدن(٤٧).

وكانت هذه المشاريع قد خططت غالباً لنفع غير العرب من سكان بلاد الشام الذين تؤهلهم مهارتهم الفنية لهذه الأعمال أما غير المهرة من العمال فليس لهم إلا العمل الرخيص.

ومع ان هذه المشاريع لا تعتبر ذات أهمية اقتصادية بعيدة الأمد فقد كانت على كل حال خطوة صائبة في الاتجاه الصحيح. فلأول مرة بدأ الحكام العرب يفكرون في حل مشاكل السكان والترفيه عنهم أو على الأقل في سوريا فقط.

وطبيعي أن تشمل هذه المشاريع الطبقات الفقيرة أيضاً، ولكن المرء لا يستطيع أن يتكلم عن وجود طبقة متوسطة في هذه الفترة من الزمان. ففي الأفكار والأحوال السائدة في الامبراطورية وقتَ ذاك لم تكن هناك إلا طبقتان اجتماعيتان فقط هما الطبقة العربية الحاكمة وطبقة أبناء البلاد المحكومين. وكان من الطبيعي أن يعتنى بالطبقة العليا وينظر الى رفاهها، وكان فيها — دون شك — بعض العناصر الضعيفة كالمرضى والمجذومين والعميان، ومن أجل هؤلاء ابتدع الوليد ما يمكن تسميته بمعونة الدولة للطبقة الحاكمة.

ويجب ألا يغيب عن البال أن المجتمع كان مجتمعاً قبلياً عائلياً تقع فيه مسؤولية إعانة الفقير ورعايته على عاتق قريبه الأحسن منه حالاً أو الأوفر ثراء، ومع ان الاسلام قد أوجب الزكاة فريضة لمساعدة الفقراء من المسلمين إلا أن أساليب جمع الزكاة كانت قد تغيرت كثيراً منذ أيام عثمان. فكانت الزكاة في أول الأمر تقع على جميع أنواع الثروات،

---

(٤٧) الطبري، ج ٢، ص ١١٩٣-٦وتاريخ الاسلام للذهبي، ج ٤، ص ٤٦.

وكان عمال الصدقة الذين تعينهم الدولة لهذه الأغراض يقومون بتقديرها وجمعها وخزنها في بيت المال.

لكن انتقال الجماعة من التجارة الى الفتوح، جلب معه ثروات طائلة صارت مبالغ الزكاة تجاهها شيئاً زهيداً لا يعتدّ به. ولذلك ترك أمر دفعها الى ضمير الأفراد ووازعهم الديني عدا الزكاة الواجبة على الأرض المملوكة للمسلم فقد ظلت، شأنها شأن كل ضرائب الأرض الأخرى – واجبة الدفع الى عامل الصدقة وواجبة الجباية منه (٤٨).

واذ كانت الدولة تجمع هذه الرسوم (أو الزكاة) على شكل اعشار من منتوجات الأرض فقد أصبحت العناية بالفقراء أمراً واجباً عليها، واذ رأى الوليد أن هذه المسؤولية تقتصر على العرب المسلمين فقط فقد عيّن لهؤلاء فقط معاشات، وذهب الى اكثر من هذا فمنح العميان، وكانوا كثرة، عبيداً ليقوموا بخدمتهم وقيادتهم في الطرقات (٤٩).

وكانت الفتوحات الجديدة قد جاءت بأسرى كثيرين كجزء من خمس الغنائم، ومع ان النتيجة الطبيعية لهذا كانت انخفاض أسعار الرقيق وبالتالي انخفاض قيمة موجودات بيت المال، إلا أن هذا الاجراء كان ينال رضى الطبقة العربية الحاكمة (٥٠) وعلى هذا الأساس يمكن بسهولة فهم برنامج «الخير العام» الذي وضعه الوليد على أنه مجرد جهاز ضخم للترفيه عن الطبقة الحاكمة.

* * *

وقد توفي الحجاج عام ٩٥/٧١٤، أي قبل عام تقريباً من وفاة الوليد نفسه، وهي صدفة طيبة للحجاج لأنه كان يعلم تماماً ما سيصيبه من ذل وأذى لو قُدِّرَ لسليمان ان يظفر به (٥١) فلم يعد سراً أن سليمان سيسلك حين يتولى الحكم سياسة مغايرة كل المغايرة لسياسة عبد الملك – الحجاج ولكن ما من أحد كان يستطيع أن يغيّر في مجرى الأمور هذه.

---

(٤٨) ابن سلام–الاموال، ص ٥٦٨ و٥٧٣ والسيوطي، تاريخ الخلفاء، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٦٤.

(٤٩) الطبري، ج ٢، ص ١٢٧١ والذهبي، تاريخ الاسلام، ج ٤، ص ٦٧.

(٥٠) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج ٤، ص ٦٢.

(٥١) الطبري، ج ٢، ص ١٢٧٢.

وقد كانت وصية عبد الملك في أن يخلف سليمَان أخاه الوليد واضحة صريحة وقد أقرّها أهل بيته قبل وفاته.

وقد يبدو مستغرباً أن تتعرض للامتحان صواب هذه السياسة التي سارت عليها البلاد بكل هدوء طيلة الخمسة عشرة عاماً المنصرمة وقد كان لهذه السياسة تأثير كثير في حياة الناس أجمع وفي كل أنحاء الامبراطورية. فقد كان لها المؤيدون المتحمسون كما كان لها المعارضون الأشدّاء، وفي العصر الحديث يتخذ مثل هذا الانقسام في الرأي العام شكل أحزاب سياسية ذات مناهج معينة، لكن الناس قبل ثلاثة عشر قرناً لم يكونوا قد وصلوا بعد الى معرفة هذا الجهاز السياسي وان كانوا قد عرفوا قضايا كثيرة يختلفون في الرأي حولها كل الاختلاف.

ويمتلأ تاريخ هذه الفترة بأسماء الجماعات ذوات القضايا المشتركة، ومن هذه الجماعات ما يمكن التعرّف عليهم بسهولة ووضوح كالشيعة مثلاً ومنهم ما هو اكثر تعقيداً وغموضاً كالقرّاء. ومهمة المؤرخ أن يكشف المواضع الحقيقية التي يشترك فيها الناس في قضية معينة وعليه في نفس الوقت أن يكون دقيقاً فلا تضلله التفسيرات السطحية.

ان صلاح سياسة عبد الملك – الحجاج للاستمرار ظلت موضع الخلاف بين الناس في حياتهما وطيلة ما تبقّى بعدهما من العهد الأموي. وكانت النقطة الأساسية في هذه السياسة هي التوسع بكل آثاره على سكان الامبراطورية جمعاء. فقد تعورف على تسمية المؤيدين لهذه السياسة والداعين الى استمرارها بـ «قيس ومضر»، والقيسية والمضرية أما المعارضون لها فقد أُطلق عليهم اسم «اليمَانية».

ومع الأسف فقد فهم هذان المصطلحان على معناهما الظاهرين أي على أساس الطائفية القبلية. ولا شك في أن هذه الأسماء هي أسماء قبائل أو تجمعات قبلية معينة ولكن يراد بها في هذا المجال أن تعني تجمعات عربية معينة ذات أهداف ومصالح مشتركة بصرف النظر عن انتماءاتها القبلية.

وليس من المستغرب أن توضع هذه الأسماء لهذه الأغراض في ذلك الزمان، فقد كثُر في ذلك الزمن إلصاق الأسماء القبلية المختلفة وبشكل اعتباطي، على بعض التجمعات العربية لأسباب تتعلق إما بتخطيط المدن أو تنظيم الجيش أو توزيع العطاء.

وقد فشلت شجرات النسب المتقنة الصنع التي يقدمها لنا النسابة المتأخرون في

الدلالة عن انتماء كثير من البطون المهمة مثل باجلة التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ فتح العراق [٥٢] كما وانهم لا يدرون على وجه اليقين ان كانت القبيلة السورية النافذة قضاعة تتبع قيساً أم اليمن [٥٣].

ومما له دلالة في هذا الصدد ان هذا الصراع بين قيس – مضر وبين اليمانية قد وجد في هذه الفترة التي ندرسها فقط. ولم يكن له أثر ما في الجاهلية أو في حروب الردة أو حروب الفتوح ولا حتى في الخصومة والنزاع المرير خلال الفتنة الأولى. ثم ما لبث هذا النزاع أن انتهى حال زوال الحكم الأموي وقيام حكم بني العباس.

ومن الخطأ أن نفسر هذا النزاع على أنه عصبية قبلية فحسب، ومما يساوي ذلك خطأ أن ننظر اليه على أنه نزاع بين عرب أهل الشمال وعرب أهل الجنوب. فهذه التفسيرات تضر بحقائق الموضوع وتبخس بشكل مؤسف من قدرة العرب على فهم وادراك كل ما يتعدى المنافسات والخصومات القبلية.

والحقيقة أن سبب هذا النزاع هو وجود أمور مختلف عليها سواء في بلاد الشام قلب الامبراطورية وعاصمتها أم في العراق أم في المناطق البعيدة مثل خراسان أو شمال افريقيا. ولهذا فحيثما ينشب نزاع بين طرفين حول قضيةٍ ما في أي مكان في الامبراطورية فاننا نجد أن هناك فريقاً من قيس ومضر مع اليمن وفريقاً من اليمن مع قيس ومضر [٥٤].

وقد بدأ النزاع بادئ ذي بدئ بين هاتين المجموعتين على شكل حوادث منفصلة لا رابط بينها ولذلك فقد غابت عنا حقيقة أصله المشترك.

ومن الطبيعي أن تكون الفئة الحاكمة وهي قيس – مضر عنيفة اعتدائية وان تكون مسموعة الكلمة نافذة الرأي، وان تضع سياسات إيجابية وتعمل على تنفيذها. في حين كانت المعارضة اليمانية يعوزها الانتظام ووحدة الرأي.

---

(٥٢) نفس المصدر، ص ٢١٨٣–٢٢٠٠.

(٥٣) البلاذري، أنساب الاشراف، ج ١، ص ١٥ و١٦، الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج ٨، ص ٩٠، ابن حزم، الجمهرة، ص ٨ و٤٤٠ و٤٤٥.

(٥٤) الدكتور شعبان، الثورة العباسية، الترجمة العربية، ص ١٦١–١٦٣.

ولم يكن هناك خلاف بارز بين الفئتين أول الأمر. ولكن المضي في سياسة التوسع ثم الاصرار على عدم تغيير الأوضاع أثارتا اليمانيين ودفعتاهم الى معارضة أوضح. وماكان انهيار النظام المرواني في آخر الأمر إلا نتيجة عدم قدرة هاتين الفئتين على الاتفاق للوقوف معاً أمام مؤيدي الثورة العباسية الأشداء.

وكان الضعف الكبير في سياسة الحجاج–عبدالملك هو اعتمادهما التام على الاستمرار بالفتوحات كعلاج لجميع أدواء الامبراطورية وعللها، دون الالتفات الى حركة الاندماج التي بدأت تمدّ جذورها بين العرب أنفسهم في البقاع الجديدة، ولذلك فقد تجوهل أهم تطور اجتماعي أو انه عورض. وكانت هذه المشكلة تزداد حدة مع الأيام، ذلك لأنه كلما ازدادت القبائل استقراراً ومن ثم اندماجاً مع السكان زاد نفورها من سياسة الحروب المستمرة وزادت معارضتها لها. وكانت النتيجة أن صارت الحركة نحو الاندماج تعتبر حركة ضد المروانيين ولأنها حركة فعالة نامية فقد استطاعت القضاء عليهم في النهاية.

وما ان اكتشف اليمانيون هذه الحركة حتى تشبثوا بها كبديل للسياسة القيسية السائدة، وكان هذا هو مظهر معارضتهم الوحيد لسياسة عبد الملك وابنه الوليد من بعده، ذلك لأن زمنَي حكمهما كان يشهد حركة اندماج عظيمة في المصالح والثقافة وفي الدين والعرق.

وفي خراسان وفي خلال أيام الفتنة الثانية توقفت الحروب هناك مدة أربعة عشر عاماً.

ومن الطبيعي أن يبدأ العرب المهاجرون بتذوّق طعم حياة الاستقرار والهدوء وان يزاولوا شيئاً من التجارة أو الزراعة وبهذا بدأت المصالح تربط بين العرب والايرانيين، وهذه المصالح بدأت تأخذ بالتشابك والازدياد بطبيعة الحال.

وحتى قتيبه نفسه، وهو من أخلص تلامذة الحجاج، ساعد على تشجيع هذه الحركة وانما لأسباب حجاجية صرفة. فقد دفعه تلهفه الشديد الى القيام بالمزيد من الفتوح ومن ثم حاجته الى المزيد من الجنود الى تجنيد الايرانيين غير المسلمين في جيشه.

وقد وفر عمله هذا الجند المطلوب كما وفر له نفقات العطاء، إذ كان هؤلاء لا يعطون إلا حصة ضئيلة من الغنائم فقط. لكن نتائج هذا العمل كانت اكبر مما قدّر لها.

فمن الطبيعي أن تنشأ بين الجنود العرب والجنود الايرانيين في الجيش الواحد وهم يعيشون ويحاربون جنباً الى جنب ، علائق ومصالح مشتركة جديدة. والواقع أن التعاون بين الفئتين بلغ في نهاية المطاف الى حد أنهما اتفقتا على خلع قتيبة من أجل وضع حد لحروبه المستمرة دون انقطاع ومن أجل العودة الى بيوتهم وأهليهم[٥٥].

وفي الجزيرة قررت القبائل العربية المهاجرة اليها بعد الحرب الأهلية الثانية ان تستقرّ وتستوطن بدلاً من حياة الحرب والغزو في أرمينيا وأذربيجان. ولم يمضِ طويل وقت حتى بدأت حركة اندماجهم مع السكان المحليين تظهر أولاً ثم تتسع وتزداد[٥٦].

وما حدث في الجزيرة حدث مثله في البصرة والكوفة بعد أن رُفعت عنهما الصفة العسكرية.

وكان البربر في شمال افريقيا مثلاً مدهشاً على سرعة الاندماج ، فمع انهم استغلوا انشغال العرب في الحرب الأهلية الثانية فثاروا بهم بغية تخليص بلادهم من هؤلاء الفاتحين ، إلا أن جيش أهل الشام استطـاع أن يضع حداً لثورتهم وأن يعيدهم الى جادة الصواب.

والظاهر أن شروط الصلح معهم كانت مرضية مغرية ، إذ صار البربر يدخلون الاسلام أفواجاً أفواجاً. وقد عومل حديثو الاسلام هؤلاء على قدم المساواة تماماً مع العرب المسلمين ، واكثر من هذا أهمية انهم جندوا في الجيش العربي ومُنحت لهم الاعطيات أيضاً شأنهم شأن الجند العربي[٥٧]. ولهذا فلا عجب إذا ما أظهروا الحماس الذي عُرف عنهم عند فتح بلاد الأندلس.

وعلى كل فالظاهر أن العرب قد استنفذوا أغراضهم من هؤلاء البربر حاولوا إيقاف أو عرقلة حركة الاندماج مما أثار في صدور البربر غيظاً متأججاً كاد أن ينفجر في ثورة غاضبة عارمة عامة لو لم يتداركها ، وفي الوقت المناسب ، عمر بن عبد العزيز[٥٨].

---

(٥٥) نفس المصدر ، ص ١٣٢ — ١٣٥.

(٥٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٣٣.

(٥٧) أنظر ص ١٥٢ – ٦ من هذا الكتاب.

(٥٨) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ، ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ٣٤ و١٥٦ ، وابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١١٠.

وقد شهدت مصر خلال ولاية عبد العزيز بن مروان الطويلة ٦٥ — ٨٥/٦٨٥ — ٧٠٥، تقارباً مدهشاً في المصالح رغم أن الاندماج في الدين أو الثقافة أو العنصر لم يكن قد بدأ بعد.

وكما قلنا من قبل، فان الوالي عبد العزيز (وهو والد عمر بن عبد العزيز) سرّح حامية الفسطاط ووزع مَن فيها من العرب في مختلف أنحاء القطر(٥٩) وبذلك بدأت الفسطاط بالضمور وبدأت الاسكندرية بالتوسع والازدهار.

وبدأ عبد العزيز نفسه الأمثولة فنقل مقرّه الى حلوان على بعد بضعة أميال جنوبي الفسطاط. ومنح القادة العرب البارزين أملاكاً في الأراضي المستصلحة الجديدة، وبالاختصار فقد بدأ العرب يعيشون جنباً الى جنب مع سكان البلاد وبدأت مصالح الطرفين تنمو وتتشابك. ولدينا أخبار متفرقة عن مواطنين مصريين كانوا يعاونون العرب في ردّ غزوات الروم(٦٠) لكن المثل المثير على تداخل المصالح بين الطرفين يقدمه الأسطول المصري.

فقد كان للسوريين أسطولهم الخاص بهم وكان أسطولاً صغيراً لذلك كان جلّ اعتمادهم في المعارك البحرية الكبرى وخاصة عند حصار القسطنطينية، على الأسطول المصري الأقوى والأكبر.

وكان جميع بحارة هذا الاسطول والعاملين فيه مصريين مسيحيين يؤجرون في كل حملة مقابل حصة في الغنائم(٦١) وكان هذا الأسطول التبرير الكلاسيكي للرأي اليماني القائل باعطاء امتيازات لسكان البلاد المفتوحة(٦٢) وكان أيضاً الحالة الواضحة الوحيدة في هذه الفترة التي يسمح فيها لأعداد غفيرة من غير المسلمين وغير العرب بأداء أدوار بالغة الخطورة في الدفاع عن الامبراطورية وفي قيام هؤلاء باداء أدوارهم على خير وجه.

---

(٥٩) أنظر ص ١٧١ — ٢ من هذا الكتاب.

(٦٠) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٧٠.

(٦١) الطبري، ج ٢، ص ١٣٤٦. الذهبي، تاريخ الاسلام، ج ٣، ص ٣٣١، وانظر ما تقدم ص ١٢٦ من هذا الكتاب.

(٦٢) أنظر ص ١٩٧ من هذا الكتاب.

وقد كان لرأي اليمَانية الكثير من القوة والوجاهة لأن منح الامتيازات للرعية المغلوبين على أمرهم ثبت جدواه حتى في تنفيذ سياسة التوسع ولكن بينما كانت اليمَانية ترغب في دفع الثمن المناسب للحصول على التعاون الوثيق مع هؤلاء الناس كانت القيسية ترفض باصرار أن تشاركهم امتيازاتها، ولا تتردد في نفس الوقت في استغلالهم حيثما يتيسر لها ذلك.

وكان قتيبة رئيس قيس البارز، قد وصل باستغلال السكان الايرانيين في خراسان والمشرق الى أقصى الحدود وفي نفس الوقت اتخذ كل الاجراءات للفصل بين العرب والايرانيين لإيقاف عمليات الاندماج.

ومع انه قام بفتوحات جديدة فان نتيجة تطبيقه الدقيق والصارم للسياسة القيسية الضيقة عادت عليه بأفدح الكوارث. فقد قتل هو نفسه على يد الجند الذين قادهم الى النصر في ساحات القتال ومُنيت سياسة أسياده بالفشل نتيجة ازدياد عمليات الاندماج في خراسان.

وقد بدأت القبائل العربية تبدي تباطؤها في الالتحاق بالحملات وبدأت تسري بينهم بوادر حركة ثورية واسعة[٦٣].

وهذا الخطر نفسه هو ما كانت اليمَانية تتوقعه وتخشاه، ولكن المد كان ضدهم فذهبت نصائحهم أدراج الرياح حتى فات الأوان. فقد رأوا أن سياسة عبدالملك والحجاج والتي تؤيدها قيس لها مآخذها الكثيرة، فلا جدال في أن هذه السياسة قد نجحت لوقتٍ ما، لكن غالبية القوى الاجتماعية بدأت الآن تنفر من محتواها الضيق، وقد اقترحت اليمَانية اجراءات عملية لتدارك التطورات الاجتماعية المتغيرة والتي بدأت تهدد قوة بناء الامبراطورية. فقد أدركوا أن قاعدة الحكم ليست ضيقة فحسب بل وانها تنحسر بسرعة أمام اتساع حركة الاندماج. وأصبح كل ركن من أركان القاعدة وهم آل مروان وأتباع الحجاج والمقاتلة وجيش أهل الشام، أصبح كل بحد ذاته، أقلية صغيرة. فقد كانت هناك عائلات أخرى مهمة لها من المكانة والمقام ما لآل مروان ومنهم على الأخص بيت بني هاشم.

---

(٦٣) الدكتور شعبان، الثورة العباسية، الترجمة العربية، ص ١٧٥.

ثم ان تهافت المروانيين على امتلاك الأراضي أساء الى سمعتهم ، فقد توسّع عبد الملك وابنه الوليد في فكرة الصوافي فأشملها كل الأراضي العامة الناجمة عن استصلاح الصحارى والأهوار والبحار وضمّها اليه أو وزعها على أهل بيته[٦٤] . وكان من الخطر أيضاً قصر الوظائف كلها على أفراد البيت المالك وعلى أنصار الحجاج وحسب رغم ما كان يتّصف به هؤلاء وأولئك على العموم من الكفاءة والإخلاص . إلا أن مثل هذه السياسة قد أقصت عن وظائف الدولة رجالاً آخرين لا يقلّون عن الأولين قدرة ودراية .

وكان المقاتلة يتناقص عددهم باستمرار بالنسبة الى جيرانهم المسالمين من أفراد القبائل العربية . وعدا عن هذا فانهم ظهروا كفئة متميزة تحاول ، وبعنف ، أن تحافظ على امتيازاتها وعلى ما سنرى فقد كان هذا خطراً كبيراً وفي خراسان خاصة[٦٥] .

وقد كان جيش الشام وهو أقوى الأركان في قاعدة الحكم المرواني في الدرك من الضعف والوهن . فقد أيّد أهل الشام معاوية للحفاظ على مصالحهم وساعدوا مروان على استعادة الحكم الأموي لنفس الأسباب أيضاً ولكن أن يصبحوا قوة بوليسية ضاربة تستخدم في جميع أنحاء الامبراطورية فأمر لم يخطر لهم على بال ، ومع انه ما يزال صحيحاً ان جيش الشام ما يزال على درجة من الكفاءة وشيء من الاخلاص ، فان من الصحيح أيضاً أن لهذه الكفاءة والاخلاص حدوداً ، أولاً بسبب تحديد الهجرة الى سوريا وبالتالي عدم وجود العدد الكافي من أهل الشام للعمل الدائم في هذا الجيش . فالقبائل العراقية وحدها تفوق الجيش الشامي عدداً ، والعراق بعد هذا أحد الأماكن المضطربة التي تحتاج الى وجود الجيش الشامي فيه لحفظ الأمن وتوطيد سلطة الحكومة المركزية فيه ، وثانياً فان هذا التواجد نفسه كان السبب في خلق شعور من الكراهية تجاه السوريين وتجاه الحكومة المركزية معاً . وما ثورة مطرف بن المغيرة إلا الاشارة الأولى على انتشار هذه الكراهية وقوتها . وكانت اقامة قوة احتلال سورية دائمة في واسط ، إهانة قاسية لا يستطيع العراقيون أن يصبروا عليها طويلاً . وكما سنرى بعد قليل فما كانت ثورة يزيد بن المهلب في البصرة بعد خمس سنوات من وفاة الحجاج إلا مظاهرة واضحة لمرارة الشعور

(٦٤) ابن عبدالحكيم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ١٥٢-٣ .

(٦٥) أنظر ص ٢٠٢-٣ و ٢٥٠-١ من هذا الكتاب .

بهذه الكراهية ثم ان حقيقة انضمام قسم من جيش أهل الشام المرابط في العراق الى هذه الثورة لهو أقوى دليل على العامل الثالث الأهم في هذا الموضوع (٦٦).

وكانت الكراهية التي أثارها أهل الشام ضدهم أمراً يؤسف له كل الأسف إذ لم تكن لديهم أية نية للسيطرة على أي من الأقاليم أو الأقطار التي أُرسلوا اليها فقد كانت بلادهم، بلاد الشام، بلداً هادئاً وسعيداً دوماً ولـولا ارتباطهم الوثيق بالبيت الحاكم لفضل أهل الشام سياسة الحياد وعدم التدخل في شؤون الآخرين.

وفي الواقع فان هذا ما طلبه أهل الشام من علي في صفين ولكن متطلبات سياسة بني مروان جرّتهم الى التورط في أمور غير مرغوب بها من غالبيتهم.

وقضية رجاء بن حيوه مثال ذو علاقة وثقى في هذا الأمر، فقد كان رجاء أحد قواد الأردن (٦٧). ونحن نذكر أن سوريي هذه المنطقة كانوا الوحيدين الذين أسرعوا الى نصرة مروان والوقوف الى جانبه خلال سني الفتنة الثانية الحرجة (٦٨) وكانوا المسؤولين المباشرين لتولّيه السلطة. ولذا فمن المفهوم أن يصل رجاء بن حيوه الى أعلى المناصب أيام عبد الملك والوليد (٦٩).

ولكن حسن استمرار صعوده في المنصب والنفوذ أيام خلفيهما سليمان وعمر بن عبد العزيز يشير الى انه لم يكن من محبذي سياسة الحجاج (٧٠) وانه كان قد نصر آل مروان في الحرب الاهلية الثانية على أمل أن تعود للنظام حالة الهدوء التي سادته أيام معاوية وابنه يزيد.

ولم يكن هو ومَن يمثل ليعارضوا المغازي الصيفية على الروم بل كانوا يعتبرون هذا أمراً مقدساً وواجباً ضرورياً للحفاظ على بلادهم.

ولكن اذ فرضت سياسة عبد الملك حملات متطاولة الأمد في العراق وحملات

---

(٦٦) أنظر ص ١٩٦ ٧ من هذا الكتاب.

(٦٧) ابن عبد الحكيم، سيرة عمر، ص ١٤٣.

(٦٨) أنظر ص ١٤٢ من هذا الكتاب.

(٦٩) الطبري، ج ٢، ص ١٣٤١ — ٥، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١٦، ص ٢٤ وج ١٨، ص ٧٤.

(٧٠) الطبري، ج ٢، ص ٨٣٨.

لا نهاية لها في الشمال الافريقي وفي أمكنة أخرى ، مما غيّر من نمط حياتهم وكان بالنسبة للبعض الآخر منهم ، يعني النفي والابعاد فقد بدأوا يعيدون التفكير في علاقتهم بالأمر.

وكان البعض منهم بطبيعة الحال ، يسرّهم أن يقدموا خدماتهم هذه للدولة مقابل ما يحصلون عليه من العطاء الجديد ، لكن البعض الآخر من أمثال رجاء وصحبه – وخاصة هؤلاء الذين شاركوا في ثورة يزيد بن المهلب كرهوا الأوضاع الجديدة وحاولوا جهدهم تغييرها [٧١] ولا بدّ أن هناك خطأ ما في النظام حين تكون شرطة النظام غير راضية عن دورها الجديد هذا.

وعلى هذا فان القاعدة السياسية للحكم المرواني لم تكن غير شعبية وعلى درجة كبيرة من الضيق فحسب ، بل كانت أيضاً غير واثقة من احدى أقوى دعاماتها وهي قوة وارادة الجند السوري في فرض السلطة المطلقة لأمير المؤمنين.

وبوفاة الوليد والمجئ الى الحكم برجال جُدد ذوي نظر ورأي لشؤون الحكم مختلفين ، فقد وصلت سياسة الحجاج – عبدالملك الى نهايتها المحتومة وأصبح من واجب أمير المؤمنين الجديد سليمَان أن يقدم للامبراطورية كافة سياسة بديلة ناجحة.

* * *

(٧١) لمعرفة بقية دورها ، أنظر ص ١٩١ من هذا الكتاب.



الفصل السابع

عهد سليمان وعمر أو عهد الاصلاح والاعتدال

رأينا في الفصل السابق مواطن الضعف في نظام قيس والتي كانت تزداد وتتسع بازدياد المعارضة لها واتساعها. وكان جل ما ترجوه المعارضة أو تأمله فيه هو مجيئ أمير مؤمنين الى الحكم اكثر تعاطفاً معها لتتحقق لها بعض آمالها.

ولم يطل بها الانتظار حتى صعد سليمَان بن عبد الملك الى سدّة إمارة المؤمنين، ومع ان مدة حكمه ومدة حكم عمر بن عبد العزيز من بعده كانتا قصيرتين جداً اذا ما قيستا بمقياس الزمن إذ لم تتجاوز مدة حكمهما معاً مدة الخمس سنوات، ولكنها اذا ما قيست بكثافة العمل السياسي ومدى التغيير الذي أحدثته في المجتمع فانها لا تقلّ أهمية وخطورة عن مدة الثلاثين عاماً التي حكم خلالها عبد الملك وابنه الوليد.

وأغرب ما في هذه السنوات القِصار هو أن عجلة التغيير فيها قد انطلقت بسرعة ومضاء ما كانتا ليخطران في أذهان اليمَانيين خلال سني معارضتهم. وكان تطور سياسة سليمَان الحذرة المعتدلة الى سياسة عمر الحاسمة وتغييراته الجوهرية — على شديد خطرها — تطوراً هادئاً وسريعاً في آن واحد، وهو يشبه الى حد مدهش الثورات الاوروبية في القرنين الماضيين مع فارق واحد هام هو أن القمة السياسية كانت دوماً وأبداً هي المسيطرة والموجّهة لقوى التغيير وبالتالي تستطيع بسهولة بالغة كبح جماحها اذا ما أرادت الدولة أن تغيّر سياستها.

وقد سار سليمَان برويّة وأناة حتى ليصعب تصنيف سياسته في شكل معين وليس أدل من حيرة مصادرنا في تقييم حكمه من تأكيدها على حبه للطعام وانغماسه بالشهوات ووصفها له بأنه «رجل طعام ونكاح». ولكنها لا تلبث أن تعود فتثني عليه لخروجه عن

سياسة الحجاج ولتعيينه عمراً بن عبد العزيز خلفاً له [١] والواقع هذه المصادر ليست على اتفاق في تقييم عهد سليمان القصير، ومع هذا ومما لا شك فيه فان سياسته تعتبر خروجاً متعمداً على سياسة الحجاج – عبد الملك، وان باكورة أعماله عند تولّيه الحكم لا تدع مجالاً للشك في هذا.

وكانت باكورة اعماله هذه هي تنحية أنصار الحجاج من الوظائف والولايات واحلال يمانيين محلهم أكثر اعتدالاً واكثر انفتاحاً [٢]. فقد تولى ولاية العراق مثلاً يزيد بن المهلب بن أبي صفرة بدل أحد أصحاب الحجاج.

وكان يزيد هذا موظفاً قديراً ولكنه لأنه كان زعيماً من زعماء اليمانية وكان الحجاج قد نحّاه عن العمل عام ٨٤/٧٠٤ واقنع عبد الملك بإقصائه عن ولاية خراسان ولما يقضِ فيها غير سنتين فقط. ولا شك أن إعادة تعيين مثل هذا الرجل الذي كان ضحية قيس وعدوّها الألدّ ليكون «حجاج» سليمان أمر له مغزاه السياسي الواضح.

وقد تنحّى الولاة القيسيون عن مناصبهم بهدوء وسلام عدا استثناء هاماً واحداً هو قتيبة بن مسلمة والي خراسان.

وكان قتيبه أحبّ تلامذة الحجاج الى قلبه وأخلصهم اليه، وقد ناب عن الحجاج في خراسان منذ عام ٨٦/٧٠٥ وأوفى له العهد والولاء، وكان في الواقع هو الذي خلف يزيد بن المهلب فيها. ولذلك فما سمع بوفاة الوليد حتى أدرك أنها تعني «نهايته» السياسية أيضاً ولذلك قرر إعلان الثورة رغم انه كان غازياً آنذاك.

وقد كان قتيبه في هذا طموحاً اكثر مما يجب، إذ ظهر أن مؤيديه في خراسان كانوا أقلّ مما قدّر بكثير، فما ان كشف لهم عن نواياه حتى ثاروا به فاتفقت القبائل العربية في جيشه مع حلفائهم الجدد في الثورة عليه، وقتلوه ثم قفلوا عائدين الى بيوتهم وأهليهم لأن حروب قتيبة قد انهكت قواهم وأرهقتهم نصباً ولأنهم لم يجدوا سبباً للانضمام الى ثورته ضد حكومة تشير الدلائل على أن سياستها اكثر سلماً من سابقتها [٣].

---

(١) الطبري، ج ٢، ص ١٢٧٣ و١٣٣٧.
(٢) تاريخ ابن خياط، ج ١، ص ٣، ٣–٥.
(٣) الدكتور شعبان، الثورة العباسية، الترجمة العربية، ص ١٣١–١٣٦.

وهذه الثورة ضد الثورة في خراسان كانت الدليل الناطق على تأييد السياسة اليمَانية. ولا شك أن ما حدث هناك قد أثلج قلب سليمَان وأرضاه ولكن رضاه ما لبث أن انقلب الى فزع كبير حين بدأت القبائل العربية في خراسان تختار لنفسها ومن بينها والياً لهـا على خراسان. وادراكاً منه للفوضى التي قد تخلقها هذه السابقة فقد أسرع وعهد بالأمر الى يزيد وأمره أن يترك له نواباً في البصرة والكوفة لتكون خراسان مركز إقامته وحكمه.

وكذلك أراد سليمَان أن تبقى شؤون العراق المالية تحت سلطته فعيّن ممثلاً شخصياً له هناك، وكلّفه ببعض مسؤوليات الضرائب. وقد وقع اختياره لهذا المنصب على صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم ومن المتمرسين منذ عهد بعيد بأحوال العراق وادارته [٤].

واذا كانت باكورة أعمال سليمَان تنبئ عن عزوف تام عن سياسة الحجاج فان ما تلاها من سياسته الخارجية كانت تتسم بالبطء والحذر وتبدو في بعض الأحيان وكأنها إمعان في السياسة القديمة. ففي خراسان كان سليمَان أقل سلماً مما توقعه الثائرون على قتيبة وإذ لم يرد لهذه السابقة أن تتقرر وتعمّ فقد أمدّ يزيداً بقوة كبيرة من جند الشام المقيم في واسط [٥]، ويكاد أن يكون عمله هذا، امتداداً لسياسة الحجاج في خراسان.

لكن ما ان وصل يزيد الى خراسان حتى اختلفت سياسته عن سياسة قتيبة. فمع انه انغمس في حروب كثيرة إلا أن حروبه هذه كانت لتثبيت مواقعه وليست للتوسع. فقد ركّز يزيد على مناطق جورجان وطبرستان الجبلية الوعرة والتي صارت، منذ أمد بعيد، وإنما نظرياً فقط، جزء من الامبراطورية ولكنها في حقيقة الأمر والواقع لم تخضع لها تماماً.

ومع ان العرب لا يحسنون الحرب في الجبال إلا أنهم نجحوا في حملتهم هذه المرة اكبر نجاح. وكان العامل الأول في هذا النجاح هو القوة البشرية التي استطاع أن يجنّدها يزيد للنهوض بهذا الأمر. فقد استفاد من السياسة اليمَانية في كسب تعاون أهل البلاد المفتوحة اختياراً. فقد جنّد عدداً كبيراً من المتطوعين غير العرب [٦]. ومع انه لم يكن اكثر نجاحاً

(٤) الطبري، ج ٢، ص ١٣٠٤–١٤.

(٥) نفس المصدر، ص ١٣٢٧.

(٦) نفس المصدر، ص ١٣١٨ و١٣٢٧ و١٣٢٩.

من أسلافه في المنحدرات العليا فقد كانت غنائمه من الكثرة بحيث سببت اختلافات هدّامة عند توزيعها (٧) .

ومع ان سياسة سليمان تجاه الحدود الرومية كانت واضحة وبسيطة إلا أنها لا تساعد على تمييز خطه السياسي . فمن أجل أن ينهي الحروب المستمرة والمنهكة مع البيزنطيين قرر سليمان أن يضرب الروم في عقر دارهم وأن يفرض على القسطنطينية حصاراً قوياً دقيق التدبير .

وكان القائد العام للقوات المشتركة من الجند السوري والاسطول المصري في هذه الحملة أخاه المشهور مسلمة . ولكن العملية لم تكن طموحة جداً كما قد يتبادر الى الذهن ، فقد أوشك معاوية نفسه على النجاح في حصاريه السابقين لهذه المدينة عام ٤٩ /٦٦٩ و٥٤ — ٦٠ /٦٧٤ — ٦٨٠ . وقد ابتدأ هذا الحصار عام ٩٨ /٧١٦ وسرعان ما وجد الروم أنفسهم في وضع خطر ودقيق للغاية ، لكن حسن حظهم جلب لعرش بيزنطية عام ٩٩ /٧١٧ ملكهم ليون الازوري . ومــن المفارقات العجيبة أن يكون هذا الرجل سوري الأصل . وكان مخادعاً ماكراً فخدع قوات مسلمة ، ولهذا السبب ولوفاة سليمان المفاجئة اضطر العرب الى رفع الحصار عن الروم والعودة الى بلادهم (٨) .

ولا شك أن سليمان عمل بوضوح وجلاء طيلة أيام حكمه على معارضة القيسية وتقريب الزعماء اليمانيين ولكنه وعلى العموم استمر على نفس السياسة التي بدأها أسلافه مع التخفيف فيها بإدخال العناصر غير العربية فيها . ولأن مدة حكمه كانت قصيرة فهي تحتمل اكثر من تفسير واحد ، لهذا غدا رجلاً غامضاً بالنسبة للمؤرخين .

ولكن اختياره عمر بن عبد العزيز خلفاً له يدفعنا الى اعتباره يماني الهوى حذراً . ولعله كان يعلم أن عمراً الذي ظل لأمد طويل من أقرب خلصائه اكثر تطرفاً من اليمانيين أنفسهم . ولا بدّ انه كان موافقاً على هذا التطرف وإلا لما اختار عمراً خلفاً له .

ولا يمكن التقليل من أهمية هذا الاختيار فقد تحدى العرف المألوف ورتب انتقال

---

(٧) نفس المصدر ، ص ١٣١٨ — ٣٥ وتاريخ اليعقوبي ، ج ١ .

(٨) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣١٤ — ١٧ . تاريخ الذهبي ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .

الحكم بكل مهارة ودقة. فقد كان المفهوم بين بني مروان أن امارة المؤمنين تبقى محصورة في أبناء عبد الملك وكان عبد الملك أباً لما لا يقلّ عن ستة عشر ابناً بضمنهم ثلاثة ماتوا في طفولتهم وسبعة كانوا من جواري أجنبيات.

ولانعدام نقاوة الدم العربي في هؤلاء السبعة فقد استبعدوا عن الوراثة وكان بينهم القائد الشهير مسلمة.

وبعد وفاة الوليد وسليمَان ظل من أبنائه أربعة مؤهلون للعرش. وقد عهد عبد الملك في حياته بولاية العهد من بعده لابنَيه الوليد أولاً ثم سليمَان ويزعم أنه كان ينوي أخذ البيعة بعدهما لابنه يزيد ثم لأخيه الأصغر[9]. لذلك فلا يستطيع سليمَان أن يدّعي بعدم وجود أبناء لعبد الملك ولكنه تعمّد أن يتجاهل وصية أبيه الواضحة - وإن لم تكن صريحة - بحجة عدم وجود بيعة ملزمة ليزيد، وذهب بدلاً عنه الى اختيار خلفه من خارج دائرة أولاد عبد الملك فاختار ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان باعتباره اكثر الناس تعاطفاً مع سياسته[10].

والواضح أن سليمَان لم يأتمن عائلته لتنفيذ نواياه. فالوصية التي أوصى بها أن يخلفه عمر عملت بسريّة تامة في دابق، وهي أقرب نقطة الى بلاد الروم يجرأ أن يصل اليها. ومع انه كان محاطاً بأهله وبني قرابته في دابق فانه اختار رجاء بن حيوه الكندي لتنفيذ وصيته دون أي من أعضاء عائلته.

وكان اختيار رجاء، هو الآخر، على جانب كبير من الأهمية، فقد سبق أن أشرنا قبلاً الى رجاء على أنه من أهم المعارضين من أهل الشام لسياسة عبد الملك - الحجاج. ووجوده هنا في هذا الوقت، بدلاً أن يكون مع القوة الرئيسية من جند أهل الشام في بيزنطية، يدل دلالة واضحة على أن سليمَان اختار «جند الأردن» حرساً خاصاً له يرافقه في حملاته الصغيرة حول دابق، وليس في هذا ما يدعو للاستغراب، فمن الطبيعي جداً لأمير المؤمنين أن يختار لرفقته وحراسته اكثر جند الشام اخلاصاً ووفاء له، وكما أثبتت الأيام بعد ذلك، فقد كان اختيار رجاء لتنفيذ وصيته سليمَان اختياراً صحيحاً موفقاً. لا

(٩) الذهبي، تاريخ الاسلام.

(١٠) الطبري، ج ٢، ص ١٣١٧-٤١.

لأن رجاء كان من أشدّ المتعاطفين مع سياسة عمر فحسب ، بل ولأنه أيضاً كان يملك القوة العسكرية التي تفرض تنفيذ الوصية . ويبدو لنا من الطبيعة السياسية للرجل الذي اختاره سليمَان خلفاً له ومن طبيعة الرجل الذي عهد له بتنفيذ وصيته ، أن سليمَان اكثر حزماً وأصلب عوداً مما توحي به أعماله الأخرى خلال أيام حكمه.

وكان رجاء عند وفاة سليمان في وضع قوي يستطيع به تنفيذ وصية سيّده . فجمع أفراد البيت المرواني وطلب منهم أن يبايعوا على ما أمر به سليمَان ومن سمّاه في وصيته . فبايعوا على من في الكتاب المختوم. فلما قرأ الوصية عليهم وكشف عن اسم عمر بن عبد العزيز احتج بعض أعضاء العائلة على هدر حقوقهم فهددهم رجاء باستعمال القوة ضدهم ، وعندها رضخ بنو مروان للأمر الواقع وخاصة وان سليمَان أوصى من بعد عمر الى أخيه يزيد بن عبد الملك وفي ذلك ترضية للغاضبين وعودة الى تنفيذ رغبات والده عبد الملك .

ولم يرَ رجاء في ذلك بأساً ولم يكن في علمه أن أمله سيخيب وخططه ستنهار بسبب وفاة عمر المبكرة والمفاجئة.

وعلى كل حال فيكفيه انه قام الآن فعلاً بانقلاب سياسي ناجح [١١] .

* * *

وبينما كانت سياسة سليمَان حذرة غامضة فان سياسة عمر كانت صريحة وحاسمة . ففي حين استمر سليمَان بالحملات أمر عمر بإيقافها في الحال . فما أن تولى الحكم حتى أمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش منها كما أمر بانسحاب الجيوش من كل نقاط الجبهات المتقدمة في أراضي بلاد الروم [١٢] وعلى غرار هذا أمر أيضاً بإيقاف جميع الحروب والحملات في القسم الشرقي من الامبراطورية ، بل وأمر بانسحاب عام من

---

(١١) نفس المصدر، ص ١٣٤٠–٥.

(١٢) نفس المصدر، ص ١٣٤٦. والبلاذري، فتوح، ص ١٦٥.

وراء النهر. وبهذا تبدو سياسة اليمن الخارجية أيام سليمَان وكأنها حجاجية صرفة اذا ما قورنت بهذه القرارات الجريئة الحاسمة [١٣].

لكن أروع إنجازات عمر كان في انجازاته الداخلية التي تجاوزت كثيراً سياسة اليمَانية الغامضة. وهنا يجب ألا ينظر اليه كواحد من بني العباس ولد خطأً في غير عائلته كما يحلو للبعض أن يصفه بذلك. بل على انه مرواني صميم ولكنه كان أولاً وقبل كل شيء حاكماً مسلماً لا يرى أي صدام بين أهداف الاسلام ومصالح بيته المرواني. فكان يرى ان على المروانية أن تنهض بمسؤوليات مركزها، وبالنسبة له فقد تصرف طيلة مدة حكمه بمنتهى البساطة والزهد رغم ما عرف عنه من قبل من حب لترف العيش [١٤]. وكان يحاول أن يحمل أهله وبني عشيرته على أن يحذوا حذوه، ولذلك فقد ألغى جميع الصوافي التي كانت قد منحت لبني مروان كما ألغى معها كل الامتيازات الأخرى مثل ما تدفعه الدولة من نفقات الحرس الخاص لأعضاء العائلة [١٥].

وأهم من هذا انه كان يرى أن على بيته – آل مروان – أن يحكم البلاد بطريقة اسلامية. ولم يكن هذا منه تعصباً دينياً بقدر ما كان سياسة واقعية. فقد كان له من بُعد النظر ما رأى فيه ان اعتدال معاوية قد ضاق وتحول أيام عبد الملك الى نوع من الاستبداد العربي وانه هو، قد ورث حكماً ضيق القاعدة بحيث لا يؤمل له طول البقاء.

وكان عمر على اعتقاد أن ما تحتاجه الامبراطورية لتماسكها وبنائها ليس قوة جند أهل الشام وإنما عقيدة فكرية تجمع بين أبنائها، وليس كالاسلام عقيدة شاملة لكل أنحاء الامبراطورية وكل ما يجب عمله هو تطبيق مبادئها دون تحيز أو تمييز بهدف تكوين مجتمع ذي حقوق متساوية ومسؤوليات متساوية وهذا يعني اندماج المسلمين مع بعضهم البعض عرباً كانوا أم غير عرب في مجتمع اسلامي موحّد. ونحو هذا الهدف قرر عمر أن يسير وأن يعمل على تحقيقه.

وهذه السياسة لا تعني التنازل عن سلطة الحكومة المركزية بأي حال من الأحوال.

---

(١٣) الطبري، ج ٢، ص ١٣٦٥، وتاريخ اليعقوبي ج ١. ص ٥٥–٦.

(١٤) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٦٧.

(١٥) نفس المصدر، ص ٥٠–١ و٥٦–٧ و١٥٢–٣.

فالحقيقة أن عمراً كان يشرف على كل عمل من أعمال ولاته بشكل لم يسبق له نظير، وعلى خلاف أسلافه الثلاثة فقد استغنى عن الولاة الأقوياء مثل الحجاج أو يزيد وبدلاً من أن يعتمد على أمثالهم من المساعدين الكبار فقد طلب من كل والٍ أن يتبع حرفياً ما يصدر اليه من تعليمات مفصلة.

ومن الطبيعي في هذه أن لا تكون لآراء الولاة الأهمية التي كانت لها أيام سليمان الذي كان أقل مركزية من خلفه عمر.

وكان عمر يتطلب من ولاته الكفاءة والطاعة التامة ولم يكن ليتردد في تعيين تلامذة الحجاج إذا ما اتصفوا بهاتين الصفتين.

وكانت باكورة أعماله إقصاء يزيد بن المهلب عن ولاية العراق وخراسان والمشرق. ومن ثم قسَّمَ هذه المنطقة الواحدة الكبيرة الى ثلاث ولايات هي ولاية البصرة والكوفة وخراسان وذلك ليضمن لنفسه سلطة أشد ورقابة أقرب [(١٦)] وزاد على ذلك فأمر بحبس يزيد على أساس انه فشل في أن يدفع الى دمشق حصة كافية من مغانم كوركان. ولكن يبدو وكأن هناك أسباباً أقوى من هذه أدت الى حبس يزيد.

فكما رأينا من قبل فقد التزم يزيد سياسة سليمان التي تجاوزها عمر. ومع ان يزيد هو زعيم اليمانية فقد كان هناك خطر عدم تأييده للسياسات الاصلاحية الجديدة، وكما أثبت تاريخ حياته، فانه يستطيع أن يجمع حوله من المؤيدين ما يكفي لاقلاق عمر. وكان حبسه اجراء احتياطياً كما كان إعلاناً ذا دلالة من جانب عمر عن افتراقه الكامل عن سياسة سلفه. وتعجّ مصادر أخبارنا لهذه الفترة بمجموعة هائلة من الأوامر والتعليمات المفصلة والتي لم يسبق لها نظير والتي وجّهها أمير المؤمنين عمر الى عمال الأقاليم. فما من أمر مهما قلّ شأنه كان يفلت من نظر عمر وملاحظته فهو – مثلاً – يكتب الى والي مصر بمنع زراعة الاشجار على طول ضفاف نهر النيل لأنها تعيق سحب السفن الصاعدة في النهر [(١٧)] وهذا مثل واحد بسيط عن الانتباه الدقيق لدقائق الأمور الكثيرة واحاطته علماً بأحوال البلاد وفي جميع أطرافها.

---

(١٦) الطبري، ج ، ص ١٣٤٦.

(١٧) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٦٧.

ويبدو من مغزى هذه التعليمات أن هناك اتجاهاً جديداً لحكم الامبراطورية ، وهو أقل وأكثر في آن واحد – تحكماً من حكم عبد الملك .

فهو اكثر فردية وتحكماً بسبب ازدياد سيطرة الحكومة المركزية وهو أقل منه لأنه لم يعد يعتمد على قوة الجند السوري الغاشمة لتنفيذ سياسته . فقد سحب عمر كل الحاميات السورية من العراق وخراسان وحاول أن يفرض الهدوء والاستقرار عن طريق إعادة التوازن في القوى السياسية في كل منطقة على حدة [18] .

ولكي يحقق هذا الأمر فقد شجع حركة الاندماج بين العرب وغيرهم بدرجة اكثر مما فعل سليمان . وتظهر حلوله للقضايا الطفيفة والكثيرة التي أشغل نفسه بها مدى الحاحه على مبدأ التساوي في الحقوق والواجبات لكل مسلم عربياً كان أم أعجمياً . وكان الأثر المتبقّي من هذه التعليمات المفصلة انها تعني تغييراً أساسياً في السياسة الداخلية للأقاليم يجرف أمامه الخلافات القديمة ويضع الخطوط الهادفة لخلق مجتمع موحّد مندمج .

ولم يشغل عمر نفسه بالقضايا الطفيفة وبالحاحه على الصبغة الاسلامية دون الصبغة العربية في الامبراطورية فحسب وانما قام باصلاحات أخرى وأشهرها «الاصلاح المالي» الذي تضمنته وثيقة وزعت على الولاة والعمال وكانت تعنى بأخطاء الروتين لكن فقرة منها تضمنت ثورة على كل الاعراف السائدة في الامبراطورية . وهذه الفقرة تنصّ على أن يدفع العطاء لكل مسلم يؤدي واجباته العسكرية بصرف النظر عن كونه عربياً أم غير عربي [19] .

وكان هذا القرار اجراء ثورياً ولكن ما هو اكثر منه أثراً هو الالحاح في الوثيقة على أن على الداخلين للاسلام من جديد أن يدفعوا من الرسوم ما يدفعه العرب من أمثالهم [20] .

وكانت هناك مظاهر تشجيع أخرى نحو الاندماج . ففي شمال أفريقيا كان هناك – كما

---

(١٨) ابن أعثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٦٧ – ٨ . الدكتور شعبان ، الثورة العباسية ، الترجمة العربية ، ص ١٥٥ – ١٥٩ .

(١٩) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر ، ص ٩٥ ، وايج آر حبيب ، الاصلاح المالي في عهد عمر ، ارابيكا ، ج ٢ ، يناير ١٩٥٦ ، ص ٣ و٩ .

(٢٠) البروفسور حبيب ، الاصلاح المالي ، ص ١٦ .

قلنا من قبل – اندماج بين العرب والبربر. وواضح أن هذه العملية كانت تجري ضد رغبات بني مروان لكن استمرارها كان أمراً ضرورياً حتى اذا ما تم احتلال اسبانيا على عهد الوليد بن عبد الملك وأنجز البربر ماكان يطلب منهم في هذا الخصوص، بدأ الوليد وولاته الحجاجيون ينقضون ما بنوا ويمنعون أي اندماج جديد بين العرب والبربر.

ولم يتقبّل البربر هذا العمل بالرضى طبعاً، واذ لم يعمل سليمان شيئاً لرفع الظلامة عنهم فقد كانوا على وشك الثورة حين تولى عمر الحكم. ولذا فقد أكد لهم عمر العودة الى السياسة القديمة سياسة عدم التمييز فعاد البربر راضين طائعين. ولا حاجة للقول ان قيساً حين عادت للحكم بعد موت عمر، فان ممثلها الجديد في شمال افريقيا الوالي يزيد بن أبي مسلم عاد الى سياسة استاذه الحجاج فكانت النتيجة مقتله هناك عام ١٠٢ /٧٢١ ثم ثورة متعاظمة في شمال افريقيا واسبانيا [٢١].

وفي مصر، بدأ عمر يطور ويعمم سياسة والده عبد العزيز بن مروان. فقد أشرنا من قبل الى تعاون المصريين المدهش في الأسطول. وكان هذا الوضع مرضياً لسياسة عمر في الحقوق المتساوية والواجبات المتساوية لكل المسلمين. وفي عهده أضيف خمسة آلاف عطاء جديد الى ديوان مصر [٢٢].

وحيث لم تكن هناك هجرات جديدة الى مصر في ذلك الوقت فلا بد أن تكون هذه العطاءات قد منحت للمصريين المواطنين، وعلى اكثر الاحتمالات، لجنود الاسطول وبحارته.

ولا حاجة للقول ثانية أن خلفاء عمر حرموا هؤلاء الناس من اعطياتهم هذه [٢٣] وقد بدا سخف هذا الاجراء واضحاً للعيان حين حاولوا هم أنفسهم وبعد خمس وعشرين سنة أن يضعوا خطة مشابهة لخطة عمر إلا أن أوان كسب ثقة المواطنين المصريين كان قد فات [٢٤].

---

(٢١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص ٣٤ و١٥٦. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣١٣. ابن خلدون. العبر، ج ٦، ص ١١٠. والطبري، ج ٢، ص ١٤٣٥.

(٢٢) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٦٣.

(٢٣) نفس المصدر، ص ٧٠.

(٢٤) نفس المصدر، ص ٨٤.

هذه التجربة الفريدة المثمرة انتهت فجأة والى الأبد بموت عمر المبكر ، وكانت سنتا حكمه أقصر من ان تستطيع بها جذور اصلاحاته أن ترسخ في الأرض عميقاً ، بل انهما في واقع الأمر كانتا أقصر من أن تخلّفا وراءهما أثراً يُذكَر.

وأسوأ من هذا أثراً ان هذه الفترة كانت أقصر من أن تستطيع تغيير أخلاق الحاشية الملتفة حول المروانيين الآخرين ومن طباعهم. ولما ساوم رجاء على عمر ويزيد كان يراهن على طول مدة بقاء عمر ، بحيث يمكن بعدها احتواء يزيد أو اقصاؤه. لكن الوقت لم يتيسر وخسر رجاء الرهان.

وقد مات عمر وخلفه في الحكم يزيد بن عبد الملك والذي ندعوه يزيد الثاني تمييزاً له عن يزيد الأول بن معاوية ، وعادت القيسية الى الحكم مغيظة حاقدة بعد خمس سنوات من التيه السياسي. ولم يكن قد تبقى لها من العمر إلا ثلاثون عاماً فقط ثم تنهار بعدها أمام قوة ناشئة تنادي بنفس المبادئ التي عمل من أجلها عمر.

وطالما يقال تلميحاً ان لم يقل ذلك تصريحاً أن سياستها كانت اكثر واقعية من سياسة عمر المثالية والمتعصبة.

ومن الصعب الأخذ بهذا القول. فاذا كان النجاح هو مقياس الواقعية فان يزيداً وقيساً لم يكونوا من الواقعيين. ومهما تكن تبريراتهم الدينية فان سياسة عمر خلقت ادراكاً سياسياً فقد قدّر أن القوتين الفعالتين في الامبراطورية هما الرغبة في الاندماج والرغبة في السلام. وقد طوّر سياسته على هذين الأساسين وكانت النتيجة انه استطاع أن يعمل ما لم يستطعه أي مرواني آخر وهو انه حكم الامبراطورية وزاد من سلطته فيها دون اللجوء الى أساليب القمع والعنف التي خلقها عبد الملك والحجاج. أو باختصار فانه نجح في حكم الامبراطورية بالرضى وهو أمر لم يتيسر لأي حاكم منذ أيام معاوية. وقد نجحت سياسته في حينها. وأثبتت الحوادث والأيام صوابها بعد ذلك أيضاً. فاذا كان هناك من يريد أن يدعوها سياسة غير واقعية فمردّ ذلك الى عدم فهم تاريخ هذه الفترة.

واذ تولى يزيد الثاني الحكم وعادت معه القيسية [٢٥] الى ممارسة النفوذ فقد تنحى رجاء عن مسرح الأحداث واختفى في غمار الحياة. فقد كان الوقت وقت صراع سياسي

---

(٢٥) تاريخ ابن خياط ، ج ٢ ، ص ٣٤٠-٤.

رهيب ، فالقيسية التي فقدت مرة أعنة الحكم التي ظلت في أيديها مدة عشرين سنة ، قد قررت ألا تفقدها كرة أخرى ، كان شعورها ينضح بالمرارة والحقد لما لقيته من الهوان على أيدي سليمان وعمر واليمانية . فقد شهدت بأم عينيها كيف تساقطت ومزقت السياسات التي أجهد عبد الملك والحجاج نفسيهما في سبيل رسمها ووضعها موضع التنفيذ ، وكيف صارت بين ليلة وضحاها موضع الهزء والسخرية والانتقام . بل وأكثر من هذا فقد لاقت القيسية نفسها من صنوف هذا الهزء والانتقام ما لا تنساه وما ملأ نفسها غيضاً ومرارة . حتى ان عمر بن عبد العزيز نفسه قد وبّخ زعيمها مسلمة وأعاده من ذرى المجد الى بطالة مهينة .

وقد زادت هذه الاهانات في مرارة النزاع السياسي الذي بدأ حينذاك .

ولم يكن كل اليمانية مثل رجاء بن حيوة في التسليم بالأمر الواقع . بل على العكس فان غالبيتهم لم يسلموا بسهولة بعودة سياسة التوسع . فهذا يزيد بن المهلب فمع انه جرّد من أعلى المناصب التي كان يتولاها أيام سليمان ، ومع أن عمراً حبسه طيلة أيام حكمه فان ذلك لم يغير شيئاً من ولائه للمبادئ التي جاء بها سليمان . فما ان سمع بوفاة عمر وتولية يزيد حتى فتح باب سجنه وخرج منه من تلقاء نفسه وأشعل الثورة في البصرة (٢٦) .

وعلى العكس من سليمان وعمر الذين كانا بسبب مركزيهما في وضع يستطيعان فيه أن يتابعا معارضتهما لسياسة عبد الملك والحجاج بأساليب شرعية ، فان يزيد لم يكن يملك من خيار غير اللجوء الى القوة المسلحة. وكان شعار ثورته «ألا تُعاد علينا سيرة الحجاج» (٢٧) .

ومن الخطأ أن نفسّر هذه الثورة على أنها مجرد نزاع قبلي بين القيسية واليمنية ، ومن الأكيد أن مصادرنا لا توحي بهذا التفسير أبداً . إذ بينما انضمت الى يزيد قبائل وبطون مختلفة نجد أن الأزد – قبيلته – كانت في المعسكر المضاد له (٢٨) . واكثر من هذا دلالة

---

(٢٦) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٥٩–٦١ .

(٢٧) نفس المصدر ، ص ١٣٩٨ .

(٢٨) نفس المصدر ، ص ١٣٨١ و١٣٩٠ .

ونذيراً بما ستحمله الأيام من أحداث فان بعضاً من جيش أهل الشام أيّد يزيداً في ثورته رغم أن شعارها هو «ألا تطأ جنود أهل الشام بلادنا»[٢٩] .

وقد بلغت الثورة ذروتها بعد أن احتل يزيد البصرة وأسر واليها. لكن الحكومة المركزية عملت بسرعة ونشاط فوضعت مسلمة المشهور على رأس جند أهل الشام، وسرعان ما انهار كل «ما يمنع جند أهل الشام من أن يطأوا أرضنا». فانهار جيش يزيد وتشتت جمعه بعد أن سقط قائده يزيد صريعاً في ميدان القتال.

وقد عين مسلمة والياً على العراق والمشرق واستمر يجتث مراكز المقاومة والمعارضة وينحي كل يماني موظف عن منصبه[٣٠] . وحين صدر الأمر بنقله من العراق سلم الى خلفه عمر بن هبيرة عراقاً محطماً مقهوراً وكأن عهدَي سليمان وعمر ما مرّا ولا كانا.

ففي عهد يزيد القصير (١٠١ — ١٠٥ / ٧٢٠ — ٧٢٥) عاد جند أهل الشام الى واسط وعاد الى البربر الهوان والاستخفاف وخسر المصريون عطاءهم، والاصلاح المالي الذي بدأه عمر أهمل وتجوهل، والحروب التي أوقفها عمر عادت فاستؤنفت من جديد، وهكذا كان انتصار القيسية كاملاً تاماً شاملاً ولكنهم دفعوا ثمنه باهظاً وهو خسران المروانية قدرتها على تجنّب الكارثة القادمة وخسرانها قدرتها على الدوام والاستمرار.

ولم تكن السياسة القيسية، وأنما سياسة عمر، هي التي عادت آخر الأمر الى حكم البلاد، ففي حين كانت القيسية موضع اللعنة والسباب من كل مؤرخ عباسي، اجتمعت حول ذكرى عمر أساطير جعلت منه في مماته، كما كان أو اكثر مما كان في حياته، المرواني الصالح الوحيد.

* * *

---

(٢٩) نفس المصدر، ص ١٣٨٢ — ٣ و ١٣٥٨.

(٣٠) نفس المصدر، ص ١٤١٦—١٨.



الفصل الثامن

عهد هشام والعودة إلى سياسة التوسّع

أصبح هشام، الابن الرابع لعبد الملك بن مروان ، أميراً للمؤمنين خلفاً لأخيه يزيد ، ويدلّ هذا الانتقال الهادئ لرئاسة الدولة دلالة واضحة على الانتصار الكامل للمتطرفين وعلى عزمهم القاطع على الاستمرار في اتباع سياسة عبد الملك – الحجاج التي أُعيد تطبيقها ، وبنجاح كبير ، منذ أيام يزيد.

وقد كانت هذه ولا شك نيّة هشام أيضاً ، أي السير قدُماً في تطبيق هذه السياسة ، إلا أن الظروف قد اضطرته بين الحين والآخر الى الخروج عن هذه السياسة والخضوع لقوى التغيير والاندماج. لكن هذه الانحرافات كانت موقتة ولا تطول إلا مدة قيام الظروف الدافعة اليها حتى اذا ما زال الخطر الحالي عاد هشام سيرته الأولى في العمل على تنفيذ السياسة التوسعية وبأقصى ما يمكنه من السرعة والنشاط.

ولعل السبب في بقائه في الحكم المدة الطويلة التي بقيها فيه (١٠٥ – ٢٥ / ٧٢٤ – ٤٣) يعود في اكثره الى مرونته السياسية هذه. فقد واجه هشام في مدة حكمه أخطر التهديد لحياة الامبراطورية وفي جميع أنحائها مرة واحدة.

ففي الداخل كان يحكم شعباً متضاربة مصالحه منقسماً على نفسه ، وفي هذا الحين الذي تتأجج فيه الصراعات الداخلية كان على هشام أن يلجأ الى كل وسيلة ممكنة للابقاء على وحدة الامبراطورية من أن يمزقها أعداؤها الخارجيون الكثيرون المتربصون بها الدوائر.

وقد نجح هشام في مهمته هذه ، ولكن ما كان لأحدٍ وإن كان حاكماً مطلقاً مثل هشام ، القدرة على مقاومة الضغط العنيف الذي تمارسه عليه قطاعات معينة من شعبه

هو في أمسّ الحاجة الى معونتها وتأييدها . ولكن هشام استطاع أن يحتوي هذه النزاعات ويقاوم الضغوط ولكنه ما إن مات حتى جاء الطوفان وفار التنور .

وكانت المشكلة الأولى التي واجهت هشاماً ، والتي كانت في الواقع اكبر تهديد تعرّضت له امبراطوريته هي مشكلة الجبهة الشرقية .

فان استئناف حروب التوسع في أواسط آسيا تحت قيادة يزيد في عام ١٠٤ /٧٢٣ لاقى مقاومة عنيفة من القبائل التركية الرحّالة القوية البأس . وقد استطاع الأتراك هؤلاء بقيادة خان سو – لو (٧١٦–٧٣٨) أن يصونوا استقلالهم وأن يجمعوا اليهم الأتراك الغربيين أيضاً . واستطاعوا بمعونة الصينيين أن يؤسسوا لهم مملكة في حوض نهر والي ، ثم أن يوقعوا في العرب في خراسان عام ١٠٦ /٧٢٤ هزيمة منكرة في الموقعة المعروفة بيوم العطش . وكانت هذه أول مرة يلتقي فيها العرب مع القوات التركية بكامل قوتها وتنظيمها . ومنذ ذلك الحين وطيلة الخمسة عشرة عاماً التالية ظل العرب في موضع الدفاع عن أنفسهم ويتراجعون بالتدريج الى ما وراء نهر سيحون .

وكانت مسؤولية هشام أن يصد هذا العدو الخطِر ويعيد للعرب في خراسان كرامتهم وثقتهم بأنفسهم .

وقد بدأ هشام مهمته هذه بطرد عمر بن هبيرة والي أخيه يزيد على العراق وبتعيين خالد بن عبدالله القسري والياً محله .

ولم يكن هذا التغيير مجرد تغيير في الأشخاص أو مجرد تعبير عن رغبات شخصية ، وانما كان يعني تغييراً سياسياً واضحاً في هذا الجزء من الامبراطورية .

فقد كان عمر بن هبيرة رجل بني مروان المخلص المجرّب المطيع دون منازع ولكنه كان أيضاً من أشد أنصار سياسة عبد الملك – الحجاج ، وكان زعيماً قيسياً يعتد به ، في حين أن خالد القسري ، وان لم يكن ذا منزلة قبلية بارزة ، فقد كان زعيم اليمانية دون خلاف في الامبراطورية كلها ، ولذلك فان تعيينه يعني ، بصريح العبارة ، تحولاً واضحاً وتاماً من السياسة القيسية الجافة الجامحة الى السياسة اليمانية المعتدلة المرنة في العراق والمشرق على الأقل .

وكان هشام يعلم جيداً أنه لا يستطيع أن يوفر من جند الشام الأعداد الكافية الراغبة

والمتأهبة للانتقال الى المشرق ومنازلة الأتراك الأقوياء هناك. وكذلك فقد كان يعلم جيداً انه لن يستطيع أن يجمع هذه القوة الضاربة إلا من بين أبناء المنطقة أنفسهم.

ولكي يجمع هذا العدد الغفير من الجند فلا بد من أن يسود التعاون والوئام بين سكان المنطقة عرباً وأعاجم على حد سواء. وما من أحد مثل خالد القسري زعيم اليمَانية من يستطيع أن يحقق له هذه الأغراض كلها.

ولذلك فقد عهد اليه هشام بولاية العراق وعهد خالد بدوره بتنفيذ سياسته في المشرق الى أخيه أسد القشري. وقد وصل أسد الى خراسان ولم يصحب معه جيشاً وإنما اصطحب معه خطة سرعان ما ثبت نجاحها المطلق، وهذه الخطة تهدف الى كسب تأييد الهياطلة ضد الأتراك خصومهم التقليديين.

والهياطلة هم غالبية السكان في إمارات طوخارستان الى الشرق من الحدود الساسانية القديمة[١] وقد دخلوا تحت السيطرة العربية مؤخراً أيام ولاية قتيبة (٨٦-٩٦/٧٠٥-٧١٥) وقد نظموا في ما يمكن أن يسمى محميات أو مستوطنات احتفظوا فيها باستقلالهم الذاتي تحت حكم أُمرائهم[٢]. وكان هؤلاء الأمراء في الحقيقة قادة الحرب الذين لو اجتمعوا معاً لكان لهم جيش كبير العدد.

وقد فشلت محاولة أسد الأولى بإقامة تحالف مع الهياطلة ضد الترغش إذ لم يكن العرب حلفاء نافعين ضد الترغش وقد منوا أمامهم، منذ حين قصير، بهزيمة شنعاء. والى جانب هذا فان العرب في خراسان لم يكونوا متحدين اتحاداً كاملاً في تصميمهم على محاربة الترغش المهاجمين فالمقاتلة من جهة أخذوا يزدادون تباطؤاً في الاشتراك بالحملات الحربية وخاصة حين تكون ضد عدو شديد البأس مثل الترغش الذين قصروا هجومهم على بلاد السغد. ومن الجهة الثانية فان المستعدين منهم للاشتراك في القتال لم يكونوا متحمسين لهذا التحالف مع الهياطلة إذ أدركوا أن مثل هذا التحالف لا بدّ وأن ينتهي بخسرانهم قوتهم وكرامتهم. وقد ازدادت مخاوفهم نتيجة محاولات أسد واليمَانية

(١) الدكتور شعبان، الجغرافيا السياسية لخراسان والمشرق أيام الفتح العربي. كتاب ذكرى البروفسور مينورسكي، جمع المستر بوسورث والمستر اوبن يصدر قريباً.

(٢) الدكتور شعبان، الثورة العباسية، الترجمة العربية ص ١٢٠-١٢٢.

استرضاء السكان المحليين، فمحاولة أسد ضم الادارات المحلية في التركيب العربي زادت من مخاوف المقاتلة الذين رأوا في هذا الاجراء امتيازاً للسكان المحليين.

ومع أن سياسة أسد أثبتت نجاحها في صدّ تهديد الترغش والحفاظ على سلطة العرب في السغد فانها قوبلت بمعارضة عنيفة من طوائف من المقاتلة. وفزعاً من نذر الفتنة في منطقة القتال فقد أمر هشام بسحب أسد واستبدل به عام ١٠٩ /٧٢٧ والياً آخر جديداً على المشرق وأرسله على رأس قوة صغيرة من جند أهل الشام تساعده في فرض سلطته [٣].

ومع هذا فقد ازداد موقف العرب تجاه الترغش تردّياً وقد أدى الرجوع عن سياسة أسد الى وقوف السغد بصراحة الى جانب الترغش.

وأخيراً فقد اعتزم هشام إعادة تنظيم جذرية للجيش العربي في خراسان والذي كان يبلغ تعداده في تلك الأيام حوالي ثلاثين ألف رجل.

ففي عام ١١٣ /٧٣٢ أمر واليه أن يقلّل عدد جنوده الى الخمسة عشر ألف فقط وأن يشطب الباقين من سجلات الديوان. فما داموا لم يفوا بالتزاماتهم العسكرية فقد سقط حقّهم في استلام العطاء. ولملأ الفراغ الحادث عن هذا التخفيض الفظيع في خراسان، أرسل هشام جيشاً جديداً مكوّناً من عشرين ألفٍ من متطوعين جدد من العراق كانوا قد وصلوا اليه في نفس العام.

ويجب أن ندرك أن هشاماً قرر الخضوع الى سياسة الدمج في المنطقة ولذلك سمح لعدد كبير من العرب في خراسان أن يستقرّوا هناك ويحيوا حياة سلمية هادئة. ولكي يمنع استمرار تسلل العرب من الجيش وازدياده ولكي يضعضع تماسك المقاتلة القدامى ووحدتهم فقد قرر هشام أن يقيم الجند الجديد في مرو قرب الوالي ليكونوا قوته الضاربة عند الحاجة وأن يتوزع مقاتلة خراسان على حاميات الحدود ويستقرّوا فيها بصفة دائمة حمايةً لخراسان من هجمات الترغش.

وفي عام ١١٦ /٧٣٤ تمرد أربعة آلاف من أفراد هذه القبائل ممن كانوا قد استقروا في

---

(٣) نفس المصدر، ص ١٨١–١٨٣.

اندوخي في كوزكان في قلب الأراضي الهيطلية، وكانت ثورتهم بقيادة الحارث بن سريج. وقد كانت هذه الثورة تهديداً خطيراً من الداخل، وخاصة وان رفاقهم العرب لم يرغبوا في قتالهم. وقد انضم الهياطلة الذين يصطادون بالماء العكر الى هؤلاء الثوار على أمل أن يؤسسوا امارة عربية في خراسان تحت نفوذهم. ولأن القتال والمفاوضات لم تحلاّ المشكلة لذا فقد اضطر هشام إلى أن يعود عام ١١٧ /٧٣٥ الى الاستعانة بأسد القسري لانقاذ المشرق.

وقد استغل أسد علاقاته الشخصية مع رؤساء الوافدين الجدد من العراق فاستطاع أن يقنعهم بقتال الحارث الثائر الذي انتهى به الأمر في خاتمة المطاف الى الخسران والفرار الى معسكر الأعداء الترغش.

وإذ أصبح أسد الآن في مركز أقوى فقد نجح في إقناع الهياطلة لمشاركة العرب في حرب الترغش، خصومهم التقليديين، وفي عام ١١٩ /٧٣٧ اندحر الترغش اندحاراً كاملاً في معركة خارستان التي كانت الخطوة الأولى نحو انهيار جيوش الترغش وكانت نقطة التحول في مصير العرب في أواسط آسيا.

ولما توفي أسد بعد ذلك بقليل في عام ١٢٠ /٧٣٨، كان العرب في خراسان قد تخلصوا من خطر الترغش وأمنوه ولكنهم عادوا وانقسموا فيما بينهم الى أربعة أحزاب متميزة هي في اصطلاح العصر الحديث الحزب المتطرف وكان يضم أقلية ضئيلة يمثلهم الحارث بن سريج وقد فضّلوا اللجوء الى الترغش على أن يفقدوا امتيازاتهم كفاتحين للمنطقة.

والحزب الثاني كان حزب اليمين وأحسن من يمثله نصر بن سيار، وهو محارب قديم من خراسان وسنلتقي به كثيراً في أحداث الأيام المقبلة، وكان هذا الحزب يضم القبائل العربية التي نشأت في تقاليد سياسة الحجاج التوسعية والذين كانوا يأملون أن يكون لهم من القوة ما يمكنهم من إعادة موازين الأمور في خراسان الى صالحهم ويشار الى هؤلاء في مصادرنا على أنهم المجموعة المضرية. والى اليسار من هؤلاء كانت اليمانية أو الحزب المعتدل وهم القادمون الجدد وكانوا بقيادة جديع بن علي الكرماني وكان على اتفاق تام مع سياسة أسد القسري. وكان أقصى اليسار مكوّناً من العرب الذين اندمجوا في المحيط الجديد والذين كانوا يفضلون الاستقرار والذين سيكونون بعد وقت قريب نواة الثورة القادمة وعمادها.

أما السكان الايرانيون في هذه المنطقة الواسعة فكانوا بدورهم منقسمين الى عدة جماعات تختلف في موقفها من الحكم العربي و يمثّل ملاّك الأراضي في السغد العداء التام له في حين يمثل وجهاء مرو التعاون التام مع العرب [٤].

وفي العراق كان خالد قد نجح أيضاً نجاحاً ملموساً بدليل الاستقرار والهدوء الواضحين في البلاد خلال ولايته. وقد استطاع إنجاز بعض مشاريع الري كما استصلح مساحات كبيرة من الأراضي على نفقة الحكومة وأصبح هو نفسه غنياً أيضاً. فقد استفادت المنطقة دون شك من هذا الإنفاق النافع المنتج، وقد سمح هشام بأن تبقى ايرادات العراق لتُصرف فيه [٥] وقد احتاج خالد الى كل الأيدي العاملة المتوفرة لإنجاز هذه المشاريع الزراعية ولذلك فقد رمى كل ثقله في سبيل تحرير العراق من الصفة العسكرية.

ولا بد أن العشرين ألف جندي الذين أُرسلوا من العراق الى خراسان عام ١١٣ /٧٣٢ قد أثروا في شحّة الأيدي العاملة في العراق المطلوبة باستمرار وازدياد؛ وان كان اكثر هؤلاء قد جاءوا من المناطق التابعة للعراق كما يتضح ذلك من استعراض أسمائهم كاسم جديع الكرماني مثلاً. وقد روت بعض المصادر أن بعض الثوار الخوارج اشتكوا لأنهم منعوا من التسجيل في الديوان ومن ثم الانخراط في الحملات [٦].

وتمشياً مع السياسة اليمَانية العامة فقد كان خالد رقيقاً مع أهل العراق المسلمين منهم وغير المسلمين، وهذا الانفتاح مضافاً الى انه نفسه كان من أم مسيحية لم تدخل الاسلام قط، فتحتا الباب أمام خصومه لمهاجمته والنيل منه. ولا بدّ انه كان ابناً باراً بأمه فقد بنى كنيسة لها. ولذا، وفي سنة ١١٩ /٧٣٧ خرجت «خارجة» صغيرة من جيش الجزيرة وابتدأت ثورة «خارجية» تهدف الى قتل خالد الذي «يهدم المساجد ويبني البيع والكنائس ويولي المجوس» [٧].

---

(٤) نفس المصدر، ص ١٦٤–١٦٩.

(٥) الطبري، ج ٢، ص ١٦٢٠ و١٦٥٥ و١٦٥٨.

(٦) نفس المصدر، ص ١٦٣٣.

(٧) نفس المصدر، ص ١٦٢٣ والكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٦٧.

وفي نفس الوقت خرج في الكوفة المغيرة بن سعيد وبيان بن سمعان باسم الشيعة[٨] فألقى خالد القبض عليهما وأمر بقتلهما.

ورغم عدم وجود الانصار والاتباع لهما فان إعدامهما يدل على شدة ارتباك السلطات من حوادث الشغب البسيطة ولعلهم أدركوا أخيراً صعوبة الامساك بالميزان بدقة وانهم بالتالي شعروا بوجوب الامساك به بقوة وصرامة لحفظ الأمن في العراق.

وكان على هشام أن يتصرف مع حادثي شغب آخرين بنفس الطريقة فقد قبض على الجعيد بن درهم وغيلان الدمشقي وهما يدعوان للزندقة والإلحاد فأعدمهما في الحال وربما كان إعدامهما كبش فداء وترضية للسخط العام وان تهمة الالحاد قد اختلقت ضدهما اختلاقاً لكسب الرأي العام وتهدئته.

وتشير عمليات الاعدام هذه الى اتجاه جديد في سلطات أمير المؤمنين. فقد كان حتى الآن يمارس صلاحيات الاعدام في الجرائم السياسية وحسب، أما الآن فقد نصّب نفسه بنفسه حامياً لحمى الدين وبدأ يدعي سلطات دينية – على الأقل بالنسبة لقمع الزندقة وحركات الالحاد – ما كانت له أصلاً[٩].

وما ان انتهى خطر الترغش حتى أقدم هشام على اكبر خطأ سياسي ارتكبه بالنسبة للعراق والمشرق فقد عيّن نصر بن سيار والياً على الشرق. ونصر توسعي أصيل من الجناح الأيمن أي جناح المضرية.

وفي العراق أحلّ محلّ خالد اليمَاني، يوسف بن عمر الثقفي، وهو من أبناء عم الحجاج وتلامذته، وزعيم بارز من زعماء القيسية.

ولا يمكن أن يكون ثمة دليل أوضح على انحراف هشام الى اليمن من هذه التعيينات ومع هذا فما تزال الأسباب الدافعة لهذه الحركة محل تخمين وافتراض.

فلعل هشام أن يكون قد بالغ في قوة المضرية في خراسان فرأى، بعد زوال الترغش –

---

(٨) الطبري، ج ٢. ، ص ١٦١٩–٢١.

(٩) نفس المصدر، ص ١٧٣٣ والكامل لابن الأثير، ج ٥. ص ١٩٧، والذهبي، تاريخ الاسلام ج ٤، ص ٢٨٩.

أن أحسن وسيلة لحفظ الاستقرار في تلك البلاد هو في العودة بها الى حروب التوسع [١٠] وكان هو أيضاً بحاجة الى المال ليموّل به حملاته على الجبهات الأخرى، ولعله رجا أن تجلب له الفتوح الجديدة في خراسان من المال ما يعينه على ذلك. وكان تعيينه يوسف بن عمر على ولاية العراق تأكيداً واضحاً على قصده هذا.

ذلك أن يوسف لم يكن رقيقاً ليّناً أو متساهلاً مع رعيته كما كان خالد القسري، لذلك فانه لن يتأخر عن جباية اكثر ما يمكن من الضرائب والرسوم منهم وأن يستخرج منهم أيضاً ما تساهل خالد في جبايته منهم. واضافة الى ذلك فانه أوقف جميع المشاريع الزراعية التي كان يصرف عليها خالد من بيت المال، فكان بهذا وذاك أقدر على تلبية طلبات بيت مال أمير المؤمنين في دمشق [١١].

ولم تكن في المشرق متاعب كثيرة آنذاك؛ وحتى وفاة هشام على الأقل. لكن قامت ثورة مسلحة جديدة في الكوفة من أرض العراق بقيادة زيد بن علي من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب. ولهذا فهي بطبيعتها وسمتها ثورة شيعية ولو انها لم تسند من جميع الشيعة في الكوفة الذين بدأوا يعقدون الآمال بانتظار ظهور أمير المؤمنين الامام من بين أحفاد الرسول ﷺ، والظاهر أن زيداً لم يعدهم بالشيء الكثير في هذا المجال، بل كان في نظرته الى مستقبل الأمور واقعياً عملياً على خلاف منافسيه من أبناء عمومته الآخرين [١٢] لكن واقعيته لم تنفعه كثيراً فقد بالغ كثيراً في تأييد أهل الكوفة له وانضمامهم اليه حال إعلان الثورة، لذلك لم يكن معه حين أعلن الثورة إلا ٢١٨ شخصاً بالضبط [١٣] وكان الوالي على علم مسبق بالحركة فلذلك كانت مهمة جند أهل الشام سهلة هذه المرة، فقد قتل زيد وفرّ ابنه يحيى الى المشرق حيث قتل هناك بعد حين أيضاً.

ومع ان هذه الثورة لم تتمخض عن نتائج هامة إلا أنها تظهر بوضوح قلق الوضع الذي يعيشه العراق، ومقدار الملل الذي تعانيه الرعية والحكام على حد سواء.

---

(١٠) الطبري، ج ٢، ص ١٦٥٩-٦٣.
(١١) نفس المصدر، ص ١٧٧٨-٩.
(١٢) نفس المصدر، ص ١٧٠٠.
(١٣) نفس المصدر، ١٧٩٨-٩ و١٧٠٢.

وكانت الأوضاع في بلاد الشام وبلاد الجزيرة مرتبطة كل الارتباط بالأخطار الخارجية الهامة. ففي عام ١٠٤ /٧٢٢ انهزم الجيش العربي في هذه الجبهة هزيمة شنعاء، ولكنه ما لبث أن عزز بالمدد من بلاد الشام فاستطاع الصمود وردّ هجمات الخزر (١٤).

وكانت هذه الجبهة من مسؤولية جيش الجزيرة الصغير نسبياً. في حين كانت جبهة الروم من مسؤولية جيش الشام الاكثر عدة وعدداً.

وإذ لم تعد الجبهة الرومية الآن نشطة كما كانت من قبل، وخاصة بعد فشل حملة العرب على القسطنطينية عام ٩٨ /٧١٧. وقد أصبحت جبهة الخزر هي الجبهة العربية الاكثر نشاطاً والأعنف قتالاً. ولما رد الخزر على نشاط العرب هذا بعنف وقوة استثاروا ردّ فعل عربي أقوى وأعنف وأرسل جند الشام الى جبهة الخزر.

ثم أرسل هشام الى جبهة الخزر اعداداً اكثر من جند أهل الشام تحت راية قائده القدير وأخيه مسلمة. لكن وضع العرب هناك لم يتحسن كثيراً سواء كان ذلك بسبب صحة مسلمة التي ساءت فعاقته عن القيام بواجبات القيادة على الوجه الاكمل أم بسبب عدم رغبة الجيش السوري في القتال على هذه الجبهة. ولذلك أرسل هشام حملة أخرى عام ١١٢ /٧٣٠ بقيادة قائد عام آخر انتهى أمرها الى كارثة فاجعة وأصبح الخزر يهددون قلب بلاد الجزيرة غير بعيد من مدينة الموصل نفسها ودامت غارات الخزر طيلة الشتاء والربيع التاليين ١١٣ /٧٣٢ ولم تنفع معهم مقاومة العرب (١٥).

وكان هشام في أشد الحاجة الى جيوش جديدة يبعثها لإيقاف الخزر أو ردّهم. وفي عام ١١٤ /٧٣٢ عهد بجميع أمور الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان الى ابن عمه مروان بن محمد الذي كان منذ زمن طويل على معرفة تامة بمشاكل المنطقة. وكان الى ذلك جندياً باسلاً وقائداً عسكرياً ممتازاً.

وقد أطلق هشام يده لأن يجنّد ويسجل في الديوان اكثر عدد ممكن من أبناء

---

(١٤) الكامل لإبن الأثير، ج ٥، ص ٧٩ و٨٣–٥، وابن اعثم، فتوح، ج ٢. ص ١٧٩آ و١٨٤ب و١٨٥آ و١٩٥آ.

(١٥) الطبري، ج ٢، ص ١٥٠٦و١٥٣٠–١ والكامل لابن الأثير، ج ٥، ص ٩٤ و١٠٠ و١٠٢ و١١٧–٢٠٠ و١٢٩–٣٠. وتاريخ ابن خياط ج ٢، ص ٣٥٢–٤، ٣٥٧–٨.

الجزيرة[١٦] . وكانت هذه الحركة تهدف أيضاً الى حل مشكلة جديدة خاصة بهذه المنطقة وهي مشكلة تكاثر السكان. فكما لوحظ من قبل، فان الهجرة الى الجزيرة زادت بعد قمع الحركات المختلفة وبعد تجريد العراق أي تسريح جيشه[١٧] .

ورغم أن مصادرنا لا تقدم وصفاً واضحاً للطريقة التي تمّت بها هذه الهجرة الى بلاد الجزيرة، فقد امتلأت هذه البلاد بأعداد غفيرة من العرب الوافدين اليها. وكان فيها بطبيعة الحال عرب قبل الاسلام أيضاً وهم بنو تغلب الذين وان ظلوا على ديانتهم المسيحية أيام الفتح إلا أنهم ما لبثوا أن مالوا في هذا الوقت الى الاسلام ودخلوا فيه، وكانوا بالتأكيد قسماً من السكان العرب فيمَا أصبح يدعى ديار ربيعة.

وهذه المنطقة مركزها الموصل وهي تكون اكبر أقسام المقاطعة. وكان هذا القسم من بلاد الجزيرة في السابق قسماً من الامبراطورية الساسانية وكان في الأغلب ساحة للمعارك بين الساسانيين والبيزنطيين.

وبعد الفتح العربي لهذه المنطقة ولأذربيجان المجاورة لها فقد انفتح مجال كبير للهجرات العربية اليها. ولم تكن الحامية العربية في اردبيل بأذربيجان وفي الموصل على قدر كبير من الحجم لأن أرمينيا تؤمّن حمايتهم من أي هجوم خارجي من الشمال. ونتيجة لهذا فقد سمح للعرب الذين هاجروا الى هناك بالاستقرار وممارسة الزراعة وتربية الماشية في هذه المنطقة الوفيرة الخيرات[١٨] .

ولم يكن كل هؤلاء العرب من ربيعة كما يوحي بذلك اسم «الديار» فاننا نعلم بوجود جماعات كبيرة من الأزد بينهم[١٩] وعلى كل فلأن تغلب بطن من بطون ربيعة وكانت غالبية القبائل المهاجرة اليها من ربيعة فقد دعيت هذه البلاد باسم ديار ربيعة. وقد ساعدت الحياة السلمية والرخاء النسبي في هذه المنطقة على ابتلاع أعداد ضخمة من هؤلاء المهاجرين.

---

(١٦) الكامل لإبن الأثير، ج ٥، ص ٣٩٧ وفتوح البلدان للبلاذري، ص ٣٢٩.

(١٧) أنظر ما تقدم، ص ١٦٩ ١٧٠ من هذا الكتاب.

(١٨) تاريخ ابن خياط، ج ٢، ص ٣٩٧ وفتوح البلاذري، ص ٣٢٩.

(١٩) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧٢. الكامل لإبن الأثير، ج ٥، ص ٥٨. أبو زكريا الأزدي. تاريخ الموصل. القاهرة، ج ٢، ص ١٠.

وكان القسم الشمالي من هذه المقاطعة يُعرف باسم ديار بكر ويتركز حول مدينة آمد. وكان هذا القسم يتكون من بعض الأراضي المملوكة للروم سابقاً بالاضافة الى بعض المساحات الصغيرة من جنوبي أرمينيا.

وكانت الحدود العربية-الرومية الى الشمال الغربي من هذه المنطقة تتغير أوضاعها تبعاً لقوة الصوائف العربية من جهة وقوة المقاومة البيزنطية من جهة أخرى.

وكانت القبائل الساكنة هناك هي قبائل بكر وهي بطن من ربيعة. وغالبيتهم لم تسجل في الديوان إلا أنهم كانو يشتركون في غزوات الصيف أملاً في المغانم والأسلاب. وكانت حاميات عربية صغيرة من المسجلين في الديوان تعسكر في بعض المواقع العسكرية البيزنطية لحماية هذه المواقع حتى يحين موعد الحملة التالية[٢٠].

وكانت ديار مضر الى الجنوب الغربي من بلاد الجزيرة وهي التي كانت منطقة الحدود البيزنطية الشرقية سابقاً. واكثر مدن هذا القسم قد حصنت واتخذت مسالح وظلت تحت سيطرة العرب.

فالرقة ومن ثم حران كانتا من النقاط المركزية في هذه المنطقة وكانت أغلب القبائل العربية هناك من قيس وبعض بطون مضر، وكانت غالبيتهم من الفاتحين الأولين للبلاد وهم يكوّنون عماد جيش الجزيرة ولهذا فهم جميعاً من أفراد الديوان[٢١]. وكانت مهمتهم العسكرية تقتصر على الذهاب في حملات سنوية الى بلاد القفقاس ثم العودة منها الى مدنهم الزاهرة حيث تزدهر التجارة فيها باضطراد.

وقد نال هذا الترتيب رضاهم، فبعد أن عارضوا الأمويين الأوائل أيام الفتوح الأولى على فتح باب الهجرة الى مناطقهم عادوا فأصبحوا الآن من أنصار المروانية الأشداء، يؤيدونها في سياستها التوسعية وقد أصبحوا يمثلون دون شك، الطبقة العسكرية العربية، أو المقاتلة - في المنطقة. ومن هؤلاء استمد حزب قيس - مضر اسمه ووجوده. ولا شك انه كانت لديهم مشاكل صغيرة، وكانوا يشكون من ازدحام

---

(٢٠) البلاذري، فتوح، ص ١٨٣-٥ و١٨٨.

(٢١) نفس المصدر، ص ١٧٢ و١٧٥-١٧٨.

السكان ، وخاصة حين انضم اليهم أقرباؤهم القادمون من الحجاز ، ولكن من الغريب أن هؤلاء القادمين الجدد لم يدخلوا الجيش بل ولم يسمح لهم بسكنى المدن وانما سكنوا الصحراء السورية العراقية المجاورة .

وفي عام ١٠٩ /٧٢٧ أمر هشام بأن ينقل بعض هؤلاء للاستيطان في مصر . وكانت باكورة مَن وصل منهم أربعمائة عائلة استقرت في بلبيس الى الشرق من دلتا النيل ومنحوا العطاء من ديوان مصر بالاضافة الى اقطاعهم بعض الأراضي المستصلحة هناك وبعض المراعي وفوق هذا فقد منحهم بيت المال من حصيلة الضرائب مساعدات مالية لمساعدتهم على الاستيطان وهـذا ما شجع اخوانهم على الانضمام اليهم وسرعان ما انضمت اليهم أعداد أخرى من بطونهم حتى اذا ما قارب عهد هشام على الانتهاء كانت هناك ثلاثة آلاف عائلة عربية قد استقرت في بلبيس .

ومن المفارقات الغريبة أن هؤلاء النازحين أصبحوا مصدر قلق ومتاعب لحكومة مصر في الحين الذي أثروا فيه ثراء فاحشاً وانغمسوا في تربية الخيول والاتجار بها وفي نقل المواد الغذائية الى البحر الأحمر ، حتى ارتفع ، على ما يروى ، دخل الفرد الى حوالي العشرة دنانير في الشهر[٢٢] وهذا مثل بارز على مدى زيادة السكان في الجزيرة والاجراءات التي تلجأ اليها الحكومة المركزية للتخفيف من هذا الضغط .

ولم يصادف مروان بن محمد صعاب كثيرة في جمع جيش له من مناطق الجزيرة ففي أواخر عام ١١٩ /٧٣٧ انهزم الخزر الأثرياء وطردوا من أرمينيا وأذربيجان[٢٣] .

وكان على هشام أن يلتفت الى الروم الذين استغلوا هجمات الخزر ليزيدوا من ضغطهم عند حدودهم مع العرب . وفي عام ١١٣ /٧٣١ وفي ذروة خطر الخزر استطاع البيزنطيون أن يوقعوا في العرب هزيمة كبيرة[٢٤] وقد انتقم لها هشام بإرسال حملتين صيفيتين الى أرض الروم بدلاً من حملة واحدة .

---

(٢٢) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٣١ والكندي الولاة والقضاة ص ٧٦-٧ .

(٢٣) الكامل لابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٣٢ و١٣٧ و١٦٠ و١٨٠ وابن أعثم . فتوح ، ج ٢٢ ، ص ١٩٣ب و١٩٧ب .

(٢٤) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

وقام بالحملة الأولى الجيش السوري وبقيادة اثنين من أولاد هشام هما معاوية ومحمد وكان عليهما أن يتقدما على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط (٢٥) .

وكان على الحملة الأخرى أن تتقدم من الجزيرة نحو الشمال الغربي الى الأقسام الشرقية من أرض الروم وكانت بقيادة سليمان بن هشام (٢٦) وكانت هذه في الواقع أهم الحملتين بالنظر الى تكوين جيشها.

فكما نعلم ، فقد بعث كل من تيسر من العرب في الجزيرة لمواجهة خطر الخزر، ومع هذا فقد أمكن جمع هذا الجيش في الرقة التي كانت تحت ادارة سليمان. ولاثارة الحماس في نفوس أفراد هذا الجيش فقد قدم هشام نفسه الى الرقة متقلداً سيفه (٢٧) ولسوف نعلم من حركات سليمان بعد وفاة أبيه هشام ان له أتباعاً يبلغ عددهم الخمسة آلاف رجل وقد ظل هؤلاء مخلصين له خلال الأحداث طيلة هذه السنين المضطربة ويشار اليهم في مصادرنا باسم «الذكوانية» أي أتباع ذكوان وهو مولى سليمان ، وكان هؤلاء الأتباع موالي أيضاً (٢٨) .

والاستنتاج الواضح هو أن هشاماً في جهده المستميت لجمع الجنود لمواجهة تهديد الروم والخزر قد سمح بتجنيد من اعتنق الاسلام من سكان بلاد الجزيرة الأصليين ليكـون منهم هذا الجيش الخاص. وعلى الاكثر فانهم لم يكونوا مسجلين في الديوان وانما كانوا يتقاضون رواتب خاصة من سليمان نفسه وبالتالي من بيت المال (٢٩) . وفي سبيل الاشراف على تجنيد هؤلاء الموالي فقد قدم هشام نفسه الى الرقة ودخلها متقلداً سيفه.

وهناك خطوة أخرى ذات دلالة بالنسبة للسكان غير العرب حدثت في الموصل التي

---

(٢٥) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥٦٢ و١٥٦٤ و١٥٧٣ و١٥٨٨ و١٧٢٨ وتاريخ ابن خياط ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ و٣٦٩ والكامل لابن الأثير، ج ٥، ص ١٣٧ و١٤٥.

(٢٦) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥٦١ و١٥٧٣ و١٥٨٨ و١٦٣٥ و١٧٢٧ وتاريخ ابن خياط ، ج ٢ ، ص ٣٦٠ و٣٦٤ و٣٦٥ و٣٦٧ و٣٦٩.

(٢٧) الأزدي ، تاريخ الموصل، ج ٢، ص ٤٠ و٤٣ والبلاذري ، فتوح البلدان ص ١٨٦.

(٢٨) الأزدي ، تاريخ الموصل، ص ٧٠ والطبري، ج ٢، ص ١٨٧٠ و١٨٩٢ و١٩٠٩.

(٢٩) كانت العادة قبل عهد عمر بن عبد العزيز أن تدفع مبالغ خاصة للحرس الخاص لأفراد البيت المرواني. ابن عبد الحكم ، سيرة عمر، ص ١٥.

كانت قد فصلت عن عمد من ولاية مروان على أرمينيا وأذربيجان والجزيرة ، وعيّن أحد أصهار هشام والياً على هذا المصر الآخذ بالاتساع وذلك عام ١٠٦ /٧٢٤ ، ولو أن مروان ظل والياً عليها حتى سنتين خلتا من هذا التاريخ.

ولم يكن للموالي الجدد من عمل إلا بناء خزان كبير للماء في المدينة ، وكان هذا المشروع يتضمن حفر قناة تتفرع من دجلة وتصل الى المدينة حيث أنشئت هناك ثمان عشر طاحونة كلف إنشاؤها ثمانية ملايين درهم.

وبعد عمل مجهد دام خمسة عشر عاماً أنجز هذا المشروع عام ١٢١ /٧٣٩ ، وروى أنه كان يعمل في هذا المشروع خمسة آلاف عامل في كل وقت [٣٠] . وتتجلى أهمية هذا المشروع من واقع البدء بتنفيذه في وقت كان فيه بيت المال يرزح تحت ضغط كبير لمواجهة الأخطار الخارجية. ولعل هشام قد أدرك أثر كثافة السكان في هذه المنطقة وحاول اصلاح الوضع بالقيام بمشروع انتاجي طويل الأمد يهيئ – على الأقل – فرص الاستخدام والعمل للسكان المحليين.

وفي سوريا كان نشاط الجيش مقصوراً على الصوائف على سواحل البحر المتوسط. وعلى الحاميات التي ترسل بصورة دورية الى العراق. ولما طلب والي السند على الجبهة الهندية مدداً عام ١١٩ /٧٣٧ لم يكن هناك إلا ٦٠٠ جندي سوري أُرسلوا الى هناك على بطء ودون ما رغبة [٣١] .

وبالطبع فقد كان هناك جيش سوري في شمال افريقيا وفي اسبانيا ، ولكن سرعان ما ستصبح هذه المناطق ميادين رئيسية لنشاط الجيش السوري.

ولنبدأ بمصر أولاً – فمع أن مصر كانت أكثر بقاع الامبراطورية هدوء واستقراراً فان علامات عدم الاستقرار بدأت تشاهد فيها بوضوح أيام هشام. فقد كان القطر – على العموم – كثيف السكان وفيما عدا جيوب صغيرة يقلّ فيها ازدحام الناس ، مثل بلبيس ، فقد كان الطلب شديداً على الأرض.

---

(٣٠) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٨ و٢٤ و٢٦ و٣٢ و٤٣.
(٣١) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦٢٤ والكامل لابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٥٦.

ونتيجة لهذا الطلب فقد سئل هشام الإذن بالبناء على الأرض المستصلحة نتيجة انسحاب النيل على مصبّ الترعة الشرقية من الدلتا[٣٢] .

وفي نفس هذه السنة نسمع عن أول ثورة يقوم بها المواطنون المصريون منذ أول أيام الفتح العربي وبسبب زيادة ٥٪ على جميع الرسوم والضرائب في مصر فرضها الوالي ومستشاره المالي . وكان الأقباط في دمياط قد عارضوا هذا الاجراء وأعلنوا التمرد فأرسلت الجيوش الى هناك لقمع هذا التمرد الذي دام ثلاثة شهور[٣٣] .

وهناك إجراء ثانٍ لم يعجب العرب أنفسهم ، وهو استعمال كيل جديد لوزن القمح أدى الى نقصان حصة العرب في كمية القمح التي يأخذونها مع العطاء فرفضوا استعمال الكيل الجديد وكسروه فانتقم منهم هشام بإنقاص حصصهم من القمح من اثني عشر اردباً الى عشر أرادب فقط مما خلق معارضة شديدة اضطرت هشاماً في عام ١٢٤ /٧٣٦ الى أن يعيد الأمور الى ما كانت عليه[٣٤] .

وفي عهد هشام ، كان الأسطول المصري ما يزال فعّالاً وان لم يكن بالقدر الذي كان عليه من قبل فنحن نسمع عن اندحار واحد فقط مُني به هذا الاسطول على يد أسطول الروم عام ١١٨ /٧٢٦ وفي شرق البحر المتوسط على اكثر احتمال[٣٥] .

ومن الغريب أن نجد في غرب البحر المتوسط أسطول شمالي أفريقيا قد انهمك بهجمات عديدة متتالية على جزيرتي صقلية وسردينيا في المدة بين عامَي ١١٦ و ١٢٢ /٧٣٤ – ٧٤٠[٣٦] . ومع ان بعض هذه الحركات الحربية قد حققت نجاحاً مدهشاً فانها تشير الى ظهور ميدان جديد من ميادين العمليات الحربية باهظ التكاليف جداً .

---

(٣٢) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٧٤ .
(٣٣) نفس المصدر ، ص ٧٣ – ٤ .
(٣٤) نفس المصدر ، ص ٧٨ – ٨٢ .
(٣٥) نفس المصدر ، ص ٧٩ والطبري ، ج ٢ ، ص ١٤٩٥ و١٥٢٦ .
(٣٦) الكامل لابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٣٧ و١٤١ .

وكما هو معروف فإن العرب وصلوا أبعد حدودهم في اوروبا عام ١١٤ /٧٣٢ حين دحرهم شارل مارتل في معركة بواتييه.

وكما هو شأن العرب في كل مكان فقد كانت الجبال تقف دائماً عقبة كأداء في طريق استمرار زحف الجيوش العربية ولم تكن جبال البرنيس استثناء من هذه القاعدة.

ومما يجب ملاحظته أن البربر كانوا الغالبية في الجيوش العربية التي عبرت الى اسبانيا عام ٩٤ /٧١١، وانهم استطاعوا في أول حملة لهم هناك القضاء على قوات فيسكوت. وفي السنة التالية عبر جيش سوري عربي البحر واكمل في الواقع فتح شبه الجزيرة كلها [٣٧].

وقد رغب الجند البربر في سكنى البلاد المفتوحة والتنعّم بخيراتها. ومع ان عدداً غفيراً من بني عشيرتهم قد انضم اليهم في الحال، فاننا لن نشاهد منهم إلا آثاراً قليلة في الحملات التالية التي اضطلع بها كلية جند أهل الشام الذين كانوا يعتبرون أنفسهم في حملة طويلة الأمد. وقد حاولوا مراراً منذ عام ١٠٠ /٧١٨ حتى اندحارهم عام ١١٤ /٧٣٢ الحصول على موضع قدم لهم عير جبال البرنس لكن الفشل كان نصيبهم في هذه المحاولات.

وبعد هذا التحول الحاسم في سير الأحداث فكرت الحكومة المركزية في إسكان جند أهل الشام في اسبانيا. ويدل تعاقب القادة السوريين وعمال الولاة السوريين في اسبانيا على استمرار وصول هذا الجيش بصورة دورية الى هناك [٣٨].

ومن المهم أن نتذكر ان استقرار البربر في البلاد المفتوحة قد ازداد وفي أحسن الأماكن طبعاً باعتبارهم فاتحيها الأوائل. واذا ما أريد التفكير في إسكان السوريين هناك أيضاً فان دون ذلك مشكلتين رئيسيتين أولاهما هي اختيار المكان لاستقرارهم فيه والثانية هي كيفية ايقاف تدفق هجرة البربر الى اسبانيا.

---

(٣٧) الطبري، ج ٢ - ص ٢٣٥ أو ٢٥٣ أو ١٢٦٧. والكامل لابن الأثير، ج ٤، ص ٤٤٧ وابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٠٤ - ٢١٠.

(٣٨) الكامل لابن الأثير، ج ٥، ص ٣٧٣ - ٤.

والمشكلة الأولى رغم صعوباتها واحتمال أن تؤدي الى تصادم كبير بين البربر والسوريين فهي مع هذا كله – ليست في خطورة المشكلة الثانية.

ففي عام ١٢٢ /٧٣٩ حين حاول العامل على طنجة منع البربر من العبور الى اسبانيا نشبت في الحال ثورة كبيرة انتشرت انتشار النار في الهشيم الى جميع شمال افريقيا، وهددت تهديداً خطيراً مركز العرب هناك[٣٩].

ومن الطبيعي أن تكون هناك أسباب كثيرة لاستياء البربر ساعدت على انتشار الثورة بينهم بهذا الشكل السريع الواسع. ويجب أن نتذكر أن البربر، كانوا الوحيدين من بين أبناء البلاد المفتوحة للعرب، الذين منحوا منذ أيام الفتح الاولى مركزاً مساوياً لمركز القبائل العربية اذا ما اعتنقوا الاسلام وشاركوا الجيش العربي في القتال. ولكن جرت بعد ذلك محاولات تهدف الى تجريدهم من بعض امتيازاتهم هذه مما أدت الى اسراع عمر بن عبد العزيز بالتدخل الى صالحهم وانتهت مرة أخرى أيام الوليد الثاني الى مقتل الوالي العربي هناك[٤٠].

ولكن النفقات الكبيرة التي تقتضيها العمليات البحرية في شمالي افريقيا أدّت الى القيام بمحاولات لجمع ضرائب اكثر من البربر المواطنين لتخفيف العبء عن كاهل بيت المال. فانضافت الآن هذه المحاولة الجديدة الى كل ما سبقها من المحاولات التي تهدف الى تجريدهم من خيرات الفتوح التي أنجزوها بأنفسهم لصالح زملائهم المسلمين من جند أهل الشام في اسبانيا.

وكانت ثورتهم على درجة من الشمول والسعة بحيث اضطرت هشاماً الى أن يرسل كل ماكان متوافراً لديه من الجيش السوري في محاولة لانقاذ الوضع في تلك المنطقة[٤١].

وكانت هذه الفترة فترة فوضى في شمال افريقيا واسبانيا. فقد تطورت ثورة البربر الى حركة انفصالية تحت راية «الخارجية» وصار للبربر «أمير للمؤمنين» خاص بهم[٤٢].

---

(٣٩) نفس المصدر، ص ١٢٢ وابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص ٢١٧–٢١٨.

(٤٠) أنظر ص ١٩٤ مما تقدم من هذا الكتاب.

(٤١) ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ١١٠–١١.

(٤٢) الكامل لابن الأثير، ج ٥، ص ١٤٢ وابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص ٢١٨.

وهذه الحركة البربرية – الخارجية الصرفة كانت حركة غير عربية تماماً وكانت الأولى من نوعها في الامبراطورية. ومع انها حملت اسم «الاباضية» فانها في الحقيقة لم تكن على أية صلة بحركة الخوارج التي تحمل نفس هذا الاسم في شرق جزيرة العرب، وأية محاولة لايجاد علاقة أو رابطة بين الحركتين فهي محاولة لا أساس لها من الصحة ولا تؤيدها مصادرنا. ولا عبرة بما ورد بعد ذلك بقرون في المصادر الاباظية فما هو إلا نوع من المبالغة العاطفية في تاريخ هذه الفئة الصغيرة (٤٣). فالاباضيون المنتشرون اليوم في شرق بلاد العرب هم بقايا الثوار «الخوارج الجدد» أثناء الفتنة الثانية. وبعد قمع هذه الثورات وجد هؤلاء المتبقون منهم أن الأسلم أن يكونوا قعدة أي اعلان أنفسهم غير محاربين. وعلى هذا فقد احتملت الحكومة المركزية وجودهم في ذلك الركن النائي من شبه جزيرة العرب دون أن تحاول القضاء عليهم مرة واحدة (٤٤). والظاهر أنهم استطاعوا آخر الأمر النجاح في استعادة سير التجارة عبر المحيط الهندي ولعل هذا أن يفسر صلتهم بالبصرة، ولكن من الخطأ إيجاد أية صلة بينهم وبين البربر في شمال افريقيا في هذه المرحلة بالذات.

وما دامت هذه حقيقة الحال فلا بد من تفسير لحركة البربر هذه والتي يطلق عليها الاباضية. ومن المفهوم ان البربر كمسلمين قد ثاروا على سلطة الحكومة المركزية ولـذا فانهم يعتبرون في نظر معاصريهم خوارج. أي خارجين على هذه الحكومة. وقد رحبوا هم أنفسهم بهذه التسمية لأنها تضفي عليهم نوعاً من المساواة مع رفاقهم المسلمين العرب، وهذه المساواة هي الغرض الأساسي من ثورة البربر.

وكانت الاباضية في شرق بلاد العرب هي الحركة الخارجية الوحيدة في ذلك العصر التي لم تستطع الحكومة المركزية أن تسيطر عليها. ولذلك فليس من الصعب أن نجد أن لفظي «الخوارج» و «الاباضية» قد أصبحا مترادفين من وجهة نظر البربر على الأقل. ولذلك فحين ينسب الثوار البربر أنفسهم الى الاباضية فانهم في الواقع يعلنون مساواة قضيتهم بقضايا العرب المسلمين الآخرين.

---

(٤٣) للاطلاع على رأي آخر مخالف لما سبق أنظر تي. لويكي. مادة «الاباضية» دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الجديدة، لايدن ١٩٥٤.

(٤٤) أنظر ما تقدم ص ٢٠٢ من هذا الكتاب.

ولكن اذا كان الاباضيون في شرق بلاد العرب قعدين فان أولئك الذين في شمال افريقيا ثوار مقاتلون. وقد استطاعوا في الواقع أن يجلوا كل العرب عن شمال افريقيا وأن يدفعوا ببعضهم الى اسبانيا حيث كانت الحاجة اليهم شديدة هناك لنصرة اخوانهم العرب ضد البربر هناك(٤٥).

وما ان امكن احتواء ثورة البربر هذه، حتى انقسم العرب في اسبانيا، وكما هو المعتاد، الى قيسية ويمانية. وقد فضّل بعضهم البقاء في اسبانيا وأوجدوا لهم نوعاً من التعايش مع البربر وهؤلاء هم اليمَانية بالطبع.

وكانت القيسية على الجانب الثاني تعمل جاهدة للعودة الى سوريا فأبوا أن يسهموا بعمليات الاستقرار أو التعاون مع البربر.

وفي الأخير وبعد أن قمعت ثورة البربر بصورة مؤقتة اتفق العرب أنفسهم على الاستقرار في اسبانيا. وتعكس الطريقة التي توزعوا فيها في البلاد تركيب الجيش السوري في ذلك الحين فقد استقر جند مدينة الشام في مدينة الفيرا وجند قنسرين في مقاطعة جين وسكن جند حمص في أشبيليه وجند فلسطين في مدينة سادونيا والجزيرة(٤٦).

وعندما اقترب عهد هشام من نهايته ١٢٥ /٧٤٣ كانت الحالة في اسبانيا وافريقيا بـل في الواقع في جميع أنحاء الامبراطورية في حالة سلم داخلي غير سهل. ومع هذا فان القدرة على كبح الأخطار الخارجية لم تكن بالانجاز القليل على كل حال.

* * *

(٤٥) الكامل لإبن الأثير، ج ٥، ص ١٤٣–١٥٤ ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص ٢١٨ و٢٥.
(٤٦) الكامل لإبن الأثير، ج ٥، ص ٣٧٤–٦ وابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص ٢٢٣.



الفصل التاسع

انهيار المروانية

خلف هشاماً في الحكم ابنُ أخيه الوليد بن يزيد ، وسنسميه الوليد الثاني تفرقة له عن ابن عمه الوليد (الأول) بن عبد الملك ، وتذهب مصادرنا الى أن تولية الوليد الثاني في الحكم أمر قد سبق ترتيبه وأحكم أمره منذ عشرين سنة خلت وعلى عهد أبيه يزيد بن عبد الملك سلف هشام في أمارة المؤمنين.

ومع احتمال صحة هذا الرأي فان الدرس الدقيق للأوضاع السائدة ينتهي بنا الى صعوبة التسليم به بسهولة.

فمما لا شك فيه أن هشام نفسه لم يكن مرتاحاً من هذا الترتيب وكانت خاصته تعارضه وكان الفقيه الزهري هو اللسان المعبّر عن هذه المعارضة[1] ويروى أن هشاماً حاولا أن ينقل ولاية العهد الى ولده مسلمة ، والذي يستغرب انه لم يكن كإخوته همةً ونشاطاً أيام حكم أبيه الطويل الأمد[2] فاذا صحّت هذه الرواية فانها تدلنا على رغبة هشام بالاتيان بمرشح وفاق.

وقد أظهرت الأحداث التالية أن بني مروان كانوا منقسمين فيمَا بينهم أشد الانقسام حول ولاية الوليد[3] . وكان من الطبيعي أن يختلف أفراد العائلة من قبل حول شتى المواضيع ، ولكن الخلاف فالانقسام كان هذه المرة من العمق والخطر بحيث هدد بانهيار أحد أهم أعمدة الحكم المرواني وهو وحدة البيت المرواني نفسه وتماسكه.

---

(١) الطبري، ج ٢، ص ١٨١١.
(٢) نفس المصدر، ص ١٧٤١–٣.
(٣) نفس المصدر، ص ١٧٤١ و ١٧٧٥.

ومن السهل أن نخمن بأن أفراد العائلة الذين أيدوا تولية الوليد إنما كانوا يهدفون في الواقع الى استمرار سياسة التوسع التي بعثها الى الحياة مجدداً ونفّذها بكل عزم وتصميم يزيد بن عبد الملك أبو الوليد.

وقد أظهرت الأحداث التالية أن الذين عارضوا تولية الوليد هم الذين أرادوا عكس هذه السياسة.

ولا بد أن هشاماً قد أدرك وجود هذا الانقسام ولعل هذا هو السبب في محاولاته الاتيان بمرشح تسوية أو وفاق، ولكنه اذ فشل في ذلك واذ كان هو نفسه من الميالين الى سياسة التوسع لذلك فقد ربح أنصار الوليد داخل العائلة الجولة وظل الوليد في ولاية العهد.

وتصور مصادرنا الوليد على أنه رجل خلاعة ومجون لا يهتم إلا بملذاته ولكن هذه الاتهامات ما هي إلا مثل على مبالغة هذه المصادر في فشله، ولعل هذه الاتجاهات ما هي إلا مجرد إشاعات كان يطلقها أعداؤه الكثيرون وسرعان ما تنتشر وتلتقط فتروى وتسجل.

ولعل المأخذ الرئيسي على الوليد انه لم يدرك الآثار الخطيرة الناجمة عن الأعباء الثقيلة والمتزايدة المطلوب تنفيذها من الجند السوري ذي القدرة المحدودة. كما انه لم يدرك أن تجنيد جيش جديد من الجزيرة قد أظهر للوجود قاعدة عسكرية بديلة لنظام جديد في الامبراطورية. وطبيعي فان وجهة نظر الوليد أن هذه القدرة الجديدة ستخدم مصالح الامبراطورية اذا ما استخدمت في حروب توسعية جديدة.

ويبدو أن الوليد كان في فترة حكمه القصير قد أظهر ميلاً الى السياسة القيسية التوسعية، كما يبدو ذلك، وعلى أوضح ما يكون من موقفه مع خالد القسري زعيم اليمَانية. فبعد أن عزل خالد عن ولاية العراق عاد الى دمشق الشام واستقرّ فيها وروي عنه انه شارك في بعض المغازي الصيفية على حدود الروم، وظل طيلة ست سنوات يحاول الابتعاد عن دوامات الصراع السياسي في دمشق. لكن حذره هذا لم ينجه من المصير المؤلم، اذ اتهم بالمعارضة والتآمر ضد السياسة القيسية فما كان من الوليد إلا أن بعث به الى

خصمه الألدّ يوسف بن عمر والي العراق والمشرق الذي ألقى به في السجن وعذبه حتى مات في سجنه عام ١٢٦ /٧٤٣[٤].

وهذا التصرف تجاه زعيم الحزب اليمَاني واضح الدلالة على التزام الوليد التام بالمبادئ والسياسات القيسية. واضافة الى هذا فقد أقدم على عمل طائش وقاسٍ آخر ضد واحد من بني مروان هو سليمَان بن هشام. فقد أمر به أن يُسجن وأن يُضرب ثم نفاه الى بلاد عمان حيث حُبس هناك[٥].

وكما نعلم فان سليمَان كان أيام أبيه قائداً نشطاً قاد عدة صوائف ضد الروم. واكثر من هذا دلالة على مكانته وخطره انه كان قد جمع حرسه الخاص به من مواطني بلاد الجزيرة غير العرب[٦].

ولوجود هذا الجيش وراءه ولانقسام البيت المرواني على نفسه، فان سليمان كان يشكل تهديداً خطراً للوليد، ولذلك فليس من المستغرب أن يقدم الوليد على هذا العمل غير المسبوق تجاه ابن عمه.

واذا التفتنا الى الجيش السوري نجد أن الوليد يعلم حق العلم أنه لا يستطيع أن يستدعي من هذا الجيش قسمه الذي أُرسل الى شمال أفريقيا لإخماد ثورة البربر هناك، ولذا، وبدلاً عن ذلك فقد التفت الوليد الى جزيرة قبرص التي طال نسيان أمرها.

وكانت هذه الجزيرة قد أُخذت من الروم عام ٢٤ /٦٤٩ أيام ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام وسكنها عرب من أهل الشام منذ ذلك الحين[٧]. وقد أرسل الوليد عام ١٢٥ /٧٤٣ حملة بحرية الى هذه الجزيرة تستدعي سكانها المقيمين فيها وتضطرهم الى المشاركة في الحملات العسكرية المتوجهة لحرب الروم[٨].

---

(٤) نفس المصدر، ص ١٨١٢ و٢٢.

(٥) نفس المصدر، ص ١٧٧٦.

(٦) أنظر ص ٢١١ مما تقدم من هذا الكتاب.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ١٥٣.

(٨) الطبري، ج ٢، ص ١٧٦٩، والكامل لابن الأثير، ج ٥، ص ٢٠٦.

أما بالنسبة الى بقية الجند الموجود في سوريا فقد كسب ولاءهم بزيادة العطاء لهم ، واضافة الى هذا واعتماداً على الفائض الوافر في بيت المال فقد أعاد «وأجرى على زُمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم وأمر لكل انسان منهم بخادم وزادهم على ماكان يخرج لهم هشام وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشره ثم زاد أهل الشام بعد زياده العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة»[٩] .

وهذه الخدمات والاعطاءات هي كما قلنا، نوع من المساعدة الاجتماعية للعرب في بلاد الشام ويبدو أنها أُوقفت أيام هشام[١٠] لكن هذه الترضيات كلها لم تجده نفعاً فان أهل الشام وقد ضاقوا بهذه السياسة التي تحملهم على الغزو والحرب باستمرار وطيلة أيام العام وفي أنحاء الامبراطورية كافة ، عادوا وثاروا بالوليد نفسه . فقد اتفق بعض قادة هذا الجيش مع بعض أفراد من بني مروان وقاموا بانقلاب عسكري أودى بحكم الوليد ولما يمضِ عليه اكثر من عام واحد[١١] وقتل الوليد نفسه على يد أخلص الناس لبني أمية وهم جند أهل الشام والذين تسميهم مصادرنا «اليمَانية» لسببين : [١٢]

أولها أن القبائل الثائرة ، بصرف النظر عن أنسابها وولائها القبلي ، قد ثارت ضد السياسة القيسية التي يتبعها الوليد.

وثانيهما أن تسمية اليمَانية هي التسمية المضادة للقيسية التي كانت تعني في ذلك الحين جيش الجزيرة.

ومن المهم هنا أن نعرف أن جيش الجزيرة هذا ظل بعيداً عن التدخل في هذا النزاع في بلاد الشام. لكنه وكما سنرى ، سرعان ما سيتحرك ويزحف لضمان السيطرة على بلاد الشام نفسها[١٣] .

وفي الواقع فان هذا الانقلاب ضد الوليد كان في الحقيقة والعمل ، هو نهاية حكم

---

(٩) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٥٤ وتاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٣٦.

(١٠) أنظر ص ١٧٤ مما تقدم من هذا الكتاب.

(١١) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٥٥ و١٧٧٧–١٨١٠ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ١٧٥٥ و١٧٧٨ و١٧٨٤ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ١٧٨٥ و١٨٥٠ و١٨٧٠–٣ .

بني مروان ، إذ فقدوا ، بفقدانهم تأييد جند أهل الشام لهم ، القاعدة الصلبة التي يقوم عليها ملكهم لذلك فسرعان ما تضعضع وانهار.

وكان يزيد (الثالث) بن الوليد بن عبد الملك هو مرشح قادة الجند السوري لخلافة ابن عمه الوليد (الثاني) بن يزيد بن عبد الملك عام ١٢٦ /٧٤٤.

ومن الغريب أن تكون باكورة أعماله إنقاص الناس من اعطياتهم الذي زاده الوليد لجند أهل الشام (١٤) . ولم يكن هذا جحوداً منه أو نكراناً لجميل أولئك الذين جاءوا به الى الحكم ولكنه كان الاشارة الأولى الى عدم مسائلة جند أهل الشام للقيام بأية مهمة اكثر مما يطلب من بقية المقاتلة في أنحاء الامبراطورية الأخرى.

وفي الواقع فقد وعد يزيد بأن يبقى الجند الشامي في بلاد الشام وأن يحكم الامبراطورية دون الاعتماد على قوتهم البوليسية في ضبط الأمور.

وكان هذا الوعد واحداً من وعود كثيرة أعلنها وكلها تشير الى خروجه الكامل عن السياسة القيسية.

وفي خطبة البيعة التي ترويها جميع مصادرنا لخّص الوليد ما يمكن تسميته بالاعلان اليمَاني فقال : أيها الناس إن لكم عليّ :

أ - ألا أضع حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة. (أي إيقاف أعمال البناء التي لا لزوم لها).

ب - لا اكرى نهراً ولا اكثر مالاً ولا أعطيه زوجة أو ولداً (أي إيقاف أعمال استصلاح الأراضي لتوزيعها على الأهل والأقارب).

ج - لا أنقل مالاً من بلدة الى بلدة حتى أسدّ ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله . فان فَضَلَ نقلته الى البلد الذي يليه ممن هو أحوج اليه.

د - ولا أحجّكم في ثغوركم فافتنكم وأفتن أهليكم.

هـ - ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ،(أي أنه لا يزيد في الضرائب والرسوم ما يضطر الناس الى الجلاء عن أرضهم والهجرة عنها).

---

(١٤) نفس المصدر، ص ١٨٢٥ و١٨٥٠ و١٨٧٠.

و - وان لكم اعطياتكم عندي في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون أقصاهم كأدناهم.

ز - فان وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة، وان لم أفِ فلكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبـوني، فان تبت قبلتم مني. وان علمتم أحداً ممن يعرف بالصلاح ويعطيكم من نفسه مثل ما عطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته (١٥).

والنقطة الأخيرة التي تتضمن رفضه للحكم الفردي ودعوة الناس الى محاسبته ومن ثم قبوله بحكم الرأي العام عليه حتى بخلعه إن لم يفِ بوعوده، هذه النقطة ذات أهمية خاصة لما تلقيه من أضواء على الاتجاهات السياسية لطائفة اسلامية لا يعرف عنها إلا القليل وهي القدرية.

فمع اننا غير واثقين من طبيعة الآراء الدينية لهذه الطائفة، وخاصة في مرحلة التكوين هذه، فان آراءها السياسية مهمة بسبب ارتباطها الواضح مع المعارضة للنظام المرواني. فنحن نذكر أن غيلان الدمشقي قد أعدم بأمر من هشام بسبب آراء إلحادية غير معينة وانما وصفت بأنها قدرية وحسب (١٦).

وقد روي عن يزيد الثالث أنه كان قدرياً وغيلانياً في وقت واحد (١٧). ولذلك فللمرء أن يفترض إما ان كلا المذهبين يدينان بآراء متشابهة أو ان كلا الاسمين يطلقان على نفس الجماعات.

وكانت آراء غيلان التي كلفته حياته، تتضمن الدعوة الى الحدّ من سلطة أمير المؤمنين (١٨) ومن الطبيعي ألا يستطيع الجهر صراحة بهذه الآراء كما صرّح بها يزيد جهاراً في خطاب البيعة، فلا شك أن القدرية كانت لا ترضى أن يكون أمير المؤمنين حاكماً

---

(١٥) نفس المصدر، ص ١٨٣٤ - ٥. وتاريخ ابن خياط، ج ٢، ص ٣٨٢ - ٣. والأزدي، تاريخ الموصل ص ٥٠ - ١. والذهبي، تاريخ الاسلام ج ٥، ص ١٨٩.

(١٦) أنظر، ص ٢٠٥ مما تقدم من هذا الكتاب، والذهبي، تاريخ الاسلام، ج ٥، ص ٢٨٩.

(١٧) الطبري، ج ٢، ص ١٨٢٨ و١٨٦٩ و١٨٧٤ و١٨٩١.

(١٨) الحسن بن موسى النوبختي فرق الشيعة. تحقيق ايج ويتر ليبز، ج ٢، ١٩٣١، ص ٩.

مطلقاً بل ترى أن تكون سلطته الزمنية محدودة وخاضعة لرقابة الجماعة ورضاها والتي لها الحق في خلعه إن أساء التصرف بهذه السلطات.

ولم يكن هناك – بالطبع – أي بحث حول منح أمير المؤمنين صلاحيات دينية. ولم تكن الغيلانية والقدرية ويزيد الثالث ضد بني مروان وانما كانوا ضد فكرة بني مروان عن طبيعة المنصب الذي يشغلونه.

ومع أن غالبية جند الشام أيدوا يزيد الثالث فان بعض جند حمص وفلسطين ممن – على الاكثر – لم يشتركوا في الانقلاب عارضوا اغتيال سيدهم الشرعي. ولكن معارضتهم لم تكن على جانب من الخطر كبير وأمكن التغلب عليهم بسهولة.

وفي هذا الخصوص لعب سليمان بن هشام الذي حبسه الوليد الثاني وأطلق يزيد الثالث سراحه – دوراً هاماً. فقد استطاع وحرسه الخاص – الذكوانية – أن يقنع المعارضين بوجهة نظر النظام الجديد[١٩] وقد استرضى مروان بن محمد والي أرمينيا وأذربيجان والجزيرة وقائد جيش الجزيرة القيسي باضافة منطقة الموصل الكثيرة الخيرات والكثيفة السكان الى ولايته[٢٠].

ومن الواضح أن يزيد كان يتحرك بحذر وروية لاحتواء هذه المجموعة القوية على أمل أن يستطيع في ختام المطاف إقناعهم بعقم سياسة أسلافه البالية.

وفي مصر كان الوضع ملائماً كل الملائمة لتطبيق سياسة يزيد الجديدة فعلى الرغم من قيام بعض الاضطرابات هناك أيام هشام إلا أنه أمكن التغلب عليها بسهولة، وكان السكان المصريون على أتم التعاون مع العرب كما يظهر ذلك بجلاء في ادارة الأسطول المصري العربي[٢١].

وكان من الواضح جداً انه كان يمكن، بامتيازات بسيطة – كسب ولاء المصريين الى صف الحكومة بصورة نهائية وخدمة المصالح العربية بصورة أفضل. ولذلك فقد أوعز الى والي مصر بأن يوزع على المصريين، والى حد ثلاثين ألف منهم، عطاء بمعدل عشرين

(١٩) الطبري، ج ٢، ص ١٨٢٦–٣٣.

(٢٠) نفس المصدر، ص ١١٧٣.

(٢١) أنظر ص ١٧٩ مما تقدم من هذا الكتاب.

الى خمسة وعشرين ديناراً في السنة. وتطلق مصادرنا على أفراد الديوان المصري الجدد هؤلاء اسم المقاصمة أو الموالي [٢٢]. فالمقاصمة هم المصريون العاملون في الأسطول بحارة أو ملاحين أو جدّافين أو ربابنة والذين يتقاضون أجوراً معينة خلال الحملات الحربية السنوية.

ويجب أن يلاحظ أن الأسطول العربي كان على غرار الأسطول الرومي فكانت وحدة القتال هي السفن الشراعية الكبيرة (Galley) وبها مائة جدّاف على الأقل إضافة الى بعض المهنيين الآخرين.

ومع ان كل هؤلاء كانوا مسلحين فقد كانت هناك وحدة مقاتلة تحتل مكانها على ظهر كل سفينة، ولربما كانت هذه القوة المقاتلة من العرب وان يكن جميع العاملين الآخرين في السفينة من المصريين. ولا بدّ أن عدد المصريين العاملين في الأسطول كان كبيراً جداً ذلك لأننا نعلم أن عدد سفن الأسطول تبلغ الألف تقريباً [٢٣]. وحيث أن هذا الأسطول يحاكي النموذج البيزنطي فلا عجب اذا ما استعمل اللفظ اليوناني ماجشيموس، (Machimos) أي الرجل المحارب، من قبل العرب بعد تحريفه ووضعه في صيغة الجمع فأصبح مقاصمة. ويعني المصريين العاملين في الأسطول العربي [٢٤].

وقد أتاح يزيد الثالث الفرصة لهؤلاء للتسجيل في الديوان بصفة دائمة شريطة أن يعتنقوا الاسلام.

والاشارة بصورة خاصة الى الموالي الى جانب المقامصة يؤكد وجود هذا الشرط.

وقد تعني أيضاً أن يزيد الثالث كان يخطط لإنشاء جيش مصري ليستخدمه – مع الأسطول – لتخفيف الضغط عن الجند السوري في شمال افريقيا واسبانيا.

وكان الوضع في هذه المناطق قد كاد أن يخرج من يد العرب تماماً نتيجة الخلافات المستمرة بين العرب في اسبانيا بالنسبة الى موقفهم من البربر. ومع ان الجيش السوري

---

(٢٢) الكندي، الولاة والقضاة ص ٨٤.

(٢٣) كان عدد السفن في عام ٢٧ / ٦٨٤ اكثر من مائتي سفينة أنظر ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٩٠.

(٢٤) نقلت الكلمة اليونانية نوتيه NAUTE الى العربيـة على شكل نوتي، وتعني الملاّح في نهر النيل. ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص ٦٧.

الذي أرسل الى شمال افريقيا أيام هشام قد قضى على ثورة البربر إلا أن الخلاف الحاد بين العرب في كل من شمال افريقيا واسبانيا ظل التهديد الاساسي للوضع العربي القلق في تلك المناطق.

وفي عام ١٢٥/ ٧٤٣ أرسل حنظلة بن صفوان، قائد الجيش السوري والوالي هناك، كتيبة من جيشه لإعادة الأمن الى اسبانيا، وكانت نتيجة ذلك فوضى وارتباكاً لا في اسبانيا فحسب بل وللشمال الافريقي أيضاً.

فقد عبر بعض عرب اسبانيا الى الشمال الافريقي ليستولوا على الأمور فيها مما اضطر حنظلة أن ينسحب وجيوشه الى الشام عام ١٢٧/ ٧٤٥ تاركاً الشمال الافريقي بأيدي الثوار الذين كانوا بقيادة عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع القائد الشهير للفتوح العربية الأولى في المنطقة.

وفي حين ظلت الفوضى تسود اسبانيا حتى قيام الحكم الأموي هناك عام ١٣٨/ ٧٥٦ فقد ظل الشمال الافريقي بيد الثوار الذين كانوا راضين بعودة ثورة البربر حتى دخلت المنطقة تحت حكم بني العباس عام ١٤٦/ ٧٦٧ (٢٥).

أما عن العراق فان يزيد الثالث طرد والي العراق القيسي يوسف بن عمر وعيّن بدلاً عنه منصور بن جمهور الكلبي زعيم المؤامرة اليمانية الذي دبّر الانقلاب وأداره (٢٦). وكانت مهمته، وهي ابرز ما في عهد يزيد القصير – إعادة تنظيم الجيش العراقي على أن يدفع بيت المال الاعطيات للمجندين الجدد (٢٧).

والعراقيون يرحبون عادة بأمثال هذه الخطوة، لكن أسلوب منصور لم يكن مقبولاً لديهم. فاما انه كان – كما يبدو – يفضل بقاء الجيش السوري في العراق واما انه كان يسعى لإتمام دمجهم الكامل معه بالجيش الجديد.

وبعد ثلاثة أشهر فقط ولما وضح للعيان أن منصور، وهو من قواد الجيش السوري،

---

(٢٥) الكامل لابن الأثير، ج ٥، ص ٢٠٤–٥ و٢٣٥–٦ و٣٧٥–٦.

(٢٦) الطبري، ج ٢، ص ١٧٧٨ و١٧٩٤ و١٨٠٣–٤ و١٨٣٦–٧.

(٢٧) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٣٦.

قد فشل في كسب ثقة العراقيين به ، وبصرف النظر عن دوره في الانقلاب [٢٨] فقد استبدل به وال جديد وهو وإن لم يكن ، ولهذا الأمر دلالته الخاصة . من ثوار الجيش السوري فقد كان لاسمه صيتٌ مدوٍّ ورنين مقبول ذلكم هو عبدالله بن عمر بن عبد العزيز .

وكان اسم عبدالله بن عمر يعني بالنسبة للعراقيين استعادة سياسة أبيه أي وضع حدّ لسيطرة الجيش السوري على العراق .

وقد بدأ الوالي الجديد عبدالله في بناء الجيش العراقي والذي اقترح أن يضم اليه ويدمج فيه الجيش السوري الموجود في العراق ، وان يكون منصور الكلبي ، الوالي السابق والقائد السوري ، أحد قواد هذا الجيش الجديد [٢٩] .

وكان منصور بن جمهور ، خلال ولايته القصيرة على العراق قد عيّن أخاه منظور بن جمهور نائباً عنه في المشرق . ومع ان منظور لم يصل الى خراسان فان نبأ تعيينه أثار هياجاً كبيراً هناك وخاصة بين اليمانية إذ كان هذا التعيين في نظرهم نهاية سلطة الوالي المضري نصر بن سيار وبدء منظور بتطبيق سياسة يمانية أكثر اعتدالاً من ذي قبل .

وعلى كل حال فان نصر بن سيار نفسه رفض أن يعترف بهذا التعيين واستمر في اتخاذ الاجراءات ضد زعماء اليمانية في خراسان للحفاظ على مركزه [٣٠] وقد أدت هذه الاجراءات آخر الأمر الى توحيد جميع خصومه ضده مما كان عاملاً رئيسياً في نجاح الثورة العباسية في خراسان .

ولسؤ الحظ فقد توفي يزيد الثالث فجأة في نهاية عام ١٢٦ /٧٤٤ بعد حكم لم يدم اكثر من ستة شهور ، وخلفه في الحكم أخوه ابراهيم الذي لم تعترف جميع الفئات بامارته للمؤمنين ، فانتشرت الحزبية بين الجند السوري في سوريا نفسها وتدهور الوضع الى فوضى كاملة في كل أنحاء الامبراطورية تقريباً [٣١] .

---

(٢٨) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٨٣٦-٧ .

(٢٩) نفس المصدر ، ص ١٨٣٤-٥ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص ١٨٤٥ و١٨٤٧ و١٨٥٩ .

(٣١) نفس المصدر ، ص ١٨٧٥ .

وكان مروان بن محمد في هذه الأثناء رابضاً في مقرّه في الجزيرة على رأس أقوى قوة ضاربة في الامبراطورية. وقد وصل نفسه الى خراسان من جهة ارمينيا، وزاد من قوة جيشه بتجنيد جند جديد واستجاشة جنود الجزيرة القدامى (٣٢). وقد هددت بقايا الجند السوري في جيشه وهم جماعة من جند فلسطين بالثورة إن لم يسمح لهم بالعودة الى أهلهم فاضطر مروان الى الاستجابة لطلبها (٣٣). وكانت هناك فئة ساخطة أخرى بالقرب منه في الجزيرة وتتألف من العرب المقيمين في ديار ربيعة الذين اما انهم كانوا لا يريدون الانضمام الى جيش مروان أصلاً واما ان يتركوا ذلك الجيش ويعودوا للاستقرار في بيوتهم (٣٤).

ومما له دلالة في هذا الصدد انهم وجدوا التأييد من فئة أخرى من تغلب دخلت الاسلام في وقت قريب وكانت تستوطن أذربيجان (٣٥). وكان رئيسهم البارز هو الضحاك بن قيس الشيباني من ربيعة. ويعرف هؤلاء بمصادرنا باسم «الصفرية» وعلى انهم فئة من الخوارج (٣٦) وهم على العموم خليط من العرب الذين رفضوا أن يؤيدوا نظام بني أمية في أي شكل من أشكاله بعد الآن، ولم يروا –كذلك– سبباً يدعوهم للارتباط في الحركات الشيعية غير الناجحة حتى الآن.

ولا يمكن تعريف مذهب هؤلاء الصفرية على وجه الدقة إذ أنهم يوصفون تارة على أنهم من القعدة. وعلى ذلك فهم من معارضي سياسة التوسع على خط مستقيم.

واذا كان الحارث بن سريج يمثل أقصى اليمين المتطرف في خراسان فان الضحاك بن قيس قد يمثل أقصى اليسار المتطرف في قلب الامبراطورية.

وعلماً من هؤلاء الخوارج المسالمين انهم ببقائهم في الجزيرة سيصبحون فريسة سهلة بيد مروان، فقد قرروا الانتقال، وبهدوء، الى الكوفة (٣٧).

---

(٣٢) نفس المصدر، ص ١٨٧٣ و١٨٧٦ والأزدي، تاريخ الموصل ص ٦١.
(٣٣) الطبري، ج ٢، ص ١٧٨١–٣ والأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦٦.
(٣٤) الطبري، ج ٢، ص ١٨٩٧–٩ والأزدي، تاريخ الموصل، ص٦.
(٣٥) تاريخ ابن خياط، ج ٢، ص ٣٩٥.
(٣٦) الطبري، ج ٢، ص ١٩٠٠.
(٣٧) نفس المصدر، ص ١٨٩–٩ وتاريخ ابن خياط ج ٢، ص ٣٩٦.

وفي الكوفة كان عبدالله بن عمر بن عبد العزيز ما يزال منهمكاً في بناء الجيش العراقي ، ورغم بعض المعارضة الطفيفة من الجيش السوري المقيم في العراق فقد استطاع عبدالله أن يجنّد عدداً وافراً من المتطوعين وقد ضمن بيت المال الكوفي لهؤلاء الجنود الجدد عطاء ثابتاً (٣٨) .

وفي خلال هذه الفترة دخل مروان بن محمد الى دمشق عام ١٢٧ / ٧٤٤ وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين (٣٩) وقد قامت في وجهه معارضة طفيفة من جند حمص وجند فلسطين ولكنه سرعان ما تغلب عليها (٤٠) .

وقامت فئة أخرى بمعارضة مروان بن محمد وكانت برئاسة سليمَان بن هشام وحرسه الخاص من الموالي الذكوانية ولكن سليمَان وجيشه اندحر أمام مروان وهرب سليمَان لينضم الى جيش الخوارج في انقضاضه على الكوفة (٤١) .

وبعد أن تمت لمروان السيطرة التامة على الوضع في جميع البلاد السورية عيّن والياً جديداً على العراق هو النضر بن سعيد الحرشي . وبعثه اليها على رأس كتيبة من جيش الجزيرة (٤٢) . ومع ان عبد الله بن عمر كان مرضياً عنه من قبل غالبية سكان العراق فهو آخر الأمر موظف مرواني بل هو نفسه أحد أفراد البيت المرواني . ولذلك فمع انه رفض الاعتراف بمروان بن محمد إلا أنه لم يرفض الحكم المرواني .

ولم يكن ينتظر من القوى المعارضة للحكم الأموي في الكوفة أن تسكت على الوضع والا تستغل لصالحها هذا التخلخل في القوة المروانية ولذلك فقد قامت هناك ثورة أخرى وصفت بأنها شيعية .

والسبب الوحيد لوصفها بالشيعية هو انها كانت بقيادة عبد الله بن معاوية ابن عبدالله بن جعفر أخ علي بن أبي طالب . وهذه أول مرة تعلن فيها ثورة شيعية باسم

---

(٣٨) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٨٥٤ – ٥ .
(٣٩) نفس المصدر ، ص ١٨٩٠ – ٢ .
(٤٠) نفس المصدر ، ص ١٨٩٢ – ٣ و ١٩١٢ .
(٤١) نفس المصدر ، ص ١٨٧٧ – ٨ و ١٨٩٧ و ١٩٠٨ – ١٢ . والأزدي. تاريخ الموصل ص ٦١ .
(٤٢) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٨٩٩ .

شخص من غير أبناء علي نفسه أو أحفاده وهي ترينا أن فكرة حق آل البيت بالحكم باتت تكتسب قبولاً عاماً وبالتالي لتشمل كل أبناء أعمام الرسول ﷺ. ولهذا فليس بالمستغرب أن تنهض جماعة أخرى من أبناء عمومة الرسول ﷺ وتدعي بحقها بالملك والسلطان.

وعلى كل حال، فان عبدالله بن معاوية لم يجد في الكوفة التأييد الكافي له لمقاومة جيش عبدالله بن عمر (٤٣)، فلما أُبعد عن الكوفة ذهب الى المدينة ومنها الى غرب ايران حيث أخذ يدعو لقضيته. ومع أن نجاحه كان لأمد قصير جداً فان دعوته بين الموالي لقيت استجابة واسعة (٤٤) ويجب أن يلاحظ أن هذه هي المرة الأولى التي يشارك فيها الموالي على نطاق واسع في اضطرابات الامبراطورية، وهذا بدوره يشير الى أن الاسلام بدأ يمدّ جذوره في غرب ايران وبأن الداخلين الحديثين للاسلام من أهل ايران كانوا يزدادون تأثيراً في حركة الاندماج.

وحيث أن نظام مروان الذي تميز بمعارضته لهذا الاتجاه كل المعارضة، قد بدأت تظهر فيه علامات الانهيار السريع فان هؤلاء الموالي لم يروا ما يمنعهم من تأييد ثورة عبد الله بن معاوية. لكن تأييدهم هذا يجب ألا يبالغ فيه اذ سرعان ما اختفى وذاب عند ظهور طلائع الجيش المرواني.

وفي هذا الوقت نفسه كان يجري في الكوفة قتال معقّد غريب مثلث الاطراف. فالطرف الأول وتسميه مصادرنا «اليمَانية» ويتكون من جيش العراق الجديد وبضمنه الحامية السورية وكلاهما بقيادة عبدالله بن عمر والي العراق السابق على أيام يزيد الثالث (٤٥). والطرف الثاني وتسميه مصادرنا «المضرية» ويتألف من كتيبة من جيش الجزيرة بقيادة النضر بن سعيد والي العراق الجديد الذي عيّنه مروان بن محمد (٤٦). وكان أولئك وهؤلاء يقتتلون فيمَا بينهم بين الحيرة والكوفة فلما اقتربت منهم الفئة الثالثة وهم فريق الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس اصطلح بن عمر والنظر واتفقا معاً على قتال

---

(٤٣) نفس المصدر، ص ١٨٧٩-٨٧.

(٤٤) نفس المصدر، ص ١٨٨٠-١ و١٩٧٦-٧.

(٤٥) نفس المصدر، ص ١٨٩٨-١٩٠٠، ١٩٠٥.

(٤٦) نفس المصدر والصفحات.

الضحاك[٤٧] ، الذي استطاع أن يحتل الكوفة بتأييد من بعض الجند السوري الذي كان مع عبدالله بن عمر[٤٨] مما اضطر بقية القوات اليمَانية المضرية المتحالفة على الانسحاب الى واسط ، التي ما ان وصلاها حتى بدءا يحاربان بعضهما البعض من جديد ، ولكنهما ما لبثا أن اتحدا ثانية حين انقضّت عليهما وعلى واسط خوارج الضحاك ، وعادا يداً واحداً على محاربة الضحاك[٤٩] . لكن هذا التحالف بين المضرية واليمَانية لم يدم طويلاً أيضاً فقد صالحت اليمَانية وابن عمر الخوارج وبايعوا الضحاك وصاروا معه كلمة واحدة على النضر الذي رأى انه لا طاقة له بهم فرحل والمضرية معه الى الشام[٥٠] .

وما لبث الثوار أن جاءهم مدد جديد اذ انضم اليه عضو آخر من أبرز أفراد البيت المرواني وهو سليمَان بن هشام بن عبد الملك ومعه حرسه الخاص «الذكوانية»[٥١] .

وقد هاجمت هذه القوة الجديدة المشتركة الموصل واحتلتها ولكن ما ان ثبّت مواقع مروان في بلاد الشام حتى أسرع بالزحف الى الموصل حيث التقى فيها مع الثوار في معركة حاسمة (١٢٨ /٧٤٦) شتت فيها شملهم وقتل فيها قائدهم الضحاك[٥٢] وتتبع من فرّ منهم الى العراق أوكان فيه فقضى عليهم ولم يمضِ وقت طويل حتى انضاف اقليم العراق الى بلاد الجزيرة العربية وبلاد الشام تحت سيطرة مروان الكاملة.

ولم يبد على مروان – حتى الآن – انه يعير خراسان كبير اهتمام فقد ثبت فيها نصر بن سيار والياً الذي كان قد تحدى يزيد الثالث في ولايته[٥٣] وقد اعتبر مروان هذا التحدي برهاناً على قدرة نصر على جمع التأييد الكافي له في خراسان.

ومع أن الواقع أن الأخبار كانت تنقل عن خصومات العرب فيمَا بينهم في خراسان والاشاعات القوية عن انتفاضة مرتقبة هناك ، إلا أن مروان لم يكن ليتوقع النتيجة غير

---

(٤٧) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٨٩٨ – ١٩٠٠ .
(٤٨) الكامل لابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ ، والطبري ، ج ٢ ، ص ١٨٩٩ .
(٤٩) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٩٠٢ و١٩٠٥ .
(٥٠) نفس المصدر ، ص ١٩١٣ – ١٤ .
(٥١) نفس المصدر ، ص ١٩١٤ و١٩٣٩ – ٤١ والأزدي ، تاريخ الموصل ص ٧٠ .
(٥٢) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٩٤٠ – ١ .
(٥٣) نفس المصدر ، ص ١٩١٧ .

المتصورة للوضع هناك. عدا عن هذا فقد كانت عند مروان مشاغل كثيرة كافية فقد كانت ثورة عبدالله بن معاوية تنتشر في غرب ايران وتستقطب حولها بقايا الثوار في العراق والجزيرة فقد التحق به سليمان بن هشام ومواليه من الذكوانية كما التحق به منصور بن جمهور ومن يتبعه من جند الشام (٥٤) وصارا يمدان ابن معاوية بالمال والرجال، وليس أقل من هذا أهمية وان لم يكن أمراً ذا بال من ناحية القوة المادية التحاق ثلاثة من بني العباس بعبدالله بن معاوية ولم يكن أحدهم إلا أبا جعفر نفسه الذي عرف فيما بعد بالمنصور (٥٥).

هذه الثورة الشيعية الاسم والمظهر تطورت الى ثورة خارجية عباسية مروانية ولذا فمن خلاف المنطق أن نحاول إيجاد أسس عقائدية مشتركة في هذا الخليط العجيب المتباين. والواقع أن غياب العقائدية عن هذه الثورة كانت نقطة الضعف فيها علاوة على فقدان التنظيم فيها، فلا شك أن المشاركين بهذه الثورة من أهل العراق والشام والجزيرة عرباً أم غير عرب كانوا من الساخطين على حكم بني مروان لكن هذا بحدّ ذاته ليس سبباً كافياً للابقاء عليهم موحدين تجاه القوات المروانية المتفوقة. ولم تدم هذه الثورة سنتين من الزمان إلا لأن مروان كان مشغولاً عنها بأمور غيرها، ولكنه ما ان تفرّغ لها حتى أحس الثوار بانهيارهم.

وفي أول معركة بين الطرفين تشتت شمل الثوار ومضوا يضربون في الأرض في كل اتجاه، ليلتقوا ثانية بعدحين في الانتفاضة الكبرى الثانية التي صار حدوثها أمراً محتوماً.

وقد فرَّ رؤساء ثورة ابن معاوية الى بلاد بعيدة في الامبراطورية ففرّ منصور بن جمهور الى السند وعبدالله بن معاوية نفسه الى خراسان حيث قتل هناك عام ١٢٩ /٧٤٦ بأمر من ثائر شيعي آخر بدأ نجمه في الظهور وهو أبو مسلم الخراساني (٥٦).

وعاد العباسيون، أبو جعفر وعمّاه بهدوء الى مسكنهم في فلسطين حيث سيهجرانه عما قريب الى الكوفة ليقودوا هناك ثورة أخرى اكثر تنظيماً واكثر حظاً بالنجاح.

---

(٥٤) نفس المصدر، ص ١٩٤٧.
(٥٥) نفس المصدر، ص ١٩٧٧.
(٥٦) نفس المصدر، ص ١٩٧٩.

وفي مصر ألغى ولاة مروان الاعطاءات التي كان قد أمر بها يزيد الثالث للجند الجديد في الجيش والأسطول. فثار هؤلاء الجند بالوالي وطردوه وأعادوا الى الولاية والي يزيد على أمل أن يعيد لهم العطاء (٥٧).

لكن مروان أرسل الى مصر جيشاً استطاع إنهاء التمرد وإعادة الأمن والهدوء الى ربوعها ولكن ما انسحب هذا الجيش من أرض مصر حتى عادت الثورة سيرتها الأولى (٥٨) الى صفوف الجند المعسكرين في الاسكندرية وفي مدن ساحل البحر الأبيض (٥٩) وانتشرت انتفاضات بسيطة بين السكان في أنحاء مصر جميعها. فوردت أخبار عن ثورة الفلاحين الاقباط في بلاد الدلتا، كما وردت الاخبار عن ثورتين في بلاد الصعيد (٦٠).

وأوشك العرب في مصر على فقدان سيطرتهم على البلاد، وزاد في فوضى الأمور وارتباكها نشوب ثورة بين العرب أنفسهم قام بها بعض عرب أهل الجزيرة الذين كانوا قد قدموا مصر أيام هشام واستقروا في بلدة بلبيس. وكان قد طلب اليهم الآن أن يهجروا أماكنهم هذه وينتقلوا الى نقاط الحدود في سيناء لحمايتها من هجمات الثوار الخارجين عليها.

ومع أن هؤلاء العرب مسجلون في الديوان وبالتالي فان عليهم واجب القيام بالمهام العسكرية حين يطلب اليهم ذلك. إلا أنهم رفضوا إطاعة الأوامر وأعلنوا الثورة فزادت ثورتهم في فوضى البلاد واضطرابها كما زاد في ذلك انشغال الحكومة المركزية في معالجة الأمور شرق الامبراطورية عن إرسال أية قوة عسكرية الى مصر لتعيد اليها الطاعة والهدوء (٦١).

وكانت اليمن أيضاً من المقاطعات التي سادها الاضطراب مدة طويلة بسبب

---

(٥٧) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٨٥-٧.

(٥٨) نفس المصدر، ص ٨٨-٩٢.

(٥٩) نفس المصدر، ص ٩٦.

(٦٠) نفس المصدر، ص ٨٨-٩٢.

(٦١) نفس المصدر، ص ٩٠ و٩٤ و٩٥.

محاولات بيت المال في الشام زيادة الضرائب على العرب هناك، فانتشرت ثورة خارجية جديدة (٦٢) في البلاد وكان من الممكن إهمال هذه الثورة لولا أن القائمين بها زحفوا على الحجاز واحتلوا المدينة نفسها عام ١٣٠ /٧٤٨ بعد معركة القديد الدامية التي قتل فيها نفر كثير من قريش.

وكان لا بد لمروان إنقاذاً لسمعته على الأقل من أن يسرع بإرسال جيش الى الحجاز استطاع أن يطرد الثوار من المدينة ثم اتبعهم حتى اليمن ينزل بهم الخسائر الكثيرة بالأرواح حتى انتهت الثورة وقتل جميع زعمائها (٦٣).

وفي هذه الظروف. قررت جماعة أخرى من الثوريين في خراسان ان الوقت قد حان لها للاعلان عن تدبيرها الثوري المنظم خير تنظيم وقد قدر لهذه الثورة، أن تطيح — والى الأبد — بحكم آل مروان.

---

(٦٢) ابن عبدالحكم، سيرة عمر، ص ٦٣ وتاريخ ابن خياط، ج ٢، ص ٤٠٨.

(٦٣) الطبري، ج ٢، ص ٢٠٠٦—١٥.



الفصل العاشر

نهاية العهد

لوكانت القوة العسكرية والقدرة العسكرية هماكل ما تحتاجه المروانية لإنقاذها من نهايتها المحتومة ولاعادة الأمن والسلام الى امبراطوريتها المنهارة لكان لها من ذلك في مروان بن محمد الكفاية ، فقدكان مروان يتمتع دون شك من هاتين الصفتين بالنصيب الأوفر ، فهو قد قضى أغلب حياته يقود الحملات في جبهات أرمينيا حتى كسب لنفسه بجدارة واستحقاق شهرة عسكرية واسعة وصيتاً محموداً ، وكما استطاع أن يجمع حوله جيشاً قوياً مكّنه من دحر الخزر فانه وكما رأينا من قبل ، قد أقدم الآن على إعادة بناء الامبراطورية المنهار.

ولكن رغم نجاحه في بلاد الشام وفي العراق وغرب ايران فقدكان لا بد لجهوده أن تنتهي بالفشل المحتوم ، ذلك لأن طبيعة نظامه كانت تدفع الى اثارة المعارضة الواسعة له في كل انحاء الامبراطورية بسبب ما في نظامه من سمات قيسية أوضح وأظهر مما في نظُم أسلافه.

فقدكان مروان نفسه من دعاة التوسع وعلى العكس من أسلافه الذين كانوا يحضون بتأييد متهافت من جند أهل الشام فانه كان يستند الى تأييد قوي مطلق من جيش أهل الجزيرة الذي كان من صنع يديه . وكان أهل الجزيرة هؤلاء في الواقع هم صميم بني قيس وقد أعاد مروان جمعهم وتنظيمهم فكانوا على أتم ما يكون من الاستعداد لأن يؤدوا للنظام الحاضر نفس الدور الذي أدّاه له جيش أهل الشام في السابق ، وانما بصورة أقوى وأبرز. ولكن حتى مثل هذه القـوة المنظمة والتي كان واضحاً من طبيعتها أنها كانت أقلية غير قادرة على إعادة الحياة لسياسات أفلست وبان خطاها وما كان عنادها على فرض ارادتها على كل الامبراطورية إلا الوقفة الأخيرة لها والتي أثارت في الواقع حفيظة

خصومها ودفعتهم الى الإقدام على أعمال حاسمة كان فيها القضاء المبرم على النظام المرواني وزواله التام من الوجود، وكان العرب قد فشلوا – لحد الآن – في إيجاد الحلول للمشاكل الاجتماعية والسياسية في امبراطوريتهم الواسعة والتي كسبوها بسهولة. فكان نظام الحكم في المدينة غير مهيأ وبشكل ميئوس منه، لمعالجة المشاكل التي انتهت بحرب أهلية لم يردها أحد.

فمع استثناء القراء فان مصالح الجماعات العربية الأخرى لم تكن من التشتت والاختلاف بحيث يصعب التوفيق بينها، وقد تجسد هذا التوفيق في شخص معاوية الذي كان نصيب تصرفاته الموزونة النجاح الدائم طيلة حياته.

على انه خلال حكمه الطويل الذي دام عشرين عاماً لم يقدم ولم يستطع أن يقدم حلولاً جذرية للمشاكل القائمة، وكل الذي استطاع فعله هو أن يعطي الفئات المتنافسة فرصة للتعايش فيما بينها على أمل أن مصالحها المتناقضة قد تتقارب يوماً ما.

لكن هذا المتنفس لم ينجح في اكثر من إعطاء هذه الفئات المتخاصمة فرصة لجمع شتاتها وزيادة قوتها وربما الابتعاد عن بعضها البعض اكثر من ذي قبل. ولهذا فما ان توفي معاوية حتى استؤنفت الحرب الأهلية على نطاق أوسع وأكثر عنفاً وأوسع مجالاً.

وكان فشل ابن الزبير، أمير المؤمنين المكّي المنافس، عن تقديم نظام بديل قد عرّض للخطر وحدة الامبراطورية وهدّد بتقطيع أوصالها. وللحفاظ عليها اضطر عبدالملك الى استعمال قوة جند أهل الشام، وقد نجح في عمله إلا أن ثمن نجاحه هذا كان كبيراً وباهظاً بالنسبة الى مستقبل السياسة الاسلامية، فقد صار استعمال القوة هو عماد الحكومات في فرض سلطانها وتثبيته كما صارت الثورات المسلحة هي الطريق الوحيد للمعارضة وما كانت هذه الحال التي انتهى اليها العرب إلا حصيلة عجزهم عن تطوير نظمهم السياسية للاستجابة الى ظروفهم الحديثة.

لقد اختير أبو بكر على أُسس قريبة من التقاليد العربية ليعالج ما كان مسائل عربية صرفة. ومع انه منح لقب «خليفة» الغامض فان سلطات منصبه كانت محدودة كسلطات أي رئيس عربي، ومع هذا فقد كان نجاحه ملحوظاً، أما بعد الفتوحات فقد أراد العرب أساساً رئيساً عربياً ليرأس «اتحاداً من الاقاليم المفتوحة وكانت هذه الاقاليم تعتبر أقطاراً ذات حكم محلي يملكها ويحكمها في الواقع فاتحوها الأولون وكان هؤلاء وطبقاً لتقليد

عربي قديم مستعدين لأن يتنازلوا لرئيسهم ، أمير المؤمنين في المدينة ، عن نصيب صغير من مغانمهم ، ولكن لم يكن من التصور أن يتنازلوا له عن أية سلطة أو يعترفوا بسيادته عليهم أو على أراضيهم التي فتحوها.

وقد تقوّى الحكم الذاتي للمقاطعات نتيجة إبقاء العرب على النظم الادارية والاجتماعية القائمة في الأراضي المفتوحة وتحت ضغط الظروف ، ونتيجة لعدم وجود أداة ادارية فعّالة في يد المدينة فان أمير المؤمنين لم يكن يسيطر على التطورات في الاقاليم. وكانت القرارات في كل اقليم يتخذها رؤساؤه ، والمتنفذون فيه ومن الطبيعي أن التنفيذ لا يكتب لهذه القرارات ما لم تتفق ومصالح الفاتحين في ذلك القطر.

وكان أمير المؤمنين يخبر فقط بهذه القرارات ولربما استطاع أن يتدخل حكَماً بين الفرقاء المعنيين اذا ما رفع أمر النزاع اليه أو علم به ، وليس في تقاليد العرب ولا في الاسلام ما يمكن أن يكون مرشداً للعرب في ما يجب أن يخول الى رئيس الامبراطورية من سلطات ، وربما كان اكثر العوامل وأسوأها تأثيراً على الوضع هو السرعة التي تمت بها هذه التطورات مما جعل من المستحيل عملياً على العرب أن يطوروا نظمهم السياسية المحدودة لمواجهة أوضاع جديدة غير متوقعة. ولا حاجة للقول بأن العرب ما كان بامكانهم في هذه المرحلة بالذات وحتى لو أرادوا ذلك أن يطبقوا نظم الامبراطورية الساسانية أو البيزنطية بحذافيرها. وعلى هذا فلم يمرّ وقت طويل حتى أدرك العرب انهم لا يستطيعون الحفاظ على امبراطوريتهم اذا لم يستطيعوا أن يحكموها بأنفسهم وان مسألة توسيع صلاحيات أمير المؤمنين أصبحت أمراً ملحاً يجب الاسراع فيه.

وقد أظهر سير الأحداث وجهتا نظر اثنتان وهما ما يمكن تسميته الوجهة الاسلامية والوجهة العربية. فالوجهة العربية توضحت ووضعت موضع التنفيذ أيام عثمان. ففي عهده حاول أن يزيد صلاحياته الزمنية وبعبارة أخرى فانه فضل زيادة سلطة أمير المؤمنين على أساس انه رئيس عربي.

أما وجهة النظر الاسلامية فكان علي بن أبي طالب أول دُعاتها حيث اشترط حين أريدت مبايعته بعد مقتل عمر ، أن يعطى سلطة كافية للتفسير الديني. ومع ان كلاً من عثمان وعليّ قد فشلا في توسيع صلاحيات أمير المؤمنين في هذا الاتجاه أو ذاك ، فان

وجهتي نظرهما ظلتا تمثلان التيارين الرئيسيين داخل المجتمع الاسلامي بقدر تعلق الأمر بسلطات هذا المنصب.

وسنجد بعد قرنين من الزمان أن مفكراً كبيراً مثل الجاحظ يدعو الى وجهة النظر العثمانية في حين تصبح شيعة عليّ من الجهة الثانية اكثر وضوحاً في مطالبتهم بسلطات دينية أوسع «لأمير المؤمنين الإمام».

ومما له دلالة أن الخوارج الذين يعارضون أشد المعارضة كلاً من عثمان وعلي لا يرون في أميرهم للمؤمنين اكثر من مجرد شيخ قبيلة عربي لا سلطات دينية أو دنيوية له وفي نفس الوقت فان وفاق معاوية لم يتضمن إعطاءه أية سلطة دينية ولو انه تضمن ضمنياً المزيد من السلطات الزمنية، ومع هذا فقد كان معاوية من القدرة والدهاء بحيث أدرك قوة القادة العرب المتزايدة في الاقاليم، فأباح لهم نصيباً في ادارة شؤون اقاليمهم. وكانت هذه خطوة جريئة نحو ربط الكيانات القبلية الجديدة في الحكومات المحلية بالحكومة الامبراطورية الناشئة وكان هذا في أساسه حلاً عربياً للمشكلة، ولذلك لم يكن من المستغرب اختلافه عن الحلول التي كان قد جاء بها عثمان. والظاهر أن معاوية نجح الى حدٍ ما في حلوله هذه لأنها في الواقع أحسن الحلول لأنه يدع المؤسسات السياسية العربية أن تتكيّف بالنسبة الى المشاكل السياسية التي خلقتها الفتوح. ولكن كانت هناك مشاكل اجتماعية أخرى في الامبراطورية تتطلب بدورها حلولاً سريعة. ولسوء الحظ فان معاوية لم يهتم بها أو يقدّرها حق قدرها أو انه لم يستطع أن يخرج بحل سليم بسبب المصالح المتضاربة للجماعات المتعددة والمستقرة في الأقاليم.

وكان حله الوحيد هو دفع العرب للمضي في مزيد من التوسع والفتوح، وهذا لم يزد عن كونه علاجاً مؤقتاً للأمور ولكنه بدوره وعلى المدى الطويل خلق مشاكل جديدة، اكثر بكثير من التي جاء لحلها. والواقع أن عجز العرب عن إيجاد العلاج للعلل الاجتماعية في امبراطوريتهم كان السبب الرئيسي الذي دفع عبد الملك الى استعمال القوة العسكرية المجردة لحفظ سلطته. ولكن لا الكبت العسكري الدائم للعلل الاجتماعية ولا التنفيس المؤقت عنها بحروب التوسع حققا الاستقرار العسكري الاجتماعي الداخلي المنشود.

وقد استعصى على المروانية تحقيق هذا الاستقرار، وهو الهدف الأساسي لكل نظام حكم صحيح، وأما محاولات الاصلاح القصيرة العمر أيام عمر بن عبد العزيز ويزيد

الثالث فلم يكن لها من أثر إلا إثارة المزيد من اليأس بين الساخطين، ولذلك لم يكن أمام المروانية إلا أن تعتمد اكثر واكثر على قوة السلاح للحفاظ على حكمها الذي بدأ ينظر اليه معارضوها على أنه نظام طغيان كامل، واكثر من هذا فان هذا الطغيان كان مؤيداً من الفئات المتميزة اجتماعياً وقد زاد هذا - بطبيعة الحال - من مشاعر السخط، والضيق عند المعارضة.

ومع أن ثورة جند أهل الشام على المروانية كانت الفرصة المنتظرة إلا أن مروان بن محمد نجح في الاحتفاظ بنظام الحكم هذا على نفس الأسس السابقة وقد أثبتت الأيام أن قوة السخط الاجتماعي كانت أقوى من قوة جيشه الجيد التنظيم.

وكان من أسباب هذا السخط أيضاً عجز الفاتحين العرب عن السماح للتحرك الاجتماعي في البلاد التي فتحوها ثم استقروا فيها وكان الدين الاسلامي يقدم اطاراً عاماً جديداً لبنيان اجتماعي جديد في الامبراطورية. إلا أن التقاليد والعرب أنفسهم هم الملومون على فشلهم في ذلك. فقبل أن يدركوا ان فتوحاتهم هذه هي انجازات دائمة كانوا يرحبون بمن يدخل الاسلام من سكان البلاد المفتوحة بل وكانوا مستعدين للتعاون مع هؤلاء حتى وان ظلوا على دينهم من أجل محاربة خصميهم الكبيرين الفرس والروم. ولكن ما ان أحس العرب بقوتهم وبعظم انجازهم حتى توقفت هذه العملية العفوية، ففي ما عدا بلاد الشام، حيث كان اكثر سكانها من العرب الذين دخلوا الاسلام، فان العرب ظلوا مبتعدين عن السكان الاصليين محاولين حصر سكناهم في مدن الحاميات التي بنوها لهذا الغرض.

وكان هذا الفصل الاجتماعي قوة دافعة الى ربط الفاتحين مع بعضهم البعض والى زيادة تشبثهم بما كانوا يعتقدونه ملكهم الخاص بحق الفتح. وكانت المصلحة المشتركة القوية بينهم هو وجوب الانتفاع التام من فتوحاتهم حيث كانوا يريدون الاستقرار النهائي. ولم يكن شيء ما يمنع العرب - كجيش فاتح - من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة، ولكنهم اذ أصبحوا مقيمين فان الوضع قد تغير تغيراً تاماً، فلو انهم اختلطوا مع سكان البلاد المفتوحة فان عدد العرب القليل سيضيع حتماً في غمرة أهل البلاد وبهذا سيخسر العرب لا هويتهم فحسب وانما مغانمهم من الأرض المفتوحة. فلم يكن من المستغرب إذن أن يفضلوا الانفصال أنفسهم وأن يظلوا خارج الكيان الاجتماعي للسكان

المغلوبين. وكان هذا ترتيباً جيداً للفاتحين والمغلوبين على حد سواء. لكن الضغط من الجانبين لم يلبث أن تكاثر حتى فَقَدَ هذا الترتيب مزاياه.

ومن جهة ثانية فقد تدفقت على مدن الحاميات العربية أفواج من المهاجرين الجدد وكان وصولهم اليها بدء صراع عنيف وطويل بين العرب أنفسهم. ومع ان أمل هؤلاء القادمين الجدد في أنصبة متساوية في مغانم الفتح قد وجّه الى فتوح جديدة، فان هذا قد زاد وضاعف من مشاكل مدن الحاميات، التي بدأت تفقد صفتها العسكرية لتتحول الى حواضر مدنية، فان تراكم ثروات السكان فتحت مجالات مدهشة للتجار لتجهيز البضائع وللانغمار في عمليات التحويل والعمليات المصرفية اللازمة لدفع العطاءات ولنقل الخمس الى بيت المال في المدينة. ومع ان أهل مكة كانوا أول من استغل هذه الفرص ولكن ما لبث أن حذا حذوهم غيرهم من العرب الذين اكتشفوا أن هذه الأعمال أجدى وأربح لهم من عطاءاتهم أو من نصيبهم في المغانم.

ونتيجة لهذا ساد العرب فتور عن الاسراع الى الحروب والغزوات وبالطبع كان هناك غيرهم ممن لا يستطيعون التسجيل في الديوان أو انهم لم يريدوا ذلك مفضلين الاحتفاظ بحرية التصرف وباختصار فقد استجدت عند العرب سكان مدن الحاميات أسباب جديدة جعلتهم يفقدون حماسهم للحروب، واحالتهم بالتدريج الى الحياة المدنية، ومن المتوقع أن هذه الأسباب تحمل آراء تجاه السكان المحليين تختلف عن آراء زملائهم الذين ينظرون لأنفسهم على أنهم الفاتحون، لا غير.

ولم يكن تدفق الناس على مدن الحاميات محصوراً بالمهاجرين العرب الجدد بل كان هناك كثير من غير العرب من المناطق المجاورة توافدوا على هذه المراكز المدنية الآخذة بالنمو والاتساع ليعملوا ويستفيدوا من امكانياتها الاقتصادية وسواء كان هؤلاء صنّاعاً أم عمالاً ماهرين أو غير ماهرين فان الحاجة الى خدماتهم كانت شديدة وقائمة وكان العرب الأغنياء يدفعون لهم عنها أجوراً عالية.

وقد جلب ازدهار التجارة معه تجاراً من مراكز تجارية أخرى. وعدا عن هذا فقد دفعت نكبات الحروب الأهلية بين العرب وكثرة الثورات الكثير من الفلاحين من مراكزهم الى مدن الحاميات طلباً للسلامة والأمن وطلباً للعمل أيضاً.

وقد أسهم هؤلاء السكان المدنيون من غير العرب إسهاماً كبيراً في تغيير طبيعة مدن الحاميات وساعد سكناهم المستمر في جوار العرب على تحطيم الحواجز بينهم وبين العرب والذي كان في الواقع الهدف الأول من بناء مدن الحاميات. وهكذا فان سير الاندماج بدأ أول ما بدأ في قلاع الانفصال وبعد جيلين من الزمان لم يسع رجلاً مثل الحجاج إلا أن يعلن أن البصرة والكوفة لم يعودا مركزين عسكريين.

وليست أهمية عملية الدمج في أثرها على السكان غير العرب فحسب بل وفي تأثيرها على السكان العرب أنفسهم أيضاً ومع انها كانت قوة اجتماعية حية فانها كانت كذلك عملية بطيئة السير وهي في هذه الحالة لم تؤثر إلا على حياة فئة قليلة من غير العرب.

وعلى الغالب فان هذه الأقاليم كانت خارج الصراع السياسي المحتدم بين العرب أنفسهم، ومن المهم أن نؤكد أن عدد المشاركين من غير العرب في هذه الانتفاضات خلال هذه الفترة كان طفيفاً هذا ان وُجد.

والصورة الشائعة التي ترسم غالباً عن صراع دام بين العرب وغير العرب في الامبراطورية صورة غير صحيحة، فالصراع كان بين العرب أنفسهم حول الاتجاهات الواجب اتخاذها تجاه الرعايا غير العرب وتجاه قضايا الاندماج. فالقيسيون وهم أقوى العشائر وأعلاها صوتاً كانت ترى في هذه الحركة تهديداً لوضع الفاتحين العرب وظلت تقاوم باصرار كل سياسة تهدف الى زيادة الدمج، في حين كان اليمانيون يرون أن من الأحسن الانتفاع من هذه الحركة وتوجيه طاقاتها لصالح الامبراطورية وسكانها، ولهذا فقد قبلوا وشجعوا في بعض الاحيان الخطوات في هذا السبيل وحيث ان الاندماج قد شجع بالواقع دخول غير العرب الى الاسلام فمن الممكن أن نستنتج أن هؤلاء المؤيدين كانوا يريدون حلاً اسلامياً للقضايا الاجتماعية في الامبراطورية مقابل الحل العربي القيسي لها.

وهنا أيضاً وكما كان الحال في الموقف بالنسبة لصلاحيات أمير المؤمنين فقد برز موقفان رئيسيان مختلفان الأول عربي واضح والثاني اسلامي الاساس. وهذه الثنائية في النظر الى مسألتين رئيسيتين قادت دون شك الى استقطاب الاتجاهات السياسية الى اتجاهين أحدهما الاتجاه العربي المحافظ، وثانيهما الاتجاه الاسلامي التقدمي. ولا حاجة للقول ان عمر بن عبد العزيز كان بطل الاتجاه الثاني.

ومع ان الاندماج قد مدّ جذوره في كل انحاء الامبراطورية فان نجاحه أو معارضته اختلفت من قطر الى آخر. وفي هذا الصدد وبالنسبة للثورة العباسية فقد كان لخراسان موقف خاص في تاريخ هذه الفترة وقد شرحت تفاصيل الموقف في هذه المنطقة وفي هذه المرحلة في مكان آخر، ويكفي هنا لأغراض هذا الكتاب أن نشير الى عناصرها البارزة[1].

وأول ما يجب أخذه بنظر الاعتبار هنا هو الجغرافيا السياسية لخراسان والمشرق أيام الفتح العربي فقد كان نهر المرغاب هو الحد الأقصى للحدود الشرقية للامبراطورية الساسانية وهكذا فقد كانت خراسان مقاطعة صغيرة لا تتعدى مناطق نيسابور والجوار القريب لمدينتَي الحدود، مرو ومرو الذود. وتقع الى الشرق من خراسان ممتلكات واسعة كثيفة السكان أولها امارات طخارستان الممتدة على طول نهر السند على السفوح الشمالية لجبال الهندوكوش وكانت هذه امارات متعدده تخضع كل منها لحاكم عسكري ولكنها جميعها تخضع لسيادة اسمية للجبغويه أمير امارات طخارستان.

وكان سكان هذه الامارات رحّلاً أو شبه رحّل وتوجد بينها أيضاً مجتمعات مستقرة واكثر سكانها يعودون في أصلهم الى الهياطلة. ويختلف المؤرخون ان كان أصل هذه الأقوام أتراكاً أم ايرانيين، ولعدم وجود اتفاق أو دليل يرجح أحد الرأيين على الآخر ولظهور عدائهم الواضح للأتراك في أواسط آسيا فنحن أميل الى اعتبارهم من أصل ايراني. وربما كان الأهم من ذلك هو حقيقة كون الغالبية منهم بوذيين في العقيدة.

وعلى المنحدرات الشمالية من جبال الهندوكوش كان هناك فرع آخر من الهياطلة يعرف باسم الزابول. وكانت مملكتهم تدعى مملكة زابولستان وكان يحكمها ملك يدعى زنبل اورتبيل وكانت البوذية، هي الديانة السائدة أيضاً في هذه المنطقة الجبلية. والى الشمال من منطقة طخارستان تقع بلاد السغد وهم قوم من أصل ايراني بالتأكيد، وفي أراضي وادي زارفشان الخصبة توزع السغد الى دول ومدن عديدة يحكم كلاً منها أمير، وعدا عن كون دول المدن هذه مراكز زراعية فانها وبالخاصة منها سمرقند وكيش وبيكند كانت مراكز لتجارة الصين العابرة من الشرق الى الغرب. وكانت الزرادشتية تسود في بلاد السغد الى جانب المسيحية والمانوية وكانت السمة العامة لجميع هؤلاء الناس

(١) لمزيد من تفاصيل الموقف أنظر كتاب «الثورة العباسية» للمؤلف.

الساكنين الى الشرق من الامبراطورية الساسانية هي انهم مع تأثرهم بالثقافة الساسانية فقد كان لهم أيضاً مؤسسات اجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة.

وبعد انهيار الحكومة الساسانية المركزية في الغرب فقد صار أمر فتح العرب لخراسان سهلاً. فالحملة العربية السريعة عام (٣١/٦٥١) حملت العرب الى حدود بني ساسان الشرقية وكان استسلام قلعة مرو تتويجاً لنجاح هذه الحملة. واذ حرم الرؤساء المحليون لمقاطعات خراسان ومدنها من نصرة حكومتهم المركزية فقد وجد هؤلاء أن الأفضل لهم أن يعقدوا اتفاقات هدنة مستقلة مع العرب الفاتحين، ونتيجة هذه الاتفاقات أو عهود الأمان أخـذ العرب يقبضون كل عام مبالغ كبيرة من المال مقابل عدم تدخلهم بأي شكل من الأشكال بالكيانات الادارية والاجتماعية والاقتصادية للمنطقة. وفي خراسان كان هذا يعني الابقاء على المؤسسات الساسانية التي يتمتع بها الدهاقين بمراكز ممتازة. فهم يملكون غالب الأراضي الزراعية وكانت وظيفتهم فرض الضرائب وجمعها وكانوا هم والموظفون العموميون ورجال الدين معفيين من ضرائب الرأس (الجزية) التي كان يقتصر دفعها على الفلاحين والصنّاع. والواقع أن عبء الضرائب يقع على كاهل الفلاحين لمنفعة الدهاقين، ولهذا فقد كان هناك ومنذ البداية تحالف متين بين الفاتحين والطبقات الممتازة التي ظل أبناؤها يحكمون هذه المحميات الجديدة بقوة العرب وتأييدهم.

وكان الحال في كرمان على العكس من هذا، حيث اقترنت الفتوح باستيطان العرب هناك، في حين لم يكن الاستيطان قد بدأ في خراسان بعد حتى في ذلك الوقت. ولكن بعد إتمام فتح كل مملكة الساسانيين تقريباً بدا وكأن العرب قد قرروا التوقف قليلاً قبل المبادرة بمخاطرات جديدة وفي أراضٍ جديدة.

وكانت خطتهم أن يتركوا وراءهم حامية تتألف من أربعة آلاف رجل بعد كل حملة سنوية ليتمكنوا من ضبط المقاطعة حتى وصول الحملة الثانية من البصرة. ومما له دلالة أن معاهدة مرو اشترطت اسكان هذه الحامية في بيوت سكان القرى المجاورة لمرو.

وفي خلال السنتين التاليتين (٣٢ - ٣٣/٦٥٢ - ٦٥٣) أتمّت الجيوش العربية فتح الممتلكات الساسانية، وبدأت غزواتها على أراضي الهياطلة تاركة فيها حامية لتأمين المقاطعة حتى عودة العرب ثانية. وعلى كل حال، ففي أواخر أيام عثمان الصعبة وفي

خلال الحرب الأهلية الأولى فان حملات جديدة لم ترسل الى خراسان لكن الحامية هناك كانت تزودّ دوماً بجيوش جديدة من البصرة.

وقد نشبت خلال هذه المدة ثورات عدّة ولكن حامية مرو كانت قادرة على الحفاظ على أمن المنطقة وفي عام ٤٧ /٦٦٧ استؤنفت حملات جديدة على خراسان كان الهدف منها تخفيف ضغط المهاجرين الجدد الى البصرة. ومع هذا فقد نجح العرب في النتيجة خلال السنوات الأربع التالية في التوغل البعيد في بلاد الهياطلة وبضم بعض الامارات الى محمياتهم، ولكن لم يكن أي من العرب قد استوطن في أي مكان في خراسان حتى انتهى يزيد بن أبي سفيان من إعادة تنظيم الكوفة والبصرة حيث نظم في عام ٥١ /٦٧١ اكبر هجرة في وقتها فأرسل خمسين ألف عائلة عربية للاستيطان في قرى واحة مرو. وكانت احكام معاهدة الصلح مع مرو تقضي على سكان هذه القرى أن يهيئوا السكن للقادمين العرب.

ولا يمكن التقليل من أهمية هذه الهجرة وشأنها لما كان لها من الأثر الاكبر على تطور المجتمع الاسلامي، ولم تبن أية مدينة حامية لهذا الجيش الجديد في خراسان ربما لأن مدن الحاميات كانت دوماً مشكلة تسبب للحكومة المركزية الكثير من المشاكل. وقد كانت تجربة فريدة لم تكن نتائجها تتصور أو تتوقع من قبل الفاتحين ومن الطبيعي أن هدف الحكومة هو تأمين سلامة ما تمّ من الفتوح وتأمين الجنود لاستمرار توسع هذه الفتوح، وكان العرب بوصفهم أعضاء في الديوان يتسلمون عطاءاتهم في خراسان مضطرين الى الاشتراك في الحملات السنوية لاكثر أيام السنة فلا يرجعوا الى بيوتهم إلا في أشهر الشتاء فقط وفي بعض الأحيان قد يقضون أيام الشتاء في الحروب. وقد نتج عن هذه الحملات المنظمة فتح اكثر امارات طخارستان وتوغل جيوش العرب عميقاً في بلاد السغد عائدة معها بالغنائم العظيمة للعرب ومع ان محميات عربية قد أُنشئت في الأراضي المفتوحة فان ما من عربي استوطن هناك وقد قطعت الحرب الأهلية الثانية هذه المسيرة فلم تحدث أية حملة طيلة الأربع عشرة سنة التالية (٦٤ - ٧٧/٦٨٤ - ٦٩٦).

وكان للصراع الدائر في قلب الامبراطورية عقابيله في خراسان فقد قاد الى قتال بين أنصار ابن الزبير وأنصار عبد الملك.

ومن المفارقات أن نجد أن مسيرة الدمج مدّت جذورها في واحة مرو بين العرب

والسكان المحليين خلال فترة عدم الاستقرار هذه. فبعض عرب خراسان فضّلوا البقاء هناك على الانغماس في هذا القتال العقيم الذي لا نتيجة له غير تعريض مراكز العرب الى الخطر في مناطق الحدود. وخلال هذه الفترة من الركود العسكري على الجبهة، لم يبقَ هؤلاء الحياديون عاطلين عن العمل تماماً وانما مارسوا بعض الأعمال السلمية وأهمها التجارة. وقد ساعدهم على ذلك كون مرو مركزاً تجارياً ولهذا فقد هيأت لهم فرصاً مربحة كثيرة للانتفاع بها من ثرواتهم المتراكمة وروابطهم الواسعة في بقية أنحاء الامبراطورية. وقد وجد تجار مرو من أهل البلاد الأصليين ان من الخير لهم أن يستغلوا هذه الامكانيات، وهكذا ولأول مرة نشهد أن العرب ينتقلون للسكن في مرو نفسها.

أما بقية من ظل من العرب في القرى المحيطة بمرو فقد بدأوا يمارسون الزراعة ومن الطبيعي أن يرغبوا كل الرغبة في امتلاك هذه الأرض التي يزرعونها لدرجة أنهم رضوا بدفع الضرائب المستحقة عليها، هذه الضرائب التي من المفروض أن يدفعها مالكوها الأولون والتي أنيط بالدهاقين فرضها وجمعها حسب أحكام معاهدة مرو.

وهذا يعني – في الحقيقة – أن بعض العرب الفاتحين بدأوا يخضعون لسلطان الدهاقين المحليين في قضايا الضرائب على الأقل. وفي هذا الوضع الشاذ دليل ملموس على درجة الامتزاج التي كانت تجري في مرو في ذلك الحين.

ومن المفيد أن نلاحظ ان بذور الاندماج بدأت تزدهر في فترة غابت بها سلطة الحكومة المركزية وهيمنتها غياباً تاماً. ولذلك فما ان عادت هذه السيطرة أيام عبد الملك حتى عادت سياسة الحملات المتواصلة وتوقفت مؤقتاً حركة الاندماج بين السكان العرب وغيرهم في مرو. وبدلاً عنها ولربما كمحاولة لإعادة الأمور الى سيرتها الأولى فقد سمحت الحكومة عام ٧٠٤/٨٥ بتسجيل جميع الايرانيين المسلمين في مرو بالديوان وأغرتهم بالعطاء اذا ما انضموا الى مقاتلة الجيش العربي في خراسان. ولربما كان هذا الاجـراء خطوة من الحكومة لتشجيع اندماج العرب بالسكان الايرانيين، ولكن حدوثه أيام الحجاج وبتوجيه منه ينفي هذا الاحتمال بل ويؤيد ان الغرض من هذا الاجراء كان منع أي اندماج جديد. فليس سراً أن الدخول الى الاسلام لم ينتشر بين الايرانيين كثيراً وان عدد المسلمين منهم حتى ذلك الحين لم يتجاوز السبعة آلاف وهم الذين سنجدهم بعد عشر سنوات في جيش قتيبة بعد أن شمل هذا الاجراء عموم المنطقة.

والواقع انه خلال ولاية قتيبة على خراسان (٨٦-٩٦/٧٠٥-٧١٥) اتخذت اجراءات قاسية لإيقاف عملية الاندماج إيقافاً تاماً. وكانت هذه فترة مشهودة لا من الناحية العسكرية فقط بل من الناحية التنظيمية أيضاً. فقد امتدت فتوحات قتيبة امتداداً بعيداً في أواسط آسيا، وكان لإعادة تنظيمه لجيش خراسان أثر عميق على حياة الجميع، وقد اتخذ تنظيم البصرة نموذجاً له فقسم العرب في خراسان الى خمس مجموعات حسب انتمائهم القبلي ثم فصل الموالي أي الايرانيون المسلمون في قسم خاص في جيشه بدلاً من تركهم ينتمون الى القبائل والبطون التي يدعون أنهم مواليها وهذا الاجراء يعني منح الوالي كامل السيطرة على العرب والموالي على حد سواء، وبالتالي تمكينه من إيقاف أية حركة اندماج جديدة عن طريق اشغال العرب والموالي في ساحات الحروب بصورة مستمرة. ولضمان نجاح هذه الخطة واستمرار سياسة التوسع غير المحدود فقد طلب قتيبة تجنيد غير المسلمين من أهل ايران في مناطق خراسان والمناطق القريبة منها. وكان هؤلاء المجندون يخرجون في الغزوات في الربيع ويعودون الى أهليهم في الشتاء. ولأن هؤلاء المجندين ليسوا من أفراد الديوان فقد وفر هذا الاجراء لقتيبة أموال عطاءاتهم، وما كان لهذا الاجراء أن ينجح في خراسان - على الأقل - لولا تأييد الدهاقين الذين يتفق اجراء قتيبة هذا ومصالحهم. اذ يجب أن نذكر دوماً أن العرب احتفظوا ودون أي تغيير بالنظام الاجتماعي الساساني الذي كان يتمتع الدهاقين بموجبه بامتيازاتهم القديمة وان أي تغيير في هذا النظام يعني تهديداً مباشراً لمصالحهم ونفوذهم. ولكن دمج بضع آلاف من الموالي في الجيش العربي ليس بالخطر الكبير ولذا فمن المحتمل أن يكون الدهاقين قد أيدوه وأعانوا عليه كدليل على تعاونهم مع الحكام العرب.

لكن اندماج العرب بالسكان المحليين، اذا ما استمر سيؤدي في النهاية حتماً الى تغيير أساسي في الكيان الاجتماعي. إذ لا يمكن البتة إبقاء هؤلاء العرب المندمجين خارج هذا الكيان الاجتماعي، بل يتوجب إيجاد المكان المناسب لهم داخله، وهذا يعني في النهاية زوال سلطة الدهاقين على رعاياهم ووضع حد لامتيازاتهم، لذلك فقد كان من مصلحتهم أن يتعاونوا مع قتيبة على إنجاح سياسته التوسعية على أمل اشغال العرب غير المندمجين في حروب مستمرة وفي ساحات بعيدة. وكان هذا التعاون على حساب الرعايا الايرانيين الذين لا مصلحة لهم في مشاركة العرب أمجادهم الحربية والذين تجوهلت

مصالحهم تماماً وكان غيابهم عن أهليهم وعن أعمالهم الانتاجية غالبية أيام السنة قد أثر بلا شك على أوضاعهم الاقتصادية دون ما مصلحة واضحة لهم في ذلك. فان حروب قتيبة وان جاءت بغنائم حربية كثيرة الى خراسان ولكنها الى جانب ذلك جرّدت البلاد والزراعة بصفة خاصة من يدها العاملة. وهذه الحال خلقت حالة اقتصاد حرب وتضخم أدّيا بدورهما بأسعار القمح الى الارتفاع.

وكان المجندون الخراسانيون أول من تضرر من هذا الوضع ، وكانوا أول من شكى منه أيضاً ، ولكن بمضي الوقت ضجركل من العرب والموالي من هذه الحملات المتتالية ، وفي أول فرصة سانحة وحينما كانوا فعلاً في حملة في فرغانة تعاونوا فيمَا بينهم لخلع قتيبة وقتله من أجل العودة الى بلادهم وأهليهم وكان هذا الحادث نقطة تحول في تاريخ العرب في خراسان.

وهكذا انقلبت سياسة التوسع اللاهثة على أصحابها فأدت الى مزيد من التعاون بين العرب والايرانيين وكان ما انتهت اليه من مقتل قتيبة اشارة انذار للدهاقين على ما يعتلج في نفوس رعاياهم الايرانيين من سخط وتمرد. أما بالنسبة للعرب فقد وضح وبدا للعيان لكل من يعنيه الأمر وكأن لا ندحة عن ازدياد حركة الاندماج وما يستتبعها من أمور. وحين جاء عمر بن عبدالعزيز الى الحكم عام (٧٧١/٩٩) كانت خراسان المحل المثالي لتحقيق فكرته في إنشاء امبراطورية اسلامية فهناك في مرو والقرى المحيطة بها مجموعة عربية كبيرة تعيش الى جوار السكان الايرانيين منذ حوالي نصف قرن. ولم يغب عن نظره الاتجاه القوي نحو الاندماج السائد بين العرب الساكنين هناك. واكثر من هذا فان الايرانيين قد تعاونوا مع العرب وبدأ الاسلام يمدّ جذوره بينهم ولذلك فان أي تشجيع بسيط يمكن أن يحقق الاندماج وكان قراره بعدم القيام بحملات جديدة في تلك الجبهة نصراً للمعارضين لحركة التوسع بل وذهب الى اكثر من هذا وأمر بانسحاب الحاميات المعسكرة في بخارى وسمرقند أيام قتيبة. ومن البديهي ان الحكم العربي في بلاد السغد كان يصطدم بمعارضة عنيفة واذ أدرك عمر حقيقة هذا الأمر فقد أراد من وراء الأمر بهذا الانسحاب انشاء علائق ودّ وسلام بين الطرفين ، ومن الطبيعي فان قيام مثل هذه العلائق سيكون في صالح أولئك المعنيين بالتجارة مع الطرفين وبعبارة أخرى فانه كان يهيئ الجو لانتقال العرب في خراسان من نشاطهم العسكري الى نشاط مدني. ولكي

يشجع اندماج الايرانيين بمن بينهم من العرب فقد منح الايرانيين المسلمين كامل المساواة مع زملائهم العرب في العطاء والضرائب. رغم أن هذا الاجراء لم يحقق هدفه المنشود خلال مدة حكم عمر القصيرة ولكن الشيء الهام أنه بعمله هذا أعطى حركة الاندماج حافزاً قوياً ووضع خطة محكمة فعّالة للنجاح المقبل ولهذا فلم يكن مستغرباً أن تنقل مصادرنا ولربما من باب التعريض – ان حركة ثورية بدأت في مرو عام (١٠٠ /٧١٨).

والقاعدة العامة أن الحركات الثورية تبدأها عادة أقلية صغيرة ضد تعنّت الاكثرية ضدها، ولم تكن هذه الثورة بالذات في مرو استثناء من هذه القاعدة فقد كانت هناك أقلية صغيرة من العرب فقط ممن يرغبون في التنازل عن امتيازاتهم مقابل الاندماج في حين ظلت الأغلبية الساحقة من العرب متمسكة بامتيازات الفتوح.

وكانت هذه الأغلبية تحظى بتأييد قوي من الدهاقين ولكنهما كانا يحاربان معركة خاسرة ضد القوى التقدمية من أنصار الاندماج. ومع ان الحملات العسكرية استؤنفت مجدداً بعد وفاة عمر بن عبد العزيز فقد كان هناك تردّد ملحوظ من جانب بعض العرب للاشتراك فيها الى درجة أن ظهور التهديد التركي في بلاد السغد لم يقنع هؤلاء المضربين عن القتال بالاشتراك فيه لصدّ العدو، فكان لا بدّ من استعمال القوة لحملهم على ذلك.

وسرعان ما اتضح عقم المحاولات لوضع حد لهذا التيار واضطر هشام أن يخضع الى حركة الدمج فسمح لعدد كبير من العرب يصل الى حوالي خمسة عشر ألف رجل أن يتركوا الحياة العسكرية في خراسان ويفيئوا الى حياة الدعة والسلم. وفي نفس الوقت، وكما قلنا من قبل، أحلَّ محلهم عام ١٨٣ /٧٣٢ عشرين ألف جندي من أهل العراق.

ومع ان هذه الخطوة ساعدت على إيقاف الخطر التركي فانها لم تساعد على حل مشاكل خراسان المعقدة وخاصة منها وجود جماعتين عربيتين متضادتين في مرو.

فالجماعة الأولى هي المضرية وهم جنود المقاتلة القدامى الذين ما فتئوا ينكمشون أمام تيار الاندماج الجديد الذي دفعتهم قوته الى التفكير في أمرهم وما سيصبح عليه مركزهم في هذه البلاد. وهم يفضلون بطبيعة الحال الاحتفاظ بالوضع الراهن بأي ثمن كان، ويؤيدهم في ذلك الدهاقين الذين يشاركونهم آراءهم.

وكانت الجماعة الثانية تتكون من العرب المندمجين والذين نسميهم هنا «المقيمين».

والذين بدأ عددهم يتزايد بمضي الأيام وخاصة بعد اعتراف هشام بوجودهم. فهم لم يفقدوا امتيازاتهم كأعضاء في الطبقة العربية الحاكمة فحسب، بل واضطروا أيضاً الى القبول بسلطة الارستقراطية غير المسلمة في مرو والتي كانت تتولى الادارة المحلية هناك واستمرت تتمتع في ظل الفتح العربي بما كان لها من امتيازات أيام الساسانيين، وكان المركز الاجتماعي لهؤلاء المقيمين نفس مركز الفلاحين الايرانيين في أدنى السلم الاجتماعي الساساني. وكان الحل الاستثنائي الساساني لمشكلة عربية على عكس الحلول الاسلامية التي ابتدأها عمر بن عبد العزيز والتي لم تفقد أثرها بين المقيمين بعد.

وبين المضريين والمقيمين يقف المقاتلة اليمَانيون وهم آخر القادمين الى مرو. وقد نجحوا تحت ظل خطة الوالي اليمَاني أسد القسري بالتعاون مع الهياطلة في صد الخطر التركي واضافة الى أن هؤلاء اليمَانيين كانوا يمثلون تهديداً خطيراً لمركز المضريين القدامى في المنطقة فان عدم ممانعتهم بزيادة تعاونهم مع العناصر غير العربية جعلهم أميل الى وجهة نظر المقيمين وأقرب اليهم سياسياً.

وفزعاً من الارتباك الذي ساد قلب الامبراطورية أثر وفاة هشام فقد قام المقاتلة المضريون في خراسان بقيادة نصر بن سيار بأخذ زمام الأمور هناك بأيديهم في مجابهة للحكومة المركزية أثناء حكم يزيد بن الوليد القصير الأمد (١٢٦ /٧٤٤). وكان فشل كل الانتفاضات السابقة ضد المروانية ثم إعادة توطيد قبضة النظام على عهد مروان الثاني قد اقنعا «المقيمين» في خراسان بأن لا سبيل للخلاص من نير مضطهديهم إلا بالثورة المسلحة ضدهم. وفي هذه المرحلة استطاعت فئة صغيرة من الثوار في الكوفة أن تدرك طبيعة الموقف المتفجر في مرو وما يمكن أن يفجره من طاقات. وكانت هذه الفئة هي الهاشمية ومقرّها الكوفة. فاستمروا قرابة ربع قرن ينشرون الدعوة لقضيتهم بين المقيمين في مرو حتى نجحوا في تحويل التمرد المحلي الى ثورة عارمة أتت على الحكم المرواني وابادته.

والهاشمية هي إحدى الحركات الشيعية المتعددة، وجدت في الكوفة في أواخر العهد الأموي ومع أن أهل الكوفة لم يألوا جهداً في الكشف عن معارضتهم الشديدة للحكم الأموي إلا أن تأييدهم للانتفاضات الشيعية كان محدوداً لا يعتمد عليه. وكان في فشل ثورة زيد بن علي في الكوفة عام (١٢٢ /٧٤٠) الدليل الكافي على هذه الحقيقة وعلى قدرة الحكومة على السيطرة على المدينة. ومع هذا فقد كان هناك شعور بالسخط العام

ضد الأمويين يسمح للحركات الشيعية أن تتخذ مكانها هناك. وهذه الحركات السرية كانت بطبيعتها محدودة العدد جداً وقليلة الجدوى لكنها أدّت الى تأسيس نحل شيعية أصغر وليس من العملي أن نحاول الآن التعريف بالمذاهب الدينية لكل طائفة أو نحلة من هذه الطوائف والنحل في هذه المرحلة التأسيسية وليس مـن الصواب في شيء أن نسمح لأنفسنا أن نضلل بأوصاف كتاب الملل والنحل وخير من هذا وذاك أن نحلل المعلومات التي يمكـن جمعها من مصادرها التاريخية الموثوق بها لتفسير مدلولاتها.

تتفق كل الفرق الشيعية على حاجة الأمة الى «الأمام» ليكون هو أمير المؤمنين أي انهم يريدون قائداً للجماعة الاسلامية يتمتع بقدر كاف من السلطات الدينية والدنيوية. وكلهم متفقون أيضاً أن مثل هذا الإمام يجب أن يكون من آل بيت رسول الله ﷺ اما اختلافهم فيتركّز حول طريقة اختيار الإمام وطرق تنصيبه لإمارة المؤمنين ومدى صلاحياته الدينية والدنيوية الممنوحة له وطبيعتها.

وكان تيسّر وجود شخص من آل البيت راغب في قيادة هذه الحركة أو على الأقل في اضفاء اسمه عليها هو الذي يقرر تفسير كل فرقة لكيفية الانتماء الى آل البيت ومداه. ففي حين دعت بعض الفرق الى احفاد الرسول ﷺ المباشرين ارتضت الفرق الأخرى بأبناء العمومة من درجات متفاوتة على أن ما يجب أن نلاحظه هنا أن بعض الفرق لم تجد غضاضة في نقل ولائها من جهـة الى أخرى. وكانت الطرق التي تتبعها كل جماعة لتحقيق غرضها تفرضها عليها ظروفها الخاصة، فبعضها فضّل الثورة المسلحة بـل واستعمال الارهاب في حين فضّل بعضها الآخر الطرق السلمية ولكن بالنسبة لجميع الشيعة فقد كان علي بن أبي طالب هو الإمام أمير المؤمنين الأمثل الذي استعمل «علمه» لحل مشاكل المسلمين.

«هذا العلم» أصبح حجر الزاوية في معتقدات الشيعة واعتقدوا انه متوارث في سلالته، أو على الأقل فانه ينتقل من جيل الى آخر ولوجود عدد كبير من الأحفاد وأبناء العمومة الذين يدعون هذا العلم فـان طرق حصول الإمام على هذا العلم تختلف من فرقة الى أخرى، فالوراثة أو الدراسة أو الالهام والهدى الالهي أو مجرد انتقال هذه المعرفة الى خلف معين يختاره الامام كلها طرق ومن الطبيعي فان مثل هذه التفرقات تحدّ أو توسّع من نطاق السلطات الدينية الممنوحة للإمام المعني، ولربما كانت وسيلة الى مطالبته

ببعض السلطات الزمنية أيضاً اذا ما قدّر له وأصبح أميراً للمؤمنين. ولكن الغالب وعلى العموم فان أمر هذه السلطات الزمنية كان يؤجل بحثه الى حين نجاح الحركة المعنية نجاحاً تاماً.

إلا أن المفهوم ضمناً أن هذه السلطات يجب أن تقل عن السلطات الواسعة التي يتمتع بها الحكام المروانيون. وضمن هذا النطاق العام للعقيدة الشيعية وجدت الهاشمية في الكوفة بين عامي ٨١–٩٨ أو ٧٠٠–٧١٦ وقد اتخذت اسمها من اسم إمامها أبو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب.

وكما نعلم فقد نودي بمحمد بن الحنفية (المتوفى عام (٨١/٧٠٠) بالإمام المهدي لثورة المختار في الكوفة (٦٤–٧/٦٨٤–٧). وقد وافق ابن الحنفية وبصورة غامضة على اضفاء اسمه على هذه الحركة وكانت هذه هي كل علاقته بها. ونحن لا نعرف عن نشاط أبي هاشم الا القليل جداً الذي لا يمكننا أن نقرر ما اذا كان نشاطه هو مجرد متابعة لما كان يدّعيه أبوه من حقوق ومطالب بصرف النظر عن قيمتها أو حقيقتها، أم انه اكتفى كأبيه من قبل باضفاء اسمه على هذه الحركة وحسب.

لكن الحقيقة الثابتة أن أكثر من جماعة شيعية ادعت أبا هاشم إمامًا لها بعد وفاة أبيه، وطبيعي أن الهاشمية كانت الفئة الوحيدة من فئات الشيعة في الكوفة التي استمرت تدعو لقضيته حين غيّر الآخرون ولاءهم إلى أفراد آخرين من آل البيت ولربما يجب أن يلاحظ انه بينما اكتشفت السلطات في الكوفة الحركات الشيعية الأخرى وأعدمت قادتها ظلت الهاشمية وحدها في سرية تامة.

وفي عام ٩٨–٧١٦ ذهب أبو هاشم، الذي لم يسكن الكوفة قط، لزيارة بلاد الشام، وفي طريق عودته الى الحجاز وافته المنية وهو في فلسطين ينزل دار علي بن عبدالله بن العباس وهو من أبناء عمومته وحفيد العباس عم النبي ﷺ. وعن طريق هذه الصدفة المحضة برزت للهاشمية قيادة جديدة. فقد روي أن أبا هاشم قد أوصى قبل موته بانتقال حقه في الملك الى محمد ابن مضيفه علي بن عبدالله. وليس من المهم ان نعرف صحة هذه الوصية أو عدمها بل المهم هو أن محمد بن علي ورث ادعاءات أبي هاشم ومعها تنظيمه السري للهاشمية في الكوفة، ولم يجد أنصار أبي هاشم صعوبة في تغيير الولاء من فرع من فروع بيت النبوة الى فرع آخر، وكان أبناء العباس يتمتعون بسمعة طيبة

وكانوا حتى ذلك الحين قد احجموا عن الارتباط مع الشيعة رغم أنهم لم يكونوا على أتمّ وفاق مع بني مروان. وعلى كل، فان اتخاذ علي بن عبدالله بن عباس مسكنه في الحميمة في فلسطين بعد الحرب الأهلية الثانية يدل على رغبته في العيش بسلام مع النظام الجديد ولربما كان نفسه يعتقد بعدم أحقية عائلته في الادعاء بأنها فرع من فروع بيت النبوة أو أن أي ادعاء من هذا القبيل من جانبهم سوف يحظى بالتأييد. ومن الواضح ان آراء ابنه محمد كانت تختلف عن آرائه وهذا ما يفسر استعداد الابن لقبول الوصية وأبوه ما زال على قيد الحياة.

وقد بدأ إمام الهاشمية الجديد محمد بن علي بتحويل التنظيم السري للهاشمية الى اداة لنصرة الحزب العباسي. وقد خفض عدد أعضاء التنظيم في الكوفة الى أقل عدد ممكن فلم يكونوا ليزيدوا عن الثلاثين شخصاً عرباً وموالي، وكان اكثرهم من المشتغلين بالتجارة بين سوريا والعراق والحجاز وخراسان مما سهّل لهم مجال التنقل والعمل في سرية تامة، وساعدهم على جمع معلومات قيمة واسعة عن الأحوال في مختلف بقاع الامبراطورية.

ومن اتصالاتهم في مرو أدركوا حقيقة الوضع هناك، ولهذا قرروا على أنها خير مكان لممارسة نشاطهم. وما ان وصلوا الى هذا القرار حتى وضعت الخطط لتأسيس قاعدة قوية في مرو نفسها. فبدأ منذ عام ١٠٠ – ٧١٨ رسل الهاشمية ودعاتها يترددون على مرو لنشر الدعوة والتبشير بها. ومع ان بعضاً من هؤلاء الرسل قد انكشف أمرهم وأعدموا في مرو عام ١١٨ – ٧٣٦ فان هذا لم يثن زعماء الحركة الآخرون من مضاعفة جهودهم والسير حثيثاً نحو تحقيق أهدافهم.

وبعد هذا بوقت قصير اختير بكير بن ماهان زعيم منظمة الهاشمية في الكوفة ليكون رسول محمد بن علي الى مرو وليشرف على تأسيس الحزب وتنظيمه هناك على أسس سرية مماثلة لما هو قائم في الكوفة، وقد اختير كذلك اثنا عشر نقيباً وكلهم من العرب أهل التقادم باستثناء مولى واحد هو سليمان بن كثير الخزاعي ليكونوا رؤساء هذا التنظيم الجديد، واختير أيضاً، وفي نفس الوقت ثمانية وخمسون داعية، أربعون منهم لمرو نفسها والباقون لباقي أنحاء خراسان ليقوموا ببثّ الدعوة والترويج لها.

وقد اختير هؤلاء الدعاة من بين العرب أهل التقادم في مرو، حيث ركزت – كما هو واضح – كل الجهود فيها.

ولم يكن محمد بن علي معروفاً بل ظل اسمه سرياً وكان الاتصال به في الحميمة يتم عن طريق الكوفة وكان موسم الحج هو المناسبة الوحيدة التي يتهيأ فيها لبعض قادة الحركة في خراسان شرف اللقاء بالإمام في الحجاز ليقدّموا له تبرعات أنصارهم في مرو. وظل بكير يتردد بين الكوفة ومرو سفيراً لمحمد بن علي حتى عام ١٢٥ /٧٤٣ حيث حمل الى الدعاة في مرو خبر وفاة محمد بن علي وانتقال الدعوة الى ابنه ابراهيم بن محمد.

وقد وافق تولي ابراهيم بن محمد زعامة الهاشمية بداية فترة الانحلال الذي انتاب حكم بني امية أثر وفاة هشام بن عبد الملك، وكان من نتيجة ذلك أن هاج بعض الأنصار في مرو يطالبون باستغلال الوضع في الامبراطورية للقيام بعمل سريع وحاسم ضد السلطان؛ لكن القيادة السياسية كانت ترى غير ذلك فأوفدت اليهم عام ١٢٦ /٧٤٤ سفيراً يثنيهم عن الحركة وينصحهم بالصبر والاناة وكان هذا السفير هو أبا سلمة الخلاّل الذي ورث رئاسة تنظيم الهاشمية في الكوفة بعد وفاة بكير بن ماهان. وكان في صحبة أبي سلمة في سفرته هذه الى مرو شاب اسمه أبو مسلم. وبعد أن قضيا أربعة شهور في مرو عادا معاً الى الكوفة بعد أن تركا سليمَان بن كثير الخزاعي على رأس التنظيم في مرو.

لكن الأحداث في قلب الامبراطورية تحركت بسرعة فقررت قيادة الحركة أن الوقت قد حان لإعلان الثورة. ولهذا وفي عام ١٢٨ /٧٤٩ عاد أبو مسلم ثانية الى مرو كممثل شخصي للإمام وليرأس حركة الثورة المنتظرة.

وقد اعترض سليمَان بن كثير على هذا التعيين لكن سرعان ما غلبه على رأيه أنصاره الذين أيّدوا أبا مسلم ضده فسكت على مضض.

وقد آن أن نبدأ الآن بحث مرحلة الثورة المكشوفة ولكن لربما كان من الأحسن أن نتوقف قليلاً لنؤكد على الدور الكبير الذي لعبته حملات الدعاية المتقنة التي نظمت خير تنظيم لاستغلال كل جانب من جوانب الوضع أفضل استغلال. ويجب الاعتراف بالفضل في هذا لزعماء الحركة لتهيئة الأجواء والاذهان في هذه المرحلة للثورة لا في مرو وحدها فحسب بل وفي جميع أنحاء الامبراطورية. وكان أبو سلمة دون غيره الذي طوّر

سلاح الدعاية وجعله أداة صارمة فعالة في معركة المصير في أنحاء الامبراطورية كافة ، فما من بارحة أو سانحة أو نذير في علم الغيب أو نبؤة إلا واستغلها لتأجيج الثورة وتفجيرها. فالاعلام السود كانت قد رفعت من الثوار الأوائل واتخذت صفة قدسية وصارت رمز فداء ، ولكنه الآن اتخذها شعاراً للثورة. وخلقت الأساطير والنبؤات عن ظهور الاعلام السود وانتشارها في المشرق معلنة نهاية حكم بني أمية.

واخترعت الشعارات لنشر الدعوة وضمان التأييد لها بين كل قطاعات السكان في الامبراطورية ، وكان التأكيد المستمر من قبل الطوائف الشيعية على حقوق آل البيت في الحكم وشهادة البعض من آل البيت على أيدي الأمويين قد ربطت اسم آل بيت الرسول في أذهان كثير من المسلمين بفكرة العدالة والفداء ، واستغلالاً لهذا الشعور العام فقد جعلت الثورة شعارها الدعوة الى الرضا من آل محمد ، أي الى أي من أفراد بيت رسول الله ﷺ الذي ترضى به الجماعة كافة. وهذا يعني الدعوة الى وحدة جميع الشيعة في كل أنحاء الامبراطورية ليحاربوا من أجل القضية كما يعني الاشارة الى أن الاتفاق على «أمير المؤمنين» مقبول من الجميع ليس بالأمر الصعب بعد النجاح. وهذا النفي الضمني من الإمام العباسي بحقه لا بدّ انه ترك في الجماعة أثراً طيباً.

ولكن أكثر الخطوات أهمية وأبلغها دلالة لدعوة جميع المسلمين عرباً وغير عرب الى حظيرة الثورة هو اختيار أبي مسلم نفسه لقيادة الثورة في هذه المرحلة الحرجة. فهناك بالتأكيد رجال كثيرون في مرو مؤهلون كل الأهلية للقيام بمثل هذه المهمة وكان الخطر كل الخطر في الطلب منهم أن يكونوا تحت الأمرة التامة لرجل غريب عنهم. ومع هذا فلم يكن بد من ركوب هذا المركب الخطر.

واكثر من هذا فان أصل هذا الرجل الغريب بل وحتى اسمه الحقيقي ظلا سريين ، حتى ان مصادرنا لم تتفق على أي نقطة تفصيلية عن تاريخ نشأته الأولى ، حتى ليبدو وكأن هناك خطة مدبرة لمسح كل ماضي هذا الرجل ثم إظهاره من جديد في صورة جديدة أخرى. ويكمن مفتاح هذه الصورة الجديدة في اسمه : أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني. وهذا الاسم يعني انه مسلم ابن مسلم وأبو مسلم وقد نسب نفسه الى خراسان كلها وليس الى قبيلة أو بطن لا أصالة ولا بالولاء كما كان الاسلوب الجاري آنذاك.

وهذا الاسم المزعوم هو أحسن شعار للثورة التي سيقودها أبو مسلم. وكان هو المثال الحي على أن كل فرد في المجتمع الجديد سيعامَل على انه مسلم يتمتع بنفس الحقوق والواجبات بصرف النظر عن جنسه وأصله ونسبه. أو بعبارة أخرى فان قادة الثورة قد أوضحوا بأفصح دلالة، التزامهم الكامل بحركة الاندماج التام.

ولهذا فما ان رفع أبو مسلم الرايات السود في مرو حتى انضم اليه في الحال ٢٢٠٠ رجل من أهل التقادم أي من العرب الأوائل المقيمين في القرى المجاورة لها، وفي أقل من شهر ارتفع عدد جيش الثورة الى سبعة آلاف رجل أمر أبو مسلم بتسجيلهم في الديوان الجديد متبعاً بأسمائهم وأسماء آبائهم أسماء قراهم. وهكذا تمّ الاندماج التام لأول مرة في هذا الجيش الذي أصبح كل أفراده خراسانيين.

وكان توقيت إعلان الثورة عاملاً هاماً في نجاحها، ذلك انه حدثت في وقت كان الصراع الداخلي بين المقاتلة في خراسان قد أنهك قواهم وأضعف كل فئاتهم، فلما ثبت مروان الثاني نصر بن سيار على ولاية خراسان عام ١٢٧ /٧٤٥ قوبل عمله هذا بثورة فعلية من اليمَانية يقودها جديع بن علي الكرماني، الذي اعتبر تعيين نصر ضربة لسياسته اليمَانية هناك. وكانت اليمَانية قد انتعشت ثانية بتعيين منصور بن جمهور اليمني والياً في عهد يزيد الثالث القصير الأمد ١٢٦ /٧١٤ ولكن نصراً سرعان ما تحدى منصور واغتصب منه السلطة. وعلى كل فقد كان لنصر بن سيار من القوة ما مكّنه من احتواء هذه الثورة مؤقتاً على الأقل. ولزيادة حماس أنصاره ومؤيـديه فقد عيّن نصر رؤساءهم عمالاً له في مختلف أقسام خراسان. وكان لهذه الحركة ردّ فعل عكسي اذ أضعفت قوته العسكرية لأن هؤلاء العمال اصطحبوا معهم الى مراكز عملهم بعض أتباعهم، ثم قام نصر بحركة ثانية ربما هدفت الى زيادة حسن سمعته بين أنصاره المضريين لـكن ثبت خطؤها الفادح، فقد تذكر الحارث بن سريج الذي كان قد لجأ منذ عشر سنوات خلت الى الترغش، فآمنه نصر ودعاه للعودة الى مرو (١٢٧-٧٤٥) على أمل أن يسنده الحارث ويدعم جهوده، لكن خيبة أمل نصر كانت عظيمة ولا شك حين رأى الحارث يسرع للاستفادة من الوضع في مرو لأغراضه الخاصة. وسرعان ما نشب القتال بين الاثنين وزاد الوضع سوء وتعقيداً تدخّل اليمَانيين في النزاع.

ومع أن الحارث نفسه قد قتل في هذه المعركة فان الحرب استمرت في مرو بين المضرية

واليمَانية وقد انضم للأخيرين بعض العرب المقيمين في مرو قبل اعلان الثورة.

وقد نجح أبو مسلم كل النجاح بجيشه الحديث التنظيم وباستغلال النزاع في مرو الى منفعة الثورة. فبعد قتال متقطع انتقلت فيه مرو من يد أحد الجانبين الى يد الجانب الآخر اكثر من مرة، ظهر أبو مسلم مع اليمَانية في أوائل عام ١٣٠ /٧٤٨ على انه سيد الموقف.

ورغم تقدم السن بنصر بن سيار فانه فرّ الى نيسابور حيث قرر أن يواصل القتال منها ضد الثورة، لكن أنصاره من دهاقين مرو وبعض مواليهم فرّوا الى بلخ حيث التحقوا هناك بعامل نصر على المدينة في محاولة أخيرة للصمود في وجه أبي مسلم وقواته.

وما ان دخل أبو مسلم مدينة مرو حتى جمع أنصاره وأتباعه ودعاهم الى البيعة الى الرضا من آل البيت أي من ترتضيه غالبية الأمة من آل بيت رسول الله ﷺ، ومع هذا فقد رأى أبو مسلم وجوب الحفاظ على الوحدة بين جيش الثورة وجيش اليمَانية في هذه المرحلة الحرجة من مراحل النضال. وفي الحقيقة فان وجود حلفاء أقوياء في صفوف أبي مسلم مكّنه من إرسال جيش الثورة لإنجاز مهمته الأساسية وهي فتح باقي أجزاء الامبراطورية.

وفي نفس هذه السنة (١٣٠ /٦٤٨) بدأ جيش الثورة الخراسانية بقيادة قحطبة بن شعيب، من كبار رؤساء أهل التقادم، زحفه الظافر نحو الغرب جامعاً في طريقه تأييداً متزايداً. وفي أقل من سنتين وصل الجيش الكوفة ودخلها عام ١٣٢ / ٧٥٠ بعد أن دحر ثلاثة جيوش مروانية واحتل كل الأراضي التي مرّ بها. وفي هذه الأثناء كان أبو مسلم وبمساعدة اليمَانية قد استطاع، بعد صعوبة، من تصفية كل جيوب المقاومة وأن يجعل نفسه سيّد المشرق غير منازع.

وفي هذه المرحلة لم يكن من الصعب عليه التخلص من القادة اليمَانيين ودمج قواتهم بقواته. وقد اتخذ لنفسه لقب أمير آل محمد وهذا يعني أنه يأمل بسلطات أوسع من مجرد كونه والياً على المشرق. وفي الواقع فانه ظل قريباً من تطور الاحداث في الكوفة يرقبها عن طريق عينه هناك أبي الجهم بن عطيه وكان قد عيّنه أبو مسلم مندوباً سياسياً لجيش الثورة الزاحف وظل في هذا المنصب حتى بعد الاستيلاء على الكوفة.

وقد استقبل الثوار الظافرون في الكوفة من قبل أبي سلمة الذي اعترف به في الحال

وزيراً لآل محمد والذي تولى السيطرة على الوضع في الحال. ولم يكن هناك قطعاً ذكر لأي إمام كما لم يكن هناك أي خلاف حول تولي أبي سلمة زمام السلطة، وكانت مسؤوليات أبي سلمة تشابه مسؤوليات رئيس الدولة المؤقت في حكومة ثورية. ومع هذا فان سيطرته على الجيش لم تكن كاملة تماماً بل ظلت السيطرة الفعلية عليه بيد أبي الجهم وكيل أبي مسلم في الكوفة. وبكلمة أخرى فقد كان أبو الجهم يمثّل قوة الثورة العسكرية في حين كان أبو سلمة يدير الشؤون المدنية للهاشمية في الكوفة، وكان الاثنان حتى الآن على وفاق تام. وكانت المشكلة الملحة هي اختيار الرضا من آل البيت أي فرد من آل الرسول ﷺ ترضى به الأمة أميراً للمؤمنين. ومع أن اسم إمام الهاشمية ابراهيم ما يزال مطروحاً بالتداول بين رجال الثورة ربما كان المرشح المحتمل لهذا المنصب، ولكن لسؤ الحظ فقد اكتشف المروانيون مؤخراً الصلة بين ابراهيم والثورة. لذلك فقد حبس أولاً في مسكنه في الحميمة ثم نقل بعد ذلك الى السجن في حران حيث اغتيل هناك عام ١٣٢/٧٤٩. أما بقية العباسيين فقد وصلوا الكوفة بعد وصول الخراسانية اليها لكن أبا سلمة أمرهم بالاختفاء وعدم الخروج الى الناس ورفض أن يدفع لهم ما كانوا يحتاجون اليه من نفقات. كما انه لم يخبر أبا الجهم بوجودهم في الكوفة وان كان بينهم أبو العباس عبدالله بن محمد أخ الإمام القتيل ابراهيم، والمفروض أنه خليفته في الدعوة الذي أوصى به قبل مماته. وهنا يبدو وكأن هناك خلافاً خفياً بين رجال الثورة حول أمير المؤمنين المقبل، فبالنسبة الى أبي سلمة كان اصطلاح الرضا من آل البيت يعني عنده أن الموضوع مفتوح وموقوف على رضا الكافة. أما بالنسبة للخراسانية فالموضوع ليس بالضرورة مفتوحاً الى هذا الحدّ لأنهم يميلون الى تفضيل «عباسي» من آل البيت، ولرأيهم هذا وزنه الكبير في هذه المرحلة وهذه الظروف.

وقد كان أبو سلمة رجل سياسة مسؤولاً وكان – دون ريب – على علم بالتيارات الشيعية المختلفة ومتطلباتها العملية بالنسبة الى سلطات أمير المؤمنين – الإمام –، وخاصة في مكان مثل الكوفة. وكان على علم أيضاً برغبات الخراسانية في الموضوع. وكانت مهمته التوفيق بين جميع هذه الآراء أو تقديم شخص من آل البيت يحظى بتأييد الأطراف المعنية جميعها. ولعله كان مقتنعاً أن أي «عباسي». لا يمكن أن يكون الشخص المطلوب وبالتالي فانه كاتب أفراداً آخرين من آل بيت الرسول ﷺ وهم جعفر الصادق

وعبدالله بن الحسن وعمر بن علي بن الحسن وكلهم من نسل الرسول ﷺ ويقيمون بالحجاز. ولا بدّ أن أبا سلمة رشّحهم الى هذا المنصب الأول بشروط معينة لأنهم جميعاً رفضوا العرض وبعد شهرين أخذت الخراسانية الأمر بيدها وفرضت مرشحها العباسي بموجب شروطها الخاصة. وقد تم هذا بتدبير من أبي الجهم مما يعني موافقة أبي مسلم عليه ولم يبقَ لأبي سلمة الا التسليم والرضا بالأمر الواقع.

وكان أمير المؤمنين الجديد أبا العباس عبدالله بن محمد وقد قبل المنصب على شروط الخراسانية، كما وافق أن يستمر أبو سلمة في وظيفته وزيراً، على ما يعنيه هذا من تقليل صلاحيته هو، أي أبو العباس. ولم يحمل أمير المؤمنين الجديد لقب الإمام وذلك يعني انه لا يملك السلطات الدينية التي تدعو اليها الشيعة في ظل أمير المؤمنين – الإمام –، وبعبارة أخرى فان الخراسانية التي رضيت دون نزاع ببقاء منصب الوزير الذي يملك السلطات الزمنية إنما كانت تتصور أمير المؤمنين دون سلطات زمنية وبسلطات دينية محدودة فقط. ومن الممكن القول انهم كانوا يهدفون من وراء هذا الى كسب تأييد المسلمين الآخرين الذين لا يرون رأي الشيعة في الامام أمير المؤمنين.ولكن مع ان هذه الفكرة قد طويت فان الخراسانية لم تكن ترضى أن تهب أمير المؤمنين الجديد سلطات زمنية طالما ان هذا قد يعني العودة الى التقاليد المروانية، ومعنى هذا ان الثورة لم تعمل إلا على تغيير الرأس الحاكم فقط. وللخروج من هذه المشكلة فقد رأت الابقاء على منصب الوزير الذي كان في الحقيقة خلق منصب جديد مكمّل لمنصب أمير المؤمنين.

وهنا يجب أن نتذكر أن المختار في أول ثورة له في الكوفة أعلن نفسه «وزيراً» للمهدي الذي ادعى انه محمد بن الحنفية ولكن تردد الأخير في قبول هذا الترتيب ثم فشل الثورة لم يدعا المجال لهذين المنصبين أن يستمرا في الحياة.

والآن فان الثورة الجديدة وان وضعت جانباً فكرة المهدي فانها أخذت بفكرة الوزير وأعطتها أبعاداً جديدة. فهذه الفكرة الغامضة التي أطلقها المختار تحت ظروف مختلفة تطورت اليوم الى منصب معروف محدد الواجبات في الكيان السياسي الجديد. وكان مبدأ تقسيم السلطة بين أمير المؤمنين والوزير من ابتكار الثورة ومن حلولها لمشاكل النظم السياسية في الامبراطورية. ومع ان هذا الحل لم يقم على تطور طبيعي للمؤسسات القائمة اسلامية كانت أم عربية، فانه يمكن أن يكون اطاراً عاماً لتطوير مقبول لمؤسسات الحكم

اذا ما أرادت الخراسانية نفسها أن تتنازل عن السلطة. ولكن مع الاحتفاظ بالقوة العسكرية في أيديها فان الخراسانية افرغت هذه المؤسسات من أي سلطة مادية أو معنوية وبحرمانها الوزير من السيطرة على الجيش فانها خلقت في الواقع موظفاً ادارياً كبيراً، ولكنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً إلا بموافقتها. ولما اكتشف أبو سلمة صعوبة الاستمرار بمثل هذا الترتيب حكمت عليه الخراسانية بالزوال. وقد قتل فعلاً عام ١٣٢ /٧٥٠ بموافقة القواد الثوريين وأمير المؤمنين الذي لا سلطة له، ومن المهم أن نلاحظ أن أبا الجهم تولى مسؤوليات الوزير المغتال لكن هذا لم يكن يعني انتهاء وظيفة الوزير بل على العكس فان الخلاف حول وجوده وسلطته ظلا موضوعاً أساسياً لعدة قرون قادمة.

وكان اختيار أبي العباس لمنصب أمير المؤمنين دليلاً آخر على رغبة الخراسانية في عدم منح هذا المنصب وصاحبه أية سلطة، فما لا شك فيه أن أبا العباس لم يكن خلال سني حكمه الأربع (١٣٢-١٣٦/٧٤٩-٥٤) بالحاكم القوي قط، ويقال ان اختياره يعود أساساً الى كون أمه عربية في حين أن أم أخيه الاكبر والأقوى منه أبي جعفر كانت أمةً بربريةً. ولكن من غير المعقول أن نتصور الثوار يتصرفون في مثل هذه القضية الشهيرة بهذا الشكل المكشوف وهم الذين خاطروا بأرواحهم في سبيل تحقيق الدمج التام بين شتى العناصر والأجناس في الجماعة المسلمة، ولذا فمن الأرجح أن يكون سبب التغاضي عن أبي جعفر هو كونه أقوى الاخوين شخصية وكان كل تاريخه يوحي بإيمانه بأمير المؤمنين القوي. وكان على أبي جعفر أن يقوم بعد خمس سنوات (١٣٧ /٦٥٤) بثورة مضادة ليوطّد سلطانه كأمير للمؤمنين على أساليب تكاد تماثل الأساليب المروانية، وقد أدى قتله لأبي مسلم الى وضع جيش الخراسانية في قبضة يديه القويتين ومنها ابتدأ يمارس سلطات زمنية دون الادعاء بسلطات الإمام الدينية.

والظاهر الآن ومنذ البداية أن الثوريين الظافرين والعباسيين قد ابتعدوا عن قضية الشيعة بانحرافها عن عقيدة الشيعية الاساسية بالإمام أمير المؤمنين، وكانت الثورات الشيعية الخطرة وخاصة في عهد أبي جعفر تشير بوضوح الى خيبة أملهم العظيمة بالثورة الهاشمية العباسية، فهذه الثورة حققت بكل تأكيد أحد أهدافها الكبرى وهو الاندماج الكامل لجميع أفراد الجماعة الاسلامية وهذا الحل الاسلامي للمشاكل الاجتماعية في الامبراطورية ساعد على نشر الاسلام بين السكان غير العرب وساعد الى حد كبير على

خلق ما يمكن أن يوصف بحق ، بالمجتمع الاسلامي النامي . ولكن لسوء الحظ فان الثورة فشلت في تأسيس مؤسسات سياسية مناسبة لحكم هذا المجتمع الجديد وهو فشل آخر سلب منها استقرارها . وقد شهدت السنة (١٣٢ – ٧٥٠) انهيار بقايا القوى المروانية فبعـد عدة شهور من وصول الجيش الثوري الى الكوفة في نفس ذلك العام ، زحف لاداء مهمته الاصلية وهي القضاء النهائي على المروانية . وقد اندحر جيش مروان ، جيش الجزيرة ، اندحاراً تاماً في معركة الزاب ، التي جرت على ضفاف نهر الزاب أحد روافد نهر دجلة في شمال العراق وفرّ مروان نفسه الى سوريا وفلسطين حيث لم يستطع – كما هو متوقع - أن يجد له تأييداً ، فهرب الى مصر ، وبعد سبعة أشهر فقط من معركة الزاب ، ألقي القبض عليه وقتل ، وهكذا وبعد ثلاث سنوات فقط من ظهور الثورة في مرو فان المروانية زالت والى الأبد .

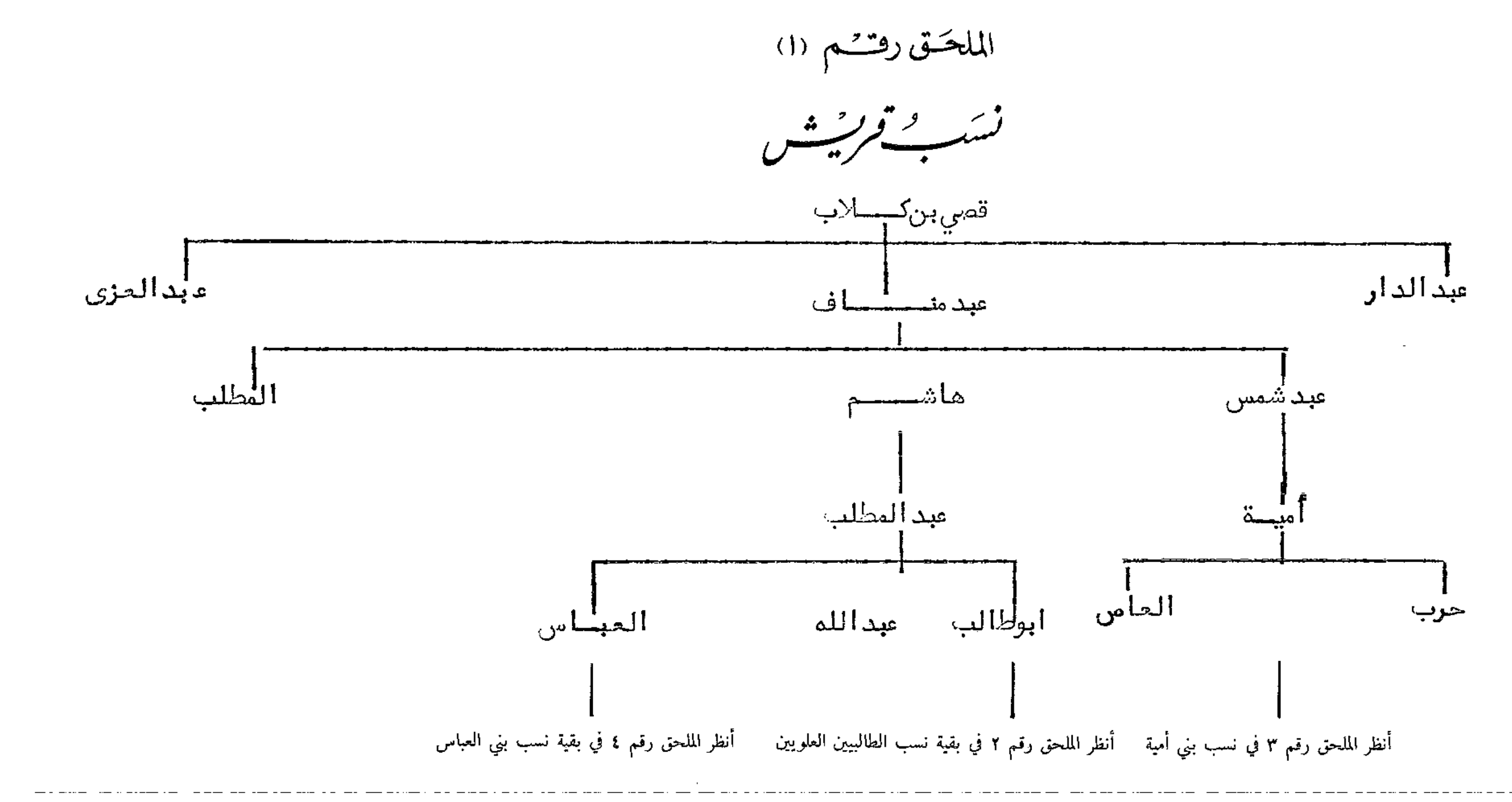
* * *

الملاحق :

ملاحظة : تقتصر هذه الجداول على الأسماء الهامة التي لها علاقة بأبحاث هذا الكتاب .

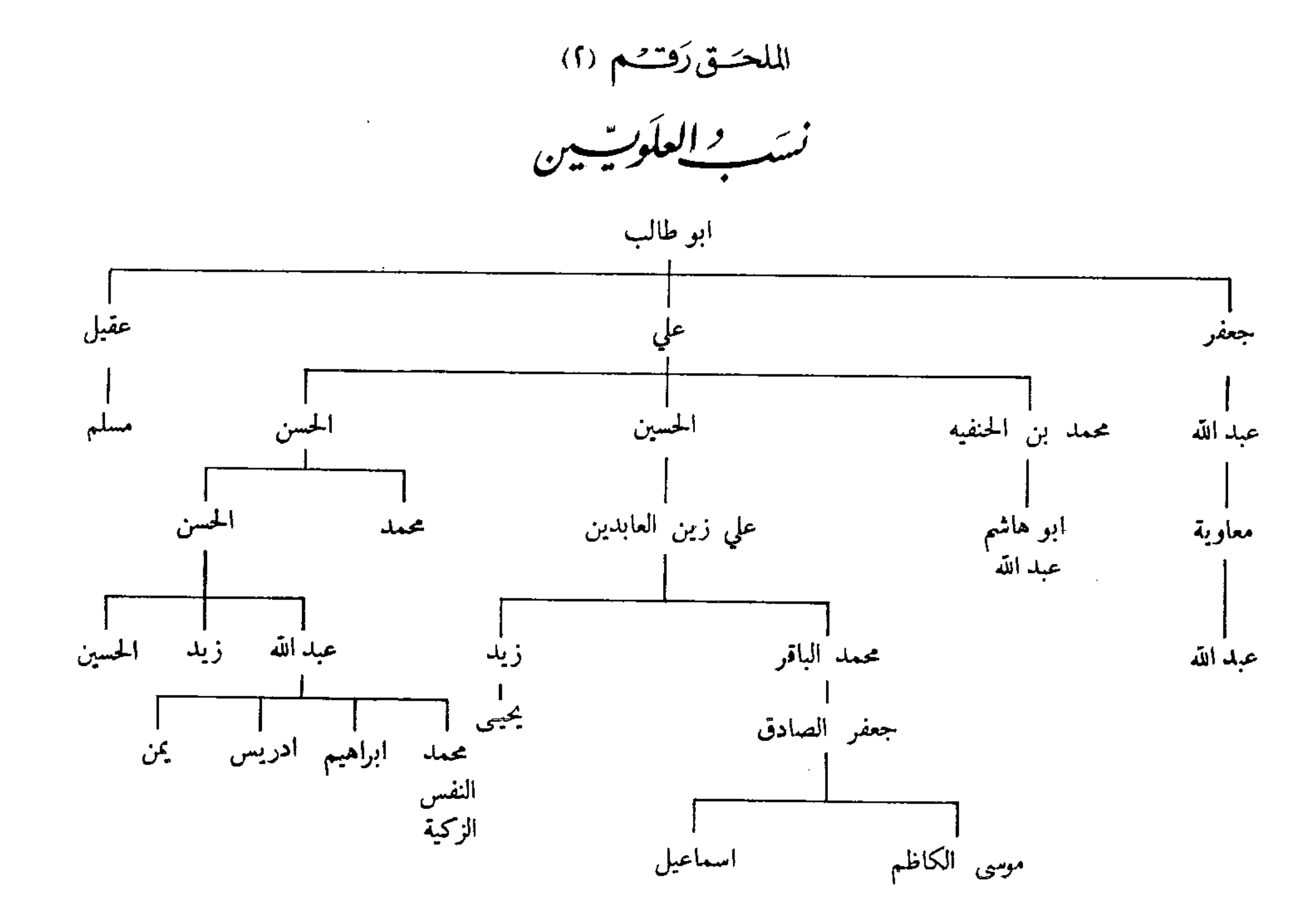
الملحق رقم (1)

نسب قريش



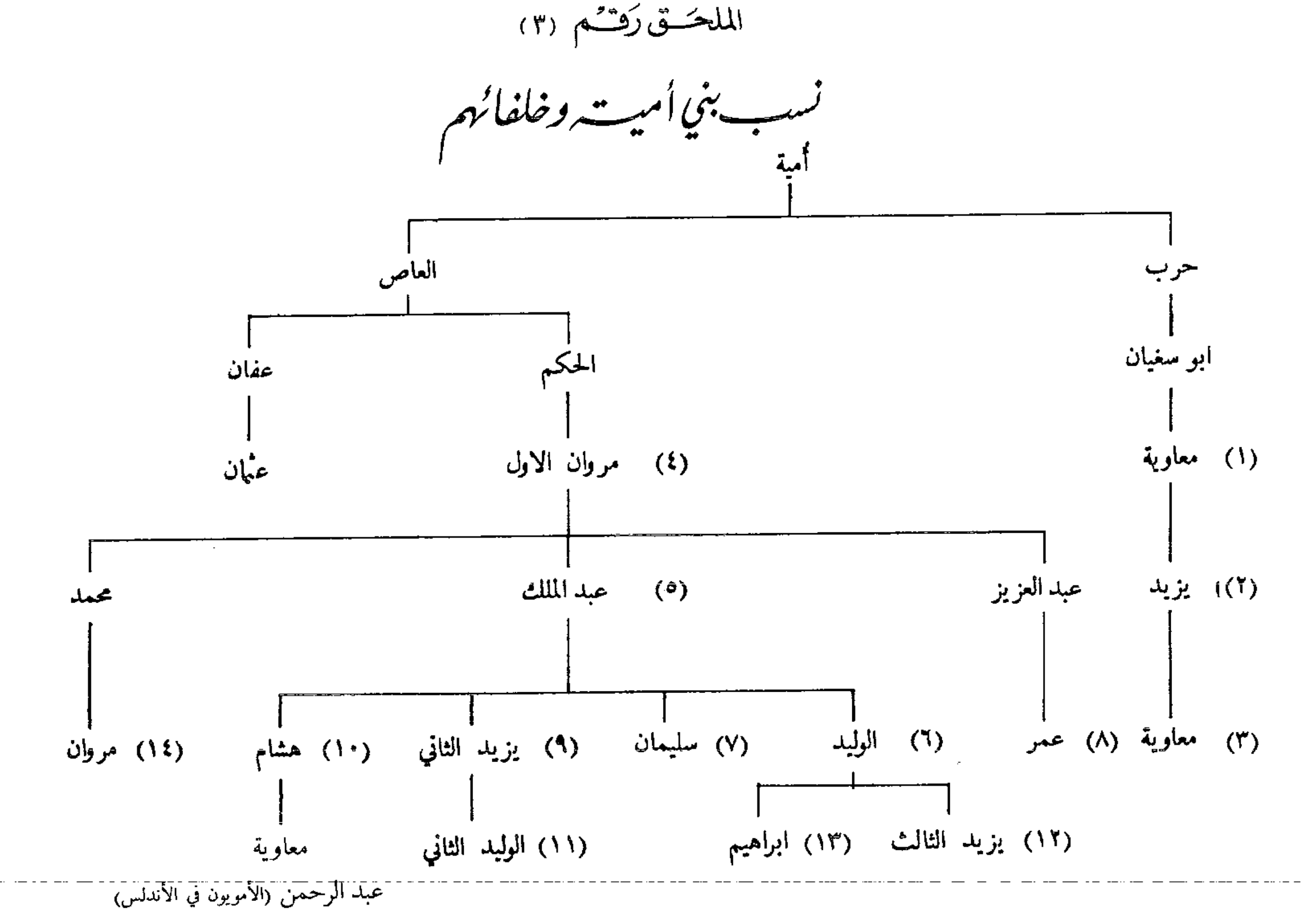
الملحق رقم (٢)

نسب العلويين



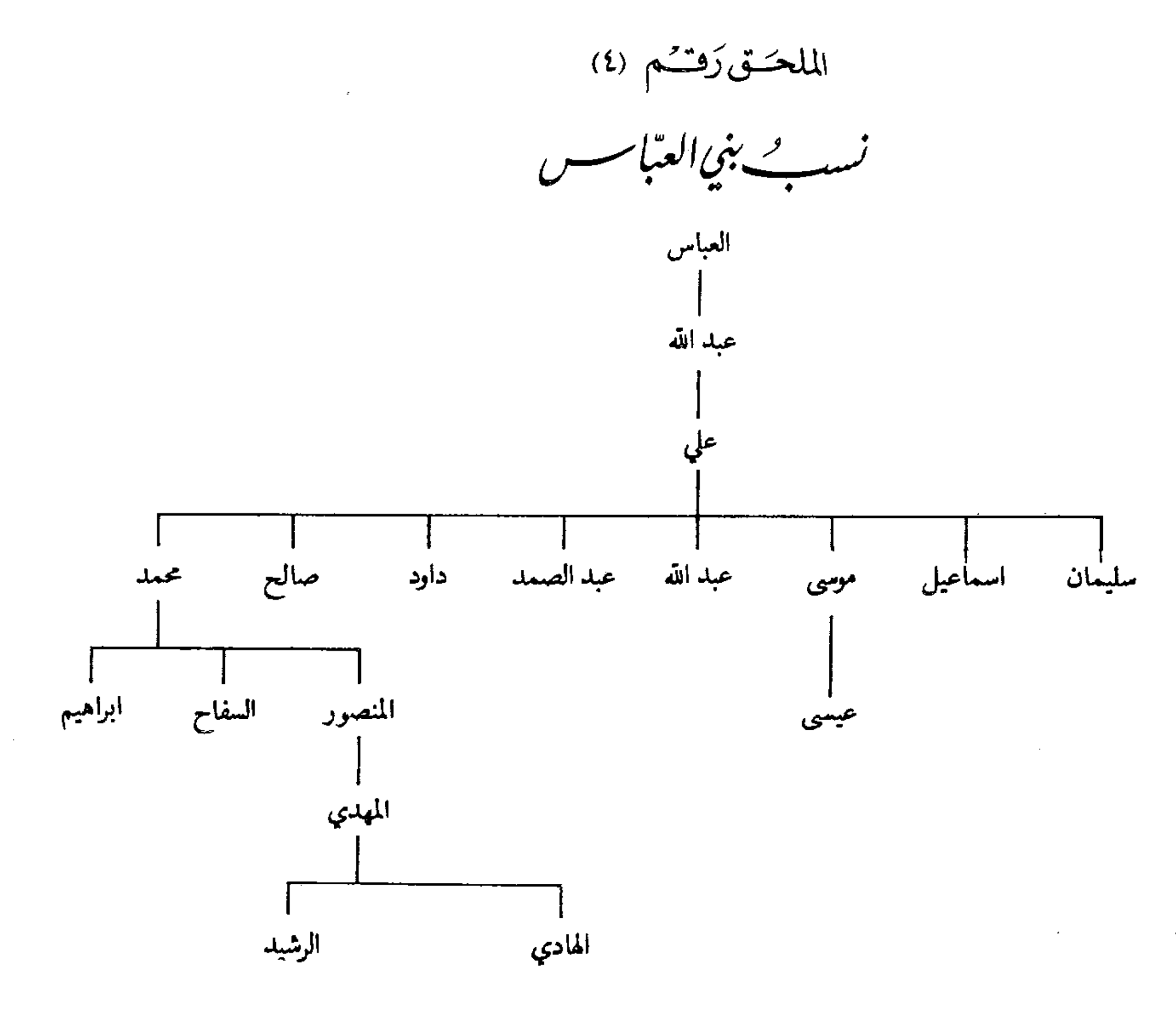
الملحق رقم (٣)

نسب بني أمية وخلفائهم



الملحق رقم (٤)

نسب بني العبّاس



الملحق رقم (٥)

تاريخ الخلفاء الراشدين

١١ – ٤٠ هـ   ٦٣٣ – ٦٦١م

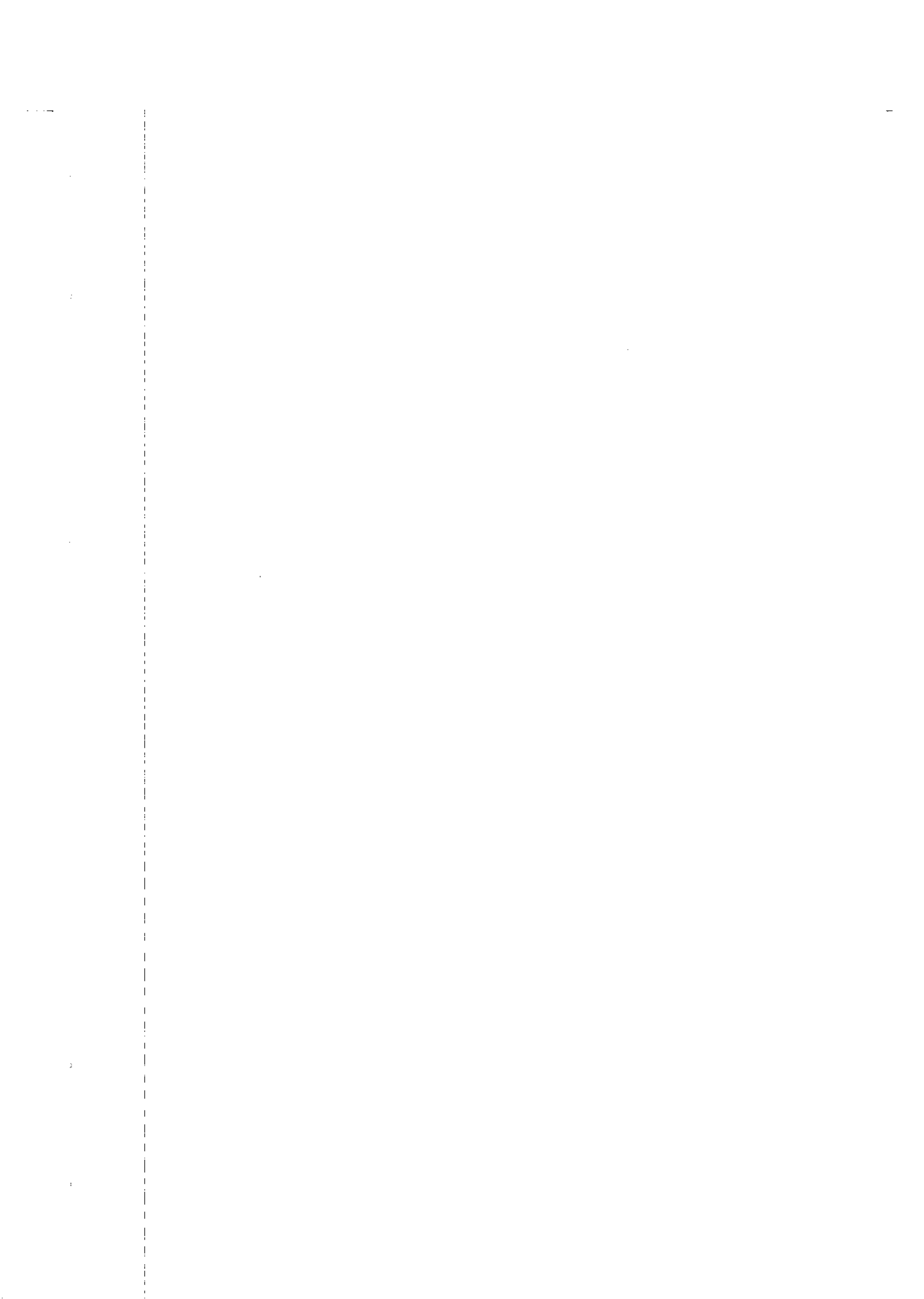
أبو بكر الصديق	١١ – ١٣ هـ	٦٣٢ – ٦٣٤ م
عمر بن الخطاب	١٣ – ٢٣ هـ	٦٣٤ – ٦٤٤ م
عثمان بن عفان	٢٣ – ٣٥ هـ	٦٤٤ – ٦٥٦ م
علي بن أبي طالب	٣٥ – ٤٠ هـ	٦٥٦ – ٦٦١ م

الملحق رقم (٦)

تاريخ خلفاء بني أمية

٤١-١٣٢/٦٦١-٧٥٠

١	معاوية	٤١ — ٦٠	٦٦١ — ٦٨٠
٢	يزيد	٦٠ — ٦٤	٦٨٠ — ٦٨٣
٣	معاوية بن يزيد	٦٤ — ٦٤	٦٨٣ — ٦٨٤
٤	مروان بن الحكم	٦٤ — ٦٥	٦٨٤ — ٦٨٥
٥	عبد الملك بن مروان	٦٥ — ٨٦	٦٨٥ — ٧٠٥
٦	الوليد بن عبد الملك	٨٦ — ٩٦	٧٠٥ — ٧١٥
٧	سليمان بن عبد الملك	٩٦ — ٩٩	٧٠٥ — ٧١٧
٨	عمر بن العزيز	٩٩ — ١٠١	٧١٧ — ٧٢٠
٩	يزيد بن عبد الملك	١٠١ — ١٠٥	٧٢٠ — ٧٢٤
١٠	هشام بن عبد الملك	١٠٥ — ١٢٥	٧٢٤ — ٧٤٣
١١	الوليد بن يزيد	١٢٥ — ١٢٦	٧٤٣ — ٧٤٤
١٢	يزيد بن الوليد	١٢٦ — ١٢٦	٧٤٤ — ٧٤٤
١٣	ابراهيم بن الوليد	١٢٦ — ١٢٦	٧٤٤ — ٧٤٤
١٤	مروان بن محمد	١٢٧ — ١٣٢	٧٤٥ — ٧٥٠



المصادر العربية
وهي المصادر الأساسية

الأثير (ابن) عز الدين :

– الكامل في التاريخ. ليدن ١٨٦٦، ١٤ج.

أخبار العباس وولده : لمؤلف مجهول.

– مخطوطة في معهد الدراسات الاسلامية العالية في جامعة بغداد (طبعت ونشرت مؤخراً).

الأزدي، أبو زكريا :

– تاريخ الموصل. القاهرة ١٩٦٧.

الاصفهاني، أبو الفرج :

–الأغاني ج ١ – ٢٠ القاهرة ١٢٨٥هـ، ج ٢١. ليدن ١٨٨٨.

أعثم (ابن) الكوفي الكندي، أبو محمد أحمد :

– كتاب الفتوح. مخطوط في استانبول في مكتبة أحمد الثالث، تحت رقم ٢٩٥٦ بجزئين. (طُبع مؤخراً في حيدر أباد)

البلاذري، أحمد بن يحيى :

– أنساب الأشراف : ج ٤، القدس ١٩٣٨ وج ٥ القدس ١٩٣٦ وج ١١ كريفسوان ١٨٨٣، والمخطوطة في المكتبة السليمانية باستانبول، تحت رقم ٥٩٧–٨ في مجلدين.

– فتوح البلدان – ليدن ١٨٦٦.

تاريخ الخلفاء. مجهول المؤلف. تحقيق ب. كبريازينيفيش موسكو ١٩٦٧ .

حزم (ابن) علي بن محمد :

– جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٤٨ .

خلدون (ابن) :

– كتاب العبر. القاهرة ١٢٨٤ هـ.

خياط (ابن) :

– تاريخ ابن خياط ، تحقيق اكرم العمري.

الذهبي ، محمد بن أحمد :

– تاريخ الاسلام ، ٥ أجزاء ، القاهرة ١٣٦٧ هـ.

سعد (ابن) ،محمد :

– كتاب الطبقات الكبير ، ٢١ ج ، ليدن ١٩٠٨–٢١ .

سلام (ابن) ،أبو عبيد القاسم :

– الأموال ، القاهرة ١٣٥٣ هـ.

السيوطي :

– تاريخ الخلفاء ، القاهرة (بلا تاريخ).

الطبري ، محمد بن جرير :

– تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٨٧٩–١٩٠١ .

عبد الحكم (ابن) ، أبو محمد عبدالله :

– سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٢٧ .

– فتوح مصر – بتوهافن ١٩٢٢ .

عبد ربه (ابن) ،احمد بن محمد :

– العقد الفريد ، ٣١ ج ، بيروت ٥١–١٩٥٤ .

عساكر (ابن) :

تاريخ دمشق ، تحقيق صلاح المنجد ، دمشق ١٩٥١ .

العيون والحدائق في الأخبار والحقائق :
– لمؤلف مجهول. ليدن ١٩٦٩.
الكندي، أبو عمر محمد :
– كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت ١٩٠٨.
المنيني – أحمد :
– شرح اليميني على تاريخ العتبي ١٢٨٦ هـ.
المبرد، أبو العباس محمد :
– الكامل في الأدب، ليبزج ١٨٧٤–٨٢.
المسعودي، علي بن الحسين :
– مروج الذهب، ٩ ج، باريس ١٨٦١–٧٧.
المقريزي، أحمد بن علي :
– خطط القاهرة، ٢ ج، القاهرة ١٢٧٠ هـ.
نصر بن مزاحم :
– وقعة صفين، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٩٤٦.
النوبختي :
– فرق الشيعة، النجف ١٩٣٦.
اليعقوبي :
– التاريخ ٢ ج، ليدن ١٨٨٣.
يوسف (أبو)، يعقوب :
– كتاب الخراج. القاهرة ١٣٠٢ هـ.

المصادر الأخرى

العلي – صالح أحمد: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، بغداد ١٩٥٣.

Belyaev, E.A., *Arabs, Islam and the Arab Caliphate,* tr. Adolphe Gourevitch, London, 1969.

Cahen, CL., «Djizya», *Enc. of Islam,* new edition, Leiden, 1954-.

Christensen, A., *L'Iran sous les Sassanides,* Copenhagen, 1936.

Dennet, D.C., *Conversion and the Poll- tax in Early Islam,* Cambridge, Mass, 1950.

Eickelman, Dale F., «Musaylima», *Journal of Economic and Social History of the Orient, 1967,* pp. 17-52.

Gibb, H. A. R., «An Interpretation of Islamic History», *Studies on the Civilization of Islam,* London, 1962, pp. 3-33.

«The Fiscal Rescript of ʿUmar II», *Arabica,* vol. II, january 1955, pp. 3-16.

Studies on the Civilization of Islam, London, 1962.

Kister, M. J., «Mecca and Tamim», *Journal of Economic and Social History of the Orient,* 1965, pp. 113-63.

«The Market of the Prophet», *Journal of Economic and Social History of the Orient,* 1965, pp. 272-6.

«Al-Ḥīra», *Arabica,* vol. xv, 1968, pp. 143-69.

Lewicki, T., «al-Ibāḍiyya», *Enc. of Islam,* new edition, Leiden, 1954-.

Lökkegaard, F., *Islamic Taxation in the Classic Period,* Copenhagen, 1950.

Serjeant, R. B., «*Haram* and *Hawṭah,* The Sacred Enclave in Arabia», *Mélanges Taha Ḥusain,* Cairo, 1962, pp. 41-58.

«The Constitution of Madina», *Islamic Quarterly,* vol. VIII, 1964, pp. 3-16.

Shaban , M. A., *The ʿAbbāsid Revolution,* Cambridge, 1970.

«The Political Geography of Khurāsān and the East at the time of the Arab Conquest», *Minorsky's Memorial Volume,* ed. C.E. Bosworth and J. Aubin, London, forthcoming.

Watt, W. Montgomery, *Muḥammad at Mecca,* Oxford, 1953.

Muḥammad at Medina, Oxford, 1956.

Muḥammad, Prophet and Statesman, London, 1961.

Islamic Political Thought, Edinburgh, 1968.

Wellhausen, J., *The Arab Kingdom and its Fall,* tr. M. G. Weir, Calcutta, 1927.

المطبعة البولسية
جونية - لبنان